من رسائل الأب صفرونيوس



الثالوث القدوس
توحيد وشركة وحياة

من رسائل الأب صفرونيوس

الثالوث القدوس

توحيد وشركة وحياة

اسم الكتاب : من رسائل القديس صفرونيوس
الثَّالوث القُدُّوس توحيدٌ وشركةٌ وحياة

الناشر : جذور للنشر والترجمة والتوزيع
ت: ٢٦٣٣٨١٣٧

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٨٥٧٧



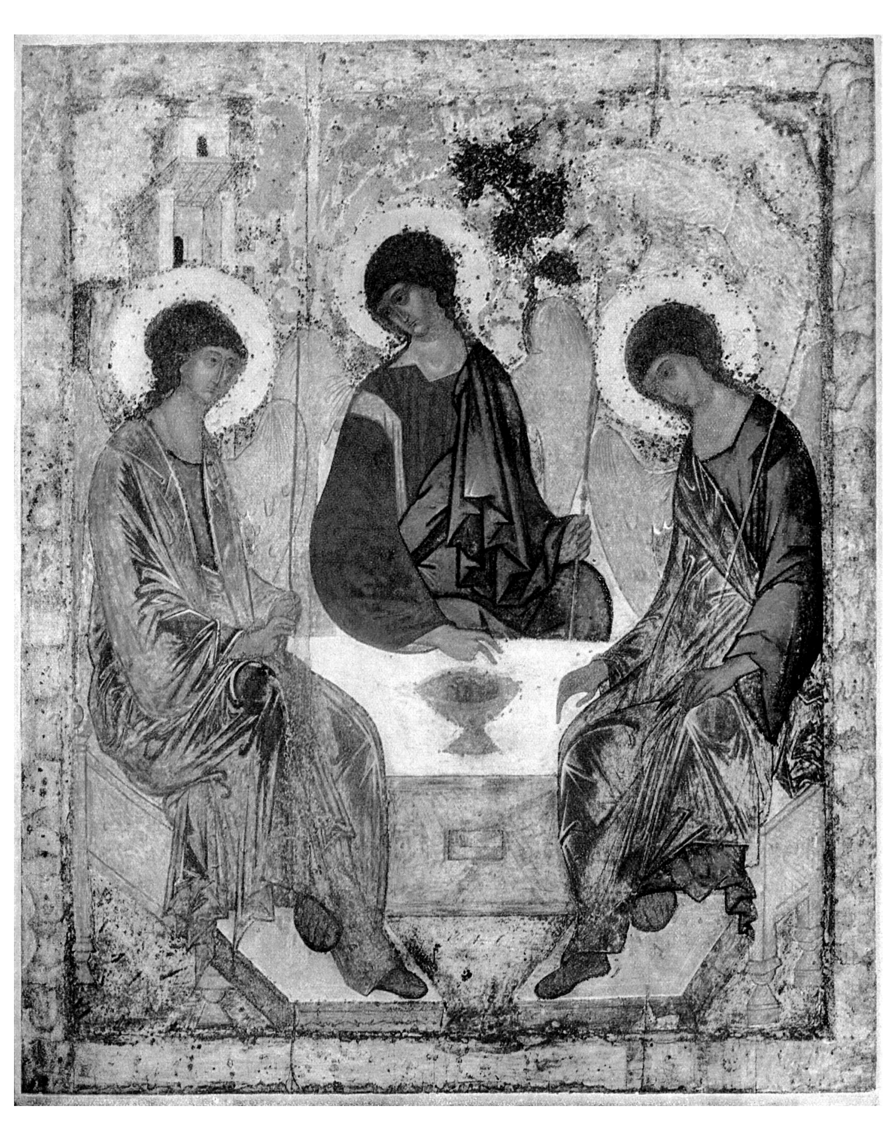
جدول المحتويات

الكتاب الأول

الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

رسالتين إلى الأب سلوانس، والأب يوساب



أيقونة الثالوث الأقدس لأندريه روبليف

تعريف بأيقونة الغلاف

أيقونة «ثالوث العهد القديم» التي صورها رسام الأيقونات الروسي العظيم أندريه روبليف في الربع الأول من القرن الخامس عشر لدير الثالوث والقديس سرجيوس في زاجوراسك بالقرب من موسكو. وتصور الأيقونة الملائكة الثلاث الذين زاروا إبراهيم وسارة. وقد عالج روبليف هذا الموضوع التقليدي على نحو أصيل، فلم يرسم إلاَّ الملائكة الثلاث وأضفى عليهم مسحة من الرقة والجمال في تكوين دائري يسوده الانسجام والصفاء الروحي. وفي القرن السادس عشر وُضِعَت الأيقونة بناء على أوامر القيصر الروسي بوريس جودونوف في غلاف (أوكلاد) من الفضة المذهبة والأحجار الكريمة، ولكنه نُزِع في بداية القرن العشرين عند ترميم الأيقونة، وهي تُعرض منذ ١٩٢٩ في متحف ترتياكوف بموسكو مجردة من غلافها بحيث تُرى في كامل بهائها الأصلي. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأيقونة خلبت لُب الكثيرين حتى قال عنها القس والعالم والفيلسوف الروسي بافل ألكساندروفتش فلورنسكي (١٨٨٢ – ١٩٤٣): «إن أشد البراهين الفلسفية على وجود الله إقناعاً برهانٌ لم يرد له ذكر في أي كتاب، ومن الممكن صياغته في أسلوب منطقي على النحو التالي: إن أيقونة الثالوث التي صنعها روبليف موجودة، إذن فالله موجود»[١].

(١) أنظر في ذلك مجلة رسالة اليونسكو — العدد ٣٢٥، يونيو ١٩٨٨ ص ٣، ١٠.

شرح أيقونة الغلاف[1]

بعد أن أتم تلاميذ روبليف العظيم سنة ١٥١٥ تزيين كاتدرائية سيدة النياح في موسكو بأيقونات رائعة، دخلها المتروبوليت والأساقفة والإكليروس والشعب، فصاح جميعهم بصوت واحد: «لقد انفتحت السموات حقاً وظهرت عظائم الله». إنه لشعور عميق نقدِّره خصوصاً أمام أيقونة الأيقونات، أيقونة الثالوث الأقدس التي رسمها الراهب الموهوب أندريه روبليف سنة ١٤٢٥، وقد رفعها «مجمع المائة فصلاً» بعد انقضاء نحو مائة وخمسين سنة على وفاته، إلى نموذج الأيقونوغرافيا، وكل ما يمثل الثالوث الأقدس. وفي سنة ١٩٠٤ رفعت لجنة الإصلاح كل الحلي المعدنية التي تزين الأيقونة. وبعد عملية شاقة دقيقة، ونزع الطبقات اللاحقة المتراكمة عليها، بدت الأيقونة بأبهى جمالها وروعتها، حتى استحوذ الذهول والإعجاب على أعضاء اللجنة أنفسهم. والحق يقال أن لا وجود لمثلها من حيث التعبير اللاهوتي المجمل وغنى الرمزية والجمال الفني.

تتميز الأيقونة بثلاثة أمور: تذكرنا أولاً بقصة الكتاب المقدس التي تتحدث عن زيارة الزوار الثلاثة لإبراهيم (تك ١٨: ١ – ١٥) يشرحها التعليق الليتورجي: «طوبى لك يا إبراهيم لأنك رأيتهم واستقبلت الإله الواحد المثلث الأقانيم». هذا وإن إلغاء صورة إبراهيم وسارة من الأيقونة يحملنا على التعمق أكثر في الموضوع والانتقال إلى الأمر الثاني الذي هو التدبير الإلهي. يؤلف الزوار الثلاثة «المجلس الأبدي» وتتبدل معاني المشهد: فخباء إبراهيم يصبح القصر — الهيكل، وسنديانة ممرا شجرة الحياة، والكون، رسماً إجمالياً في الطبيعة وعلامة طفيفة لوجوده، وتحل كأس القربان محل العجل المقدم للطعام.

---

(١) أُخذ شرح الأيقونة الوارد بالمتن نقلاً — بتصرف – عن كتاب "لاهوت الرؤية" للاهوتي الروسي بول أفدوكيموف، نقله إلى العربية بتصرف الأرشمندريت أنطون هبِّي، ونشرته منشورات القيامة — فاريا – لبنان ١٩٨٩ في سلسلة "من ثمار الروح" (٢) — ص ١١: ٢٧.

أما الملائكة الثلاثة فتبدو أجسامهم طويلة رشيقة ممشوقة وأجنحتهم مرسومة على طريقة مشهد الطبيعة، فتوحي مباشرةً بعدم المادة وخلو الثقل، وتلغي الأبعادية المعكوسة البُعد والعمق، حيث يختفي كل شيء في القصي البعيد. وتقترب صور الأشخاص، ويظهر وجود الله هنا وفي كل مكان. وتشكل رشاقة المجموع — وهي سر من أسرار عبقرية روبليف — رؤية مجنحة.

يتحدث الأشخاص الثلاثة، وقد يكون حديثهم نص يوحنا: «لقد أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد». والحال أن كلمة الله فعل مستمر، ويأخذ صورة ذبيحة الكأس.

أمَّا الأمر الثالث المتعلق بداخلية الله فموحى به؛ لأنه فائق الإدراك وصعب المنال، والله حاضر مع ذلك؛ لأن التدبير الخلاصي صادر عن حياة الله الداخلية.

الله بذاته محبة في جوهره الثلاثي، وما محبته للعالم سوى انعكاس محبته الثالوثية، وما عطاء الذات نقصاً، بل تعبير عن فيض الحب، وهو ممثل بالكأس، والملائكة مجتمعون حول الغذاء الإلهي. وقد كشفت عملية إصلاح الأيقونة الأخيرة عن محتوى الكأس الحقيقي. لقد مثلت الطبقة اللاحقة عنقوداً وغطت الرسم الأول أي الحمل، الذي يربط هذه المائدة السماوية بكلمة الرؤيا: الحمل المضحَّى به قبل إنشاء العالم. وقد سبقت المحبة والذبيحة والتضحية فعل خلق العالم وهي مصدر.

الملائكة الثلاثة في سكون؛ إنه السلام الأسمى للكائن بذاته. على أن هذا السكون «مُسْكِرٌ». إنه انخطافٌ حقيقيٌ (الخروج بحد ذاته). إن التناقض كل التناقض في هذا الانخطاف. لقد قال غريغوريوس النيصي: «إن أكبر تناقض هو أن يكون السكون والحركة شيئاً واحداً».

تبدأ الحركة من رِجل الملاك الأيمن اليسرى، وتستمر في انحناء رأسه، وتمر إلى ملاك الوسط، وتجذب الكون بقوة عزيزة لا تقهر: الصخرة والشجرة، وتنتهي في وضع ملاك اليسار العمودي حيث تدخل في السكون دخولها في نقطة تلاقٍ. ونلاحظ في هذه الحركة المستديرة التي تسيطر نهايتها على كل ما تبقى كما تسيطر الأبدية على الزمن. إن الخط العمودي للهيكل والعصى يُشير إلى خطوط

القوة العمودية، إلى تطلع الأرضي نحو السماوي حيث تجد القوة الدافعة حدَّها.

إن رؤية الله هذه تشع حقيقة العقيدة الفائقة للعقول، فتنجلي الوحدة والمساواة من نظرة روبليف إلى الملائكة. فباستطاعتنا أن نأخذ ملاكاً مكان الآخر. وإن ما يفرق بينهم هو وضع الملاك الشخصي باتجاه الملاكين الآخرين. ومع ذلك، فلا وجود للإعادة والتكرار والإشكال والخلط. ويشير الذهب البرَّاق على الأيقونات دائماً إلى الإلوهة وفيضها، وتحيط أجنحة الملائكة باتساعها كل شيء وتغطيه، ويُظهر محيط Contours الأجنحة الداخلي المرسوم بالأزرق المُضاء الوحدة وصفة الطبيعة الواحدة السماوية؛ إنه إله واحد بثلاثة أقانيم متساوية تماماً. وهذا ما تدل عليه العُصيّ المتماثلة، علامة السلطة الملكية التي يتمتع بها كل ملاك.

وقد عبَّر روبليف بوضوح عن مساواة الملائكة الثلاثة الكاملة، حتى أنه لا توجد قاعدة لتحديد الأقنوم الإلهي الممثَّل بكل ملاك. فلا يشكل ملاك اليمين مشكلة: إنه الروح القدس. أمَّا الخلاف فقائم حول ملاك الوسط، فنتساءل أيُمثِّل الآب أم الابن؟ وفي حال تحديده تُعرف هوية ملاك اليسار.

هنالك شهادة مهمة للقديس اسطفانس البرمي de Perm المعاصر الأكبر لروبليف وصديق القديس سرجيوس الروسي. لقد حمل من بلاد الزيريان Zyrianes – وهي مقاطعة واسعة تمتد حتى جبال الأورال، تدعى ”البرمية الكبرى La grande Permie “ حيث كان يعمل – حَمَلَ أيقونةً تمثل الثالوث الأقدس على نحو أيقونة روبليف. وقد سُطِّرت حول كل ملاك كتابة باللغة الزيريانية تحمل اسمه. فدعي ملاك اليسار بي Py أي الابن، وملاك اليمين بيولتوس Puiltos أي الروح القدس، وملاك الوسط آي Ai أي الآب.

يتبع بول أفدوكيموف في تعليقه هذا التقليد ويقول: لقد دوَّنت السيدة ن. دومين N. DEMINE في دراستها الممتازة عن فن روبليف (موسكو ١٩٦٣ ص ٥٢ باللغة الروسية): ”لقد اجتهد اسطفانس البرمي – سداً لحاجات رسالته – أن يشرح بمنتهى الوضوح معنى الأيقونة. إن ترتيب الملائكة في أيقونته مماثل لترتيب روبليف. ومدلولهم مماثل أيضاً على الأرجح“.

لكل أقنوم علامته الخاصة المميزة المشار إليها بالعصي التي توجه الأنظار إلى هذه الرموز. فتوجد خلف الآب شجرة الحياة، المنهل. يقول القديس اسحق: "إن شجرة الحياة حب الثالوث الأقدس التي سقط منها آدم". وتشير عصا المسيح إلى البيت – جسد المسيح السري. ويبدو الروح القدس على خلفية "الصخور المتدرجة": إنه الجبل، العليِّة، جبل ثابور، الارتفاع، الانخطاف، نسيم الفضاء، والقمم النبوية.

أمَّا الأشكال الهندسية للإنشاء التصويري، فهي: المستطيل والصليب والمثلث والدائرة، وهي التي تنظم بنية الصورة من الداخل، وعلى المرء أن يكتشفها.

لقد كانت الأرض بحسب مفهوم ذلك العصر مثمنة الأضلاع والزوايا. والمستطيل، خطوط الأرض المبهمة، نراه على جزء الطاولة الأسفل. أمَّا جزء الطاولة الأعلى، فهو مستطيل أيضاً ويشير إلى جهات العالم الأربع، وإلى الجهات الأصلية الأربع، ويرمز هذا الرقم (٤) عند آباء الكنيسة إلى الأناجيل الأربعة بكاملها بدون زيادة أو نقصان، وهو علامة شمولية الكلمة. ويمثل جزء "الطاولة – الهيكل" الأعلى، الكتاب المقدس مقدِّماً الكأس، ثمرة الكلمة. وإذا مددنا خط شجرة الحياة – القائمة خلف ملاك الوسط – نراها تنزل وتجتاز الطاولة وتغرس جذورها في مستطيل الأرض. لقد أعلنها الكلمة وغذَّاها من محتوى الكأس. ونجد فيها شرح سرها: لِمَ حملت الشجرة ثمر الحياة الأبدية؟ ولِمَ كانت شجرة الحياة؟ نسمع عشية الميلاد: "لقد ابتعد الملاك المستل السيف الملتهب عن شجرة الحياة"؛ لأن ثمرها عطية الإفخارستيا.

تتجه أيدي الملائكة نحو المستطيل، علامة الأرض ونقطة تطبيق الحب الإلهي. إن العالم – دون الله – كائن مختلف الطبيعة، ولكنه داخل في دائرة "شركة الآب" المقدسة، فيتبع الحركة المستديرة، ويجد نفسه في العلى، في السماوي الممثل بالصخرة، وتنتهي هذه الحركة المستديرة للعالم في القصر – الهيكل، وكأن هذا الهيكل هو امتداد الملاك – المسيح وتجسده، إنه جسده الكوني، والكنيسة عروس الحمل المتحد به "بدون انفصال ولا اختلاط".

يبقى الهيكل في سكون راحة السبت العظيم، نهاية الحركة الثالوثية. لقد انتهت دورة الليتورجية الكونية، وجاءت رؤية أورشليم الجديدة الأخروية. ويرمز جزء الهيكل المذهَّب البارز مثل قوة حامية إلى حماية البتول الوالدية وكهنوت القديسين.

قُطِعَ عود الصليب – بحسب التقليد – من شجرة الحياة. وشكلها يشير إلى محور غير منظور، إنما وجوده واضح في الأيقونة. أمَّا الهالة، وهي الدائرة المنيرة المحيطة برأس الآب، مع الكأس والمستطيل، علامة الأرض كلها، فنجدها على الخط العمودي نفسه، القاسم الأيقونة إلى قسمين. ويتلاقى مع الخط الأفقي الواصل دائرة الملاكين الجانبيين النيرة، ويشكل الصليب. وهكذا الصليب مرسوم في دائرة الحياة الإلهية، وهو المحور الحي لحب الثالوث.

وتجتاز الحركة فرعي الصليب، وهما على منوال ذراعي المسيح الممدودتين لتعانق العالم: ”وأنا متى ارتفعت عن الأرض، اجتذبت إليَّ الجميع“ (يو ١٢: ٣٢). الابن والروح القدس يدا الآب. وإذا جمعنا أطراف الطاولة إلى نقطة فوق رأس ملاك الوسط تماماً، نتحقق من أن الملائكة يحتلون بدقة مثلثاً متساوي الأضلاع، يدل على وحدة الثالوث ومساواته، قمته الآب، الإلوهة المخصبة. وأخيراً يؤلف الخط التابع المحيط الخارجي للملائكة الثلاثة دائرة كاملة، علامة الأزلية الإلهية. ومركز هذه الدائرة في يد الآب الضابط الكل.

يختلف روبليف عن الإيطاليين. فهؤلاء يرسمون الصورة ضمن الدائرة. أمَّا روبليف فيؤلف الملائكة أنفسهم الدائرة. ويؤلف محيط الأشياء (الكراسي ومراقيها والجبل) المثمن الأضلاع والزوايا رمز اليوم الثامن. ويؤلف محيط ملاكي اليمين واليسار الداخلي الكأس التي هي بمثابة مفتاح لسر الأيقونة. إن توزيع الأجسام Masses والنسب Proportions والمقاييس خاضع لنظام نِسَب Rapports موزون بمنتهى الدقة والكمال. ويبدي روبليف ضمن هذا الإطار حرية كبرى في أساليبه بغية التشديد على المعنى العقائدي عند الحاجة. مثال ذلك: تنحرف الكأس ويد الآب قليلاً نحو الأسفل وإلى يمين الوسط، بينما يميل الرأس قليلاً إلى يسار المحور العمودي. إن هذه الانحرافات غير الملحوظة تقريباً مع طيّات الثياب المنحدرة من

الكتف اليسرى انحدار الشلال، تجذب الأنظار إلى اليد التي تبارك الكأس مركز الصورة العقائدي، يدعمه ويظهره مجموع الخطوط العمودية والهيكل.

أمَّا أقدام الملائكة فتكاد تلمس مراقي الكراسي، مما يعطي تأثير خفة معدومة من كل ثقل، ويرفع المجموع نحو العلاء وقد أمسى رشيقاً، فنشعر وكأننا في "مراعي القلب" على حد تعبير القديس مكاريوس، وفي فسيح القلب الإلهي غير المحدود.

يبدو الأشخاص بثلاثة أرباع de trios quarts مما يقلل عرض الكتفين، ويمر الخط المرن تبعاً للهيئات المستطيلة ذات الأناقة السماوية. وكذلك الأوجه فإنها محولة قليلاً وحائزة على الشكل المستطيل نفسه. تعبِّر الخطوط المستقيمة عن عنصر القوة، وتتفق مع الخطوط المدورة، فنبهج النظر والقلب بإيقاعها الموسيقي الصِرف، وبنضارة الشباب، وتنشد نعمة القوة الكامنة فيها. ويعبِّر المحيط Contours عن الحركة أكثر مما يعبِّر عن الحجم، وتوحي سعة الملابس الشعور بخفة حِمل الجسد، فيما ينوه غطاء الرأس الواسع بلطافة تقاطيع الأوجه المتسمة بالصفاء القديم.

في وضع الآب شيءٌ من العظمة يبعث على السلام المهيب والسكون، والفعل الصِرف، المتمم، مبدأ الأبدية الثابت، وفي الوقت نفسه — وفي تعارض مدهش — يعبِّر عن المبدأ القوي في تصاعد حركة الذراع اليمنى وانحنائها القوي المتلائم مع القوة نفسها في انحناء العنق والرأس.

إن ما يفوق وصفه في سر الله، جمع السكون وعدم الحركة مع الحركة: مطلق الفلاسفة، وفعل اللاهوتيين الصرف، وإله الكتاب المقدس الحي، "أبانا الذي في السموات".

إن القدرة الإلهية، على نحو ما جاء في قانون إيماننا "أؤمن ... بآب ضابط الكل" هي قدرة محبة الآب المعبَّر عنها في نظرة ملاك الوسط. إنه المحبة، ولأجل هذا لا يستطيع أن يكشف عن نفسه إلاَّ في الشركة، ولا يستطيع أحد أن يتعرف عليه إلاَّ بصفته شركة. "لا يأتي أحد إلى الآب إلاَّ بي" (يو ١٤: ٦). ومن ناحية أخرى: "ما من أحد يقدر أن يأتي إليَّ إن لم يجتذبه الآب" (يو ٦: ٤٤). ليس هذا ضيقُ صدرٍ أو استبداداً إنجيلياً، إنما هو أعظم كشف عن طبيعة المحبة نفسها.

لن يحصل المرء على أدنى معرفة عن الله خارجاً عن الشركة بين الله والإنسان، وهذه الشركة ثالوثية دائماً، وتُظهر الشركة بين الآب والابن، وتجعلنا ندرك السبب الذي لأجله لا يكشف الآب عن نفسه مطلقاً مباشرةً، إنه المنهل، ولهذا هو الصمت بالضبط. يكشف عن نفسه أزلياً من خلال الابن والروح القدس اللذين يكشفان عنه. تعرض الأيقونة هذه الشركة، والكأس مركزها الحي.

تزداد خطوط الجهة اليمنى لملاك الوسط شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من الملاك الأيسر. يشير الخط المقوّس المحدَّب دائماً — في رمزية الخطوط — إلى الإيضاح اللفظي، إلى الكلمة، إلى الانتشار، إلى الوحي، على عكس الخط المقوّس المقعَّر، فإنه يشير إلى الطاعة، إلى الانتباه،إلى نكران الذات، إلى القابلية. الآب متجه نحو الابن؛ إنه ينطق. الحركة السارية في كيانه هي الانخطاف. إنه يعبِّر كلياً عما في نفسه في الابن، "الآب فيَّ وكل ما هو للآب هو لي".

الابن يصغي، وخطوط ثيابه المقوّسة المقعّرة تعبِّر عن أعظم انتباه ونكران الذات. وهو يخلي ذاته أيضاً لكي يكون كلمة أبيه: "الكلام الذي أكلمكم به لا أقوله من عندي؛ الآب المقيم فيَّ هو الذي يعمل الأعمال" (يو ١٤: ١٠). يده اليمنى تنقل حركة الآب: البركة، إصبعاه البارزتان على بياض الطاولة — الكتاب المقدس، تعلنان طريق الخلاص — اتحاد الطبيعتين في المسيح ودخول البشري (الإنسان) في شركة الآب.

تدل يد الملاك اليمين النازلة على اتجاه البركة: العالم. وتبدو وكأنها تستر وتحمي، وتشبه جناحي الحمامة النقية المنبسطين فوق المستطيل الممثل العالم.

وتوحي عذوبة ملاك اليمين بشيء من الأمومة والحنان. إنه المعزِّي وهو الروح أيضاً، روح الحياة والمعطي الحياة. فيه بداية كل شيء. إنه عبارة الحب الإلهي الثالثة، روح المحبة. ويختلف وضعه بعض الشيء عن وضع الملاكين الآخرين. ويقوم في وسط الآب والابن بانحنائه واندفاع كل كيانه. إنه روح الشركة، وكل حركة تصدر عنه. بنَفَسِه ينطلق الآب نحو الابن، والابن يتقبل الآب، والكلمة تُعطي صداها. وقد قال القديس يوحنا الدمشقي: "بالروح القدس نعرف المسيح

ابن الله، وبالابن نتأمل الآب". لقد انطلق الآب نحو الابن يوم الظهور الإلهي في حركة حمامة.

بحزنٍ يفوق الوصف، وهو حزنٌ بحجم الحب الإلهي، يحني الآب رأسه نحو الابن، ويبدو كأنه يتحدث عن الحَمَل المضحّى، وتبلغ تضحيته ذروتها في الكأس التي يباركها. ويعبِّر وضع الابن العمودي عن كل انتباهه، وكأن وجهه مظلل بالصليب، إنه غارقٌ في التفكير، يعبِّر عن موافقته بإشارة البركة نفسها. إذا كانت نظرة الآب في عمقها غير المحدود تتأمل في طريق الخلاص الوحيد، فإن رفع نظر الابن، الذي يكاد يكون ملحوظاً، يعبِّر عن قبوله ورضاه. أمَّا الروح القدس فإنه ينحني نحو الآب؛ إنه غارقٌ في التأمل في السر، فتشير ذراعه الممدودة نحو العالم إلى الحركة النازلة، إلى العنصرة، إلى "القوة الكاشفة" وكأنه حالٌ الآن على الابن في رسالته الأرضية. وضعه وضع الخضوع، إنه تحقيق الإنجيل.

للألوان في الأيقونوغرافيا لغتها الخاصة. لقد بلغت عند روبليف غنى لا يُعَادَل: هي اتفاق موسيقي تام يتجلى فيه سلم الألوان بكامله في أدق تنوع فينعكس على تفاصيل الصورة كلها. ومع ذلك لا تأثير لتعدد الألوان، إذ لا شيء يعكّر عمق الاختلاء الإلهي. فلا وجود للظل، وكل جزء غير مضاء إلاَّ بنوره الخاص المتدفق من جذور سرية. أمَّا كثافة ألوان الصورة الوسطى فتزداد بهاءً بتعارضها مع بياض الطاولة التي تزهو بتألق الملائكة المحيطين بها تألقاً لطيفاً ناعماً.

يؤلف الأرجوان الشديد الاحمرار (الحب الإلهي)، والأزرق الكثيف (الحقيقة السماوية)، وذهب الأجنحة البراقة الزاهر (الفيض الإلهي) انسجاماً تاماً Accord parfait يستمر ويتلاقى في لون ملطَّف مثل رؤية منوعة واستنارة تدريجية: الوردي اللطيف والليليكي إلى الشمال، الأزرق الملطَّف والأخضر المفضض إلى اليمين، ذهب الكراسي، القاعدة الإلهية، يحكي عن فيض الحياة الثالوثية؛ ويعبِّر الأزرق المسمى "أزرق روبليف" عن لون سماء الثالوث والفردوس. وعندما يميل الأزرق أكثر فأكثر إلى لونه الفاتح، يصبح كنور الأيقونة نفسها السماوي.

تقبض يد الآب على البداية والنهاية، وهي ممدودة فوق الكأس. ويشمل

الزمان في الأبدية الحملُ المضحى قبل إنشاء العالم، وحمل هيكل أورشليم الجديدة، وعشاءُ المسيح السري المقدس، ووعده بأن يشرب عصير الكرمة في ملكوت الآب، هذه جميعاً تُدخل الزمان في الأبدية. وتشع الكأس بياض الكلمة الساطع، فتعكس الكلمة ألوان الحقيقة كلها، وهذا إشعاع القلب، والعطاء المتبادل عند الأقانيم الثلاثة الإلهية.

ينبعث من الأيقونة نداء شديد: ''كونوا واحداً كما أنا والآب واحد''. الإنسان مخلوق على صورة الله المثلث الأقانيم. وجميع البشر مدعوون ليلتفوا حول الكأس الواحدة نفسها، ويرتفعوا إلى مستوى القلب الإلهي، ويشتركوا في الوليمة المسيانية، ويصيروا هيكلاً — حملاً واحداً، ''الحياة الأبدية (الروح) هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته'' (يو ١٧: ٣).

وتنتهي الرؤية عند هذه الإشارة الأخروية: هي مقدمة ملكوت السماوات المغمورة كلياً بالنور الذي ليس من هذا العالم، مغمورة بفرح طاهر نقي مجرد، بفرح إلهي. وهذا لسبب بسيط، وهو أن الثالوث الأقدس موجود، وهو يحبنا، وأن كل ما لدينا من نعمة منه. وعند هذه الرؤية يستحوذ الذهول على النفس فتصمت. لا ينطق الصوفيون مطلقاً من قمة وعلو. الصمت وحده يكشف عما يخالج النفس.

الكتاب الأول

من صفرونيوس إلى الأب زكريا، والأب صفنيا والإخوة الذين لهم معنا شركة في المسيح يسوع ربنا بنعمة الروح المعزي الذي أنعم لنا بمعرفة حق يسوع المسيح، روح الحق، معلم الحق وغارس كلمة الله في قلوب طالبي الحق ومضيء الأذهان بسر الإنجيل، إنجيل حق ابن الله الذي يغرسه روح الحق في القلوب.

سلامٌ في الرب يسوع المسيح الذي بشَّرنا بالسلام وجاء من الآب هبةٌ لنا. هو حياتنا الحقيقية الذي أشرق بالتجسد وأنارنا بالاتحاد به، ونقلنا من ظلمة الموت والخطية إلى نور ومجد الله. تعزيةً وفرحاً لكم جميعاً بالروح القدس معلن التواضع والمحبة بالحق، **قائد الكنيسة، المُمسك بدفةِ خلاصنا، فُلك النجاة الذي بمياه المعمودية يُبحر نحو شركتنا في اللاهوت في يسوع المسيح ربنا حسب مسرة الله الآب.**

إلى الأخوة الأتقياء حسني العبادة الذين يلازمون اسم ربنا يسوع المسيح، وبه صاروا ذبائح حمدٍ وتسبيحٍ لمن ذُبِحَ واشترانا لله أبيه ملوكاً وكهنةً (رؤ ١: ٦).

أنا العبد الحقير الذي يخدم سيده كعبد، ولكن حسب نعمته نقلني من خدمة العبيد إلى ميراث الابن الوحيد، أكتبُ لكم تعليم القديسين الآباء الرسل والرب يسوع المسيح نفسه ومعلمي الشركة عن أساس خلاصنا وحياتنا الأبدية، الثالوث القدوس، التوحيد المُعلن في يسوع المسيح، والذي يُوهب لنا لكي ينقلنا إلى شركة حقيقية في الله بالروح القدس، وإلى حياة أبدية في الثالوث.

غاية التعليم عن الله

الجدل حول وحدانية الله

١- وصلتني رسائل من ديركم، نقلها إليَّ الأب صفنيا، ورسائل أُخرى وصلتني مع الأب زكريا، وكلها حول جدل عقيم ومُر يدور الآن في أماكن كثيرة من أرض مصر حول التوحيد وطبيعة الله، وهل هو واحدٌ أم ثالوث، وإذا كان واحداً، فلماذا هو ثالوث، وما هي منفعة التعليم بالثالوث؟

قرأت هذه الرسائل بدموع لأنني أكاد أرى الذين يسألون لا يعرفون أن أي تعليم عن الله له غاية واضحة، وهي العبادة الحسنة، وإننا مهما قلنا عن الله، **فإنَّ غاية التعليم هو شركة في الحياة الإلهية**. وهكذا نعرف أن تعليم الإنجيل هو بشارة بالحياة الأبدية، وإن الإيمان بالآب والابن والروح القدس هو توحيد وشركة وحياة أبدية. من أجل هذا أسأل كل الأخوة أن يكشفوا أفكارهم للرب يسوع المسيح وللآباء المعلمين في الدير لكي يدرك الأخوة حقيقة وأسباب الجدل.

٢- ما هي منفعة الجدل حول طبيعة الله، إذا كان التعليم عن طبيعة الله لا ينتهي بالسجود؟ لأننا نحن المسيحيين الأرثوذكسيين نعبد الله الواحد الذي لا آخر معه ولا شريك له في جوهره، ونسجد للآب في ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح بنعمة الروح القدس حسب كلمات الرب المحيية «الله روح والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤). وحسب كلمات الرب نفسه نحن نسجد لمن أعلن عن ذاته في جوهر واحد ولاهوت واحد وربوبية واحدة، وهكذا نحن لا نسجد لإلهٍ مجهول، بل لمَن أرسل ابنه الوحيد وأنار عقولنا بتجسده ونقلنا من موت الخطية وعبادة الأوثان وحررنا من رباطات العبودية بموته المحيي بالصليب المكرم، وثبَّت فينا هبة الحياة الأبدية بالقيامة، ثم فتح لنا كنوز حياة الحق

بروح الحق المعزِّي الذي يقودنا نحو حق الله في ابنه يسوع المسيح ويغرس فينا كلمة الحق وشهادة الحق.

السجود لله حسب تعليم الإنجيل

٣– نحن نسجد للآب في ابنه لأنه هو الوسيط الذي علَّمنا السجود الحقيقي.

ونسجد للابن؛ لأنه المخلِّص الذي علَّمنا – بتجسده وموته المحيي على الصليب – أن السجود هو تسليمٌ كاملٌ وصَلبٌ للإرادة والفكر، وليس فقط مجرد الانطراح على الأرض.

ونسجد للروح القدس نبع الحياة الذي يفيض أزلياً من الآب ويسكب فينا حياةً جديدةً؛ لكي عندما نحيا به نسجد سجوداً حقيقياً؛ لإله الحق الواحد الثالوث، سجوداً كاملاً وبذلاً وذبيحةً كاملةً بمحبةٍ واحدةٍ، وهو ليس سجود العبيد الأذلاء، بل سجودٌ بالروح القدس، روح الحق المعزِّي.

٤– ونحن نسجد للآب في ابنه؛ لأن الابنَ هو رأس الكنيسة الذي باسمه نحن جسده الواحد، والذي فيه نقدِّم العبادة الحسنة (حرفياً الليتورجية) المقبولة من الآب التي أُعلنت لنا في تجسد الابن الوحيد؛ لأننا نعبد الآب حسب تعليم ابنه الوحيد، نعبده آباً لنا ونسجد له سجود الأبناء مع الذين سبقونا في الإيمان من بطاركة وقديسين انتظروا مواعيد الله، وكان لهم سجود الرجاء والعطش لإعلانات الآب التي نطق بها الأنبياء في العهد القديم.

أمَّا نحن، وقد نلنا روح البنوة ومُسِحنا بمسحةٍ أعظم من مِسحة ملوك بني إسرائيل، فإننا نسجد سجود الذين نالوا المواعيد والذين فتح لهم تجسد الابن الوحيد أسرار وختوم كلمة النبوة؛ لأن ربنا يسوع المسيح علَّمنا الصلاة لله كآبٍ لنا، والسجود الذي نقله من عبادة وطقس العهد القديم حسب الرمز إلى سجود وصوم جديد حسب روح الحياة، والذي به يقدِّمنا إلى الآب السماوي في كل صلاة وتسبيح وشكر، لاسيما في خدمة الأسرار الكنسية الفائقة التي توهَب لنا بالروح القدس لكي نشترك في حياة الابن، وعندما نحيا به ندخل شركة حقيقية

تجعلنا نحن الأرضيين ذبائح روحية يرفعها الروح القدس في اسم (أي في شخص) الأُقنوم الكلمة ابن الله، قرابين للآب بقوة الصليب المكرم، وقوة الحياة التي فاضت على الطبيعة الإنسانية بالقيامة المجيدة.

هكذا نسجد ونعبد الواحد في الثالوث عبادةً حقيقيةً ليست بقوة الكلمة فقط، بل أيضاً بقوة الحياة؛ لأن الكلمة أي كلمة التعليم هي من الحياة التي سُكبت فينا بقوة روح الحياة. لذلك نحن نسجد للآب في سلام ابنه الوحيد الذي بشَّرنا به نحن الخطاة فرحين بالخلاص وبالتوبة وبحلاوة المحبة التي ذُقنا بها بركة الإنجيل والفرح الأبدي. وهذا ليس سجود الرعدة والخوف الخاص بالعبيد، بل هو سجود الذين خلصوا من الدينونة «لأنه لا شيء الآن من الدينونة على الذين هم في المسيح يسوع» (رو ٨: ١)، وبقوله «لا شيء» أبطل كل أحكام الدينونة لأن الرب يسوع المسيح «أدان الخطية في الجسد» (رو ٨: ٣) عندما صُلِبَ على الصليب وفتح الفردوس للص اليمين مُعلناً نهاية حكم الموت. هكذا نسجد ونعبد، وهكذا نسبِّح الذي بموته أبطل دينونة الموت وأباد الفساد وهدم الجحيم ونقلنا من عبودية الخطية إلى حرية أولاد الله.

سجود البنين

٥- أمَّا سجود الأُمم، فهو يختلف عن سجودنا نحن في أُمور كثيرة.

نحن نسجد بقوة روح التبني صارخين «أبَّا أيها الآب» (غلا ٤: ٦)، وبذلك نشهد على أنفسنا - ولكل البشر - أننا لسنا غرباء، ولسنا مثل الذين يجهلون طبيعة الله، أي أُبوته الأزلية ومحبته التي أُعلنت لنا في ابنه الوحيد.

تسجد الأممُ بورعِ الخوف. أمَّا نحن فإننا نسجد بورع حق المحبة التي سكبها فينا روح المحبة، روح يسوع الذي يصرخ للآب السماوي «أبَّا أيها الآب». ونحن نسجد سجود مَن يعلم حقيقة محبة خالقه، ولا يجهل بشارة الحياة. أمَّا الأُمم، فيسجدون برعدة العبيد، وهي ليست رعدة المحبة التي تخاف الانفصال، ولا تقبل إلاَّ الشركة، وترتعد من الخطية وترتوي من حنان الرحمة الإلهية؛ لأن

روح المحبة، روح الآب يغرس فينا هذه الرعدة ويجعل مجرد الابتعاد عن الآب فكرياً كموت أبدي رهيب مؤلم. هكذا نحن نسجد لمن نعلم أنه أعطانا البنوة وثبَّت فينا عطية التبني بشهادة الروح القدس لابنه الوحيد الذي بذل ذاته عنّا لكي نحيا به.

لذلك السبب عينه أُحذِّركم جميعاً من سجود الأمم؛ لأن طقس السجود عندهم فارغ من الروح القدس، وبلا معرفة لمحبة الله الآب. والذي يسجد بطقس وترتيب دون أن يعرف محبة الله الآب، إنما يسجد عن جهل ويترك نور الروح القدس؛ لأن قوة السجود ليست في عدد الركعات وطريقة الانحناء وبسط اليد والانطراح على الأرض، بل هي في قوة الحياة التي وُهِبت لنا والتي لا تهتم بشكل العبادة، بل بجوهرها حتى لا يتحول السجود إلى عبادةٍ جوفاء، عبادة خوفٍ ورعدة عن جهل، بل عبادة خوف المحبة ورعدة العطشان إلى مياه الحياة الأبدية التي توهَب لغير المستحقين.

٦– نحن نسجد للآب في ابنه. ولماذا نُصِّر على القول «في ابنه»؟ والجواب هو لأننا قبلنا روح التبني في سر المعمودية ومسحة الميرون الإلهي، ولأننا في ربنا يسوع المسيح قد نلنا رتبة التبني التي لا يمكن أن تنفصل عن الابن، بل هي فيه وشركة لنا في بنوته، شركة حسب غزارة نعمة الله الآب التي فاضت لنا بقوةٍ، ووُهِبت لنا، ونقلتنا من سجود الترابيين إلى سجود الأحياء إلى الأبد.

هكذا نقول للرب يسوع المسيح: أنت حياتنا وبدونك نموت موتاً أبدياً. ولذلك فكل ما نعمله ونقوله، إنما نعمله ونقوله باسم الرب يسوع المسيح الذي به وحده دخلنا شركة البنوة. وفي المسيح تعلّمنا البذل وذبح النية وتقديم الجسد قرباناً للآب؛ لأننا بالالتصاق بالمصلوب نعبُر أنانية الخطية إلى عطاء المحبة الذي هو رسم البنوة، وهو سلوك الذين نالوا التبني.

وفي المسيح يسوع نصلي؛ لأنه عندما أعطانا شركةً في بنوته جعلنا قادرين – بروح البنوة – أن نقول: «أبانا الذي في السموات». هكذا عبرنا بحر العالم، بحر الخوف، بحر العبودية والعقاب والدينونة، ودخلنا بمياه التقديس (المعمودية) أرض

الموعد الحقيقي أورشليم السماوية، كنيسة الله التي شُيِّدت بتجسد الابن.

بعد إعلانات نبوية لأنبياء العهد القديم، نزل الابن من السماء، أي تنازل من مقامه الإلهي وجاء إلينا بعطية التبني التي أُعطيت للجنس البشري عندما اتحد ابن الله بالطبيعة الإنسانية، فنقل قوة الاتحاد من أُقنومه الإلهي إلى المؤمنين به حسب قول الإنجيل: «أمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبنا الله» (يو ١: ١٢). إنه السلطان الذي وصلنا من اتحاد اللاهوت بالناسوت في أُقنوم الكلمة؛ لأن تجسده جعله الوسيط الحقيقي الذي به نتقدم إلى عرش النعمة (عب ٤: ١٦). وبسبب الاتحاد، أي اتحاد اللاهوت بالناسوت صارت كل صلواتنا **به**، أي بالرأس و**فيه**، أي في المسيح رئيس الكهنة. و**إليه**؛ لأنه ابن الآب الذي فيه نلنا الروح القدس وكل مواعيد الحياة الآتية التي نذوقها الآن.

٧– وبسبب تجسد الابن صارت الصلوات والسجود نابعين من عطية التبني ومن حياتنا في المسيح. نأخذ منه لكي نبقى ونثبت فيه، وفيه أيضاً ننال وحدةً كاملةً مع الكنيسة الجامعة «الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها»، وحدةً لا انفصال فيها، وهي وحدة جسد المسيح الذي لا ينقسم لأنها وحدة الحي الذي بالقيامة غلب كل أشكال الانقسام، ولذلك لا يُقطَع عضو في جسد المسيح إلاَّ بعد يوم الدينونة حسب المثال الذي أعلنه الرب بقوله: «كل غصن فيَّ لا يأتي بثمر يُقطَع» (يو ١٥: ٢). أمَّا الأغصان التي تثمر، فإنها تنال الميراث الأعظم، أي الله نفسه.

وعندما صارت حياتنا من الرب وفيه بسبب تجسده وموته وقيامته، صارت شركتنا مع الآب والروح القدس في المسيح، وفيه ننال السجود الحقيقي أي الحياة التي تنسكب من الآب في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس وتعود إليه أي تعود إليه بنا وفينا حاملةً معها طبعنا الإنساني ثمرة الخليقة الجديدة التي وُلِدت من الله الآب.

وعندما نسجد للآب في ابنه يعود إليه القربان السماوي الذي قدَّمه الابن، أي ناسوته المجيد الذي عندما نشترك فيه في السر الكريم السماوي ونتحد به في ذبيحة الشكر، ننال قوة وثبات ناسوته في الاتحاد باللاهوت، وبهذا يتم قول الرب إنه جاء لكي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يو ١١: ٥٢)، وبسبب هذه

الوحدة يصبح سجودنا هو سجودٌ حقيقي؛ لأنه عودة إلى أصل كل الأشياء وأصل الوجود، أي الآب بواسطة خدمة وقربان الابن المتجسد، وبتقديس الروح القدس الذي ينقل صفات الطبيعة الإنسانية الجديدة الناهضة من أوجاع الخطية، أي الموت إلى طبيعة آدم الجديد ربنا يسوع المسيح، أي إلى المؤمنين رافعاً إياهم فوق حدود ورسم (ⲙⲟⲣⲫⲏ) الطبيعة الآدمية القديمة إلى المجد الذي نراه في ناسوت الابن الوحيد، عند ذلك يصبح سجود الأبناء هو سجود المحبة وخدمة الأحرار وليتورجية (عبادة) الخليقة التي نالت جُود وعطف اللاهوت الذي انعطف علينا بتنازل لا يوصف وبتواضعٍ فوق النطق وجدَّدنا نحن الذين خُلِقنا من العدم وأعطانا البنوة لمدح مجد نعمته.

السجود حسب الإنجيل

٨- أتوسل إلى المسيح إلهنا الذي صُلِبَ طواعيةً واحتمل الموت بسبب محبته للبشر أن يفتح عيون قلوبكم وينير أذهانكم لكي تعلموا غنى ومجد البشارة، أي إنجيل الخلاص؛ لأن البشر في العهود السابقة على بشارة الخلاص كانوا يُصَّلون ويعبدون حسب أهواء قلوبهم، وتصوَّروا الله حسب شهوات قلوبهم حتى أنهم كما قال الرسول: «عبدوا المخلوق دون الخالق» (رو ١: ٢٥) وتنجسوا بالوثنية لأنها نجاسة القلب عندما يطبع (القلب) صورة الطبيعة الإنسانية الفاسدة على المادة من أحجار ومعادن، ويخلق الأصنام ويحولها إلى صورة الله غير الفاسد دون أن يدري أنه سقط في فساد الخطية وفقدان البصيرة.

وهكذا سقط البشر في نجاسات تصور الله كسيدٍ قاسٍ لا يرحم، وعبدوه عن خوف ورعدة وقدموا له الضحايا لكي ينالوا رضاه ولكي يكُف عن غضبه، وصار السجود والعبادة سجود استرضاء القاسي غير الشفوق، واتقاء لغضب مَن لا يعرف الرحمة. بهذا عبدوه «برعدة الشياطين»، وصار خوفهم هو ذات خوف الشيطان، وعبادتهم هي عبادة العبيد. وعندما أزال هؤلاءِ الأصنام، ظلت الوثنية قابعة في الضمائر لأنها وثنيةُ مَن لا يؤمن بصلاح ومحبة الله، ويعبده اتقاءً لغضبه وطلباً لرضاه.

أمَّا نحن، فقد علَّمنا الابن الوحيد درس المحبة الأول، وهو محبة الآب، ولذلك لم يتكلم عن الله، بل عن الآب. والكلام عن الله خاصٌ بكل الأُمم، أمَّا الكلام عن الله الآب فهو خاصٌ بنا نحن الذين نؤمن بأن الله هو آب ربنا يسوع المسيح، ولذلك السبب مَن يعرف الله كخالقٍ فقط وكإلهٍ فقط لا يرتفع إلى رتبة التبني.

أمَّا نحن، فإننا نعبد ونسجد حسب اتحاد اللاهوت بالناسوت، وهو القوة التي فينا والتي عبَّر عنها الرسول: «أحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ» (غلا ٢:٢)؛ لأننا بهذه القوة نقترب من الآب وهي التي ترفعنا من تراب الأرض إلى معاينة مجد الابن الوحيد. وصار بذلك سجودنا هو ذات سجود رأس الكنيسة لأننا فيه نسجد، فقد جاء إلينا رئيس كهنة الخيرات الأبدية الذي أخذ القلب والإرادة والعواطف والخيال والفكر والنفس والجسد وكل ما هو إنساني، أي كل طبيعة الإنسان وخصائصها التي تميِّزه عن سائر الكائنات، وهكذا فدى وقدَّس كل هذه الخصائص، وكل صفات الإنسان قد نالت الخلاص بسبب الاتحاد بين اللاهوت والناسوت اتحاداً لا انفصال فيه، ولكي يكون آدم الجديد – ليس المخلوق من العدم مثل آدم الأول – بل ذاك الذي كوَّنه الروح القدس في أحشاء والدة الإله وصار مثلنا في كل شيء، **ولكنه تميَّز عنا بأنه ليس مخلوقاً بقوة كلمة الله الخالقة، بل بعمل الروح القدس الذي دخل إلينا بقوةٍ جديدةٍ، هي قوة الخلق الجديد الذي ينقل الطبع الإنساني من حياة ترابية إلى حياة إلهية،** فدخل روح الحياة عرين الموت وسبى الهاوية وأبطل اللعنة وكسر رباطات الدينونة وحل قيود الطبيعة الإنسانية وجاء بها إلى حياة جديدة صار هو فيها «البِكر»، فحوَّل الأرضي إلى سمائي والبشري إلى مواطن سماوي[1] له نعمة البنوة.

بسبب التجسد صارت نفسه الإنسانية تمثل نفوسنا وتقوم لأجلنا في السموات، أي نفس رئيس الكهنة العظيم، وصار لسانه ينطق باسمنا وبلغتنا وصار قلبه وفكره يقود الخليقة الجديدة في التسبيح والشكر، وهو لا يخدم هذه الخدمة (الليتورجية)

---

(١) «لقد أخذ نجاستنا دون أن يتنجس، بل لكي يقدس ما هو نجس لأنه مكتوب النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (القديس غريغوريوس النيصي — ضد ابوليناريوس فقرة ٢٦).

السماوية بقدرات آدم الأول، بل بعزة وقدرة وعظمة آدم الجديد ابن الآب الأزلي الجالس معه على عرش الربوبية. وصارت خدمة (ليتورجية) كهنوت المسيح ليست شفاعة التوسل، مثل شفاعة موسى وصموئيل والأنبياء والآباء وشهداء الكنيسة، بل شفاعة التقديس وشفاعة جَمْعُ الخليقة الجديدة تحت رأسه، **فهو لا يتوسل، بل يضع التوسل في قلوبنا، وهو لا يترجى الآب عنا كما يفعل القديسون، بل يحرك الروح القدس الذي مُسِح به لكي يضع في قلوبنا التسبيح والشكر والتوسل والشفاعة**؛ لأن الحياة الجديدة التي فيه، أي حياة رأس الخليقة الجديدة، تفيض من كيانه الإلهي المتجسد وتنسكب حسب الجود الإلهي في الذين يؤمنون به ويلتصقون به بسبب اتحادهم به في المعمودية المقدسة والمسحة الإلهية وتناول الطعام السمائي جسد الرب ودمه، وهو ما يجعل الروح القدس ينقل صفات وهبات الابن واضعاً عليها ختم الآب محركاً إياها بالتقديس نعمةً واحدة من الثالوث وبالثالوث.

والرب لا يتكلم كإنسانٍ فقط؛ لأن صعوده لم يلاشِ إنسانيته، بل صارت قدراته الإنسانية واحداً مع قدراته الإلهية كربٍ واحدٍ وابن واحدٍ متجسدٍ بطبيعةٍ واحدةٍ من طبيعتين، يعرف ما يحدث لأعضاء جسده كإلهٍ متجسدٍ، وبسبب الاتحاد بنا يشعر ويحس ويدرك – كرأس الكنيسة – ما يحدث لأعضاء جسده؛ لأن اتحاده بنا لاهوتياً وناسوتياً هو اتحاد الرأس بالجسد الذي حوَّل ثلاثة أشياء إنسانية في كيانه الإلهي المتجسد:

أولاً: اللغة الإنسانية

وهي ليست لغة واحدة معينة، بل قدرة الإنسان على النطق أي الإدراك، وهو ما جعل موهبة التكلم بالألسنة – الموهبة الرسولية لكنيستنا الرسولية – تعمل لمجد إنجيل الحياة، وتفتح إدراك الإنسان لكي يعلو على ما هو فوق الحروف والكلمات، أي اللغة الجديدة التي أشار إليها الإنجيلي (مر ١٦: ١٧)، لغة المحبة الإلهية وهي لغة الحرية الروحية حسب إدراك الكنيسة لقوة وجمال النور الأزلي أي ربنا يسوع المسيح نفسه.

ثانياً: الليتورجية السماوية الجديدة

لم يعبُد الرب يسوع ولا صلَّى حسب شريعة العهد القديم، بل أكمل الشريعة مرةً واحدةً لكي يختم طريق الشريعة ويصبح هو «الطريق». قَبِلَ الختان وحَفِظَ الناموس الموسوي وأعلن شريعة العهد الجديد ليس من على جبل سيناء، بل من على جبلٍ جديد. وعلى هذا الجبل ختم خدمة الحرف التي نُقِشت على حجر (٢كور٣: ٧) وأبطل الذبائح كلها بذبيحة جسده ودمه، وأبطل الاغتسالات للتطهير باغتسالٍ واحدٍ هو المعمودية المقدسة، ووهب مسحة الملوك مسحةً جديدةً لكل الشعب معطياً إياها الثبات الأبدي بمسحته في الأردن، ثم أسس الفصح الحقيقي، المائدة السماوية، خبز الله النازل من فوق الواهب الحياة للعالم (يو ٦: ٣٣).

وسلَّم تلاميذه القديسين شريعة الصلاة الجديدة بكلمات الصلاة الربانية لكي يحرر الفكر والقلب معاً من عبودية الحرف، ثم أكمل الميراث السماوي عندما وهبنا الروح القدس لكي نعبده هو شخصياً في الروح وبالروح عبادةً حيةً سماوية، ولكي يكون لنا بالروح القدس شركة في الثالوث.

هذه الخدمة (الليتورجية) السماوية نراها في شركتنا في بنوته، وهي أساس شفاعته السماوية؛ لأنه يقول عنا بصوت الروح القدس: «ها أنا والأولاد الذين أعطيتني» (عب ٢: ١٣)، وهو لذلك «لا يستحي أن يدعونا أخوته» (عب ٢: ١١)، بل يقول أيضاً عنا: «أُخبر باسمك أخوتي وفي وسط الكنيسة أُسبحك» (عب ٢: ١٢). فهو يخبرنا بأُبوة الآب ويقودنا نحو تسبيح الآب؛ لأننا به ندخل الشركة السماوية التي نرى أساسها في الأمانة المقدسة (قانون الإيمان)، أي كلمات «العهد الجديد» التي بعد صلوات الخدمة ندخل في تسبيح الساروفيم والشاروبيم، ثم نختم الصلوات بالصلاة الربانية قبل الاقتراب من المائدة المقدسة.

كل هذا لا يتم بواسطتنا، بل بواسطة خدمة رئيس الكهنة العظيم ربنا يسوع المسيح الذي سلّمنا السرائر (أسرار الكنيسة) ووضع فيها حياته وموته المحيي وقيامته لكي بالشركة فيها، ندخل الشركة في الثالوث وننال بذلك الحياة السماوية الجديدة الأبدية. لذلك السبب، عندما نتحدث عن شفاعة رب المجد، فإننا نميِّز

شفاعته السماوية بخدمة رئاسة كهنوته التي تعطي للقديسين والأبرار والشهداء مجد وقوة التوسل لكي يكمِّل جسده المقدس، أي الكنيسة، أي لكي نتحد به حسب قوة النعمة وننال منه وفيه هبات المجد الأبدي.

ثالثاً: الخليقة الجديدة

أي الخليقة الجديدة المخلوقة حسب الله وليس حسب الإنسان الأول الذي أفسد كيانه وأسلمه للموت والبُطل والفساد والعبودية للأرواح الشريرة. هذه الخليقة الجديدة مخلوقة أولاً في الماء والروح في سر الولادة الجديدة، أي لا تخلق حسب شريعة الولادة الأرضية الآدمية، أي التناسل من أب وأُم، بل حسب شريعة الولادة الجديدة من الله، وهي الشريعة الروحانية التي تُعيد الخليقة الأولى إلى الله نفسه لكي يُعيد خلقها من جديد حسب صورة ابنه. وعندما نقول: حسب صورة ابنه، فإننا نؤكد أنها خُلِقَت فيه أولاً عندما حوَّلها في كيانه الإلهي مُجدِّداً إياها بالاتحاد، غالباً بها الخطية والموت، رافعاً إياها إلى السماء، إلى مجد اللاهوت لكي ينقل فيه كل هبات ومجد الحياة الجديدة التي تُعطى لنا في السرائر (الأسرار الكنسية).

هذه شركة حقيقية دعامتها وساطة الرب «الوسيط الوحيد بين الله والإنسان» (١ تيم ٢: ٥)؛ لأنه جمع الاثنين في كيانه الإلهي المتجسد وحفظ الاتحاد بسبب محبته للبشر، وهي ذات محبة الآب والروح القدس، محبة واحدة للثالوث القدوس، نعمة واحدة، خليقة جديدة واحدة بلا غضن (أف ٥: ٢٧) ولا فساد الانقسام. كما وحَّد الابن له المجد ناسوته بلاهوته بغير انقسام ولا اختلاط ولا تغيير، هكذا على نفس المثال (ⲧⲩⲡⲟⲥ) نتحد نحن بالابن المتجسد على مثال اتحاد لاهوته بناسوته لكي نستقر في الثالوث القدوس وننال ذات ثبات ناسوته الجديد المتحد بأُقنومه الإلهي.

السجود الحقيقي والسجود الكاذب

٩- السجود الحقيقي هو سجودٌ بالحق، والحق هو كلمة الله الآب بالحق، وابن الحق هو الذي علّمنا أن السجود هو شوق ورعدة المحبة، والتصاق بالأرض التي

منها خُلِقنا لكي بالنعمة التي نعترف بها ساجدين نرتفع إلى مجد السماويات في يسوع المسيح ربنا ولذلك نقوم رافعين أيدينا إلى فوق.

١٠- والسجود الحقيقي هو سجودٌ بالروح، هو سجودٌ والتصاقٌ بالتراب الذي خلقنا منه، والذي عندما نلمس جباهنا بالتراب نعترف بنعمة الحياة وبرجاء الدهر الآتي والقيامة من الأموات عندما نقوم. هكذا نسجد بالحق وبالروح سجوداً حقيقياً يرفعنا من تراب الأرض إلى مجد السماويات. سجود تأديب بالمحبة وردنا إلى النعمة وليس سجود تأديب الشريعة، بل تأديب وتعزية الروح القدس؛ لأننا نُؤَدَّب كأبناء (عب ١٢: ٦ - ٧) ولا نُؤَدَّب كعبيد لأن العبد حسب قول الرب نفسه: «لا يعلم إرادة سيده» (يو ١٥: ١٥)، أمَّا نحن فإننا نعرف إرادة الرب «كما في السماء كذلك على الأرض» (متى ٦: ١٠ – لو ١١: ٢)، إرادة الذي وحَّد السماء والأرض في كيانه، وجعل الترابيين سمائيين، ولذلك إذا قرأنا في الأسفار المقدسة إننا عبيد، أو حسب عبارة الرب «عبيد بطالون» (لو ١٧: ١٠)، فإن الإشارة هي إلى **الطبيعة وليس إلى النعمة**؛ لأننا حسب الطبيعة «عبيد» وحسب النعمة «أبناء» (يو ١: ١٣-١٤).

١١- بالحق نسجد للحق، ليس فقط بالانطراح على الأرض، بل بخضوع المحبة وورع وشوق اتحادنا بالرأس ربنا يسوع المسيح. نسجد كأطفال في خشية مَن يعلم محبة الله الآب لنا لكي نعلم - بالسجود وتحت قيادة روح الحق وبمثال الحق الكامل ربنا يسوع المسيح، الحق الأبدي - كيف نعبد الثالوث مع السمائيين ونشترك معهم في الليتورجية السماوية التي فيها شوق المحبة لا خوف العبيد. لأنه لا يوجد مكان لخوف العبيد في الليتورجية السمائية، ليس فقط لأن الرسول قال إن «المحبة تطرح الخوف إلى خارج»(١يو ٤: ١٨)، بل لأن الخوف نابع من الطبيعة المستعبدة للداء القديم، أي الموت، ذلك الداء الخفي الذي يحركنا لطلب الخلود من أي مصدر غير الله ونظن أنه فينا ومنا، وهو وهمٌ لا أساس له بالمرة لأن الخلود هو من الله.

١٢- السجود الكاذب هو سجودٌ يخلو من معرفة الحق.

وما هو الحق الذي نقصده؟ حسب إيماننا الأُرثوذكسي الحق هو ابن الله الذي عندما تجسد علّمنا عن الآب والروح القدس، **لأنه جاء لكي يعلن لنا الثالوث، أي في جسده ونفسه وحياته وموته وقيامته؛ لأنه لم يكن إعلاناً مثل الوصايا العشر على لوحي حجر، بل إعلاناً في اللحم والدم نقل فيه الرب الإعلان من الحرف والكلمات إلى الحياة الإنسانية نفسها،** فأعلن بذلك أي في تجسده أنه متمايز عن الآب ليس فقط بالصلاة والتعليم، بل أيضاً بالاسم الذي أُعلن بالروح القدس، أي «ابن الله».

وهكذا، حسب تدبير الخلاص، جاء الابن إلينا وعَبَر إلينا بكل هبات اللاهوت وأزال كل **موانع الاتحاد بالله:** الجهل والعبادة الكاذبة النابعة من هذا الجهل، الخطية التي فيها وبها تعلَّم الإنسان أن يكون شريعةَ نفسه وميزان الخير والشر، الموت الذي يحرك الإنسان نحو طلب خلود كاذب يظن أنه في الكون أو في المقتنيات أو قوة الجسد أو في طلب المعرفة من العقل وحده.

ونحن نعلم أن الأُمم الذين لم ينالوا بركة الإنجيل يعبدون الله حسب استنارة الضمير والإدراك؛ لأن كل نفس إنسانية تحمل بذرة الصورة الإلهية وتتجه نحو خالقها بقوة استنارة الضمير، بل وتنمو طبيعياً حسب السلوك الأخلاقي الذي ينال النعمة الأولى التي أُعطيت لآدم الأول، أي عبادة الخالق حسب استنارة الصورة الإلهية، ولكن هذا يصطدم بثلاثة موانع كبرى:

أولاً: جهل الإنسان بمحبة وطبيعة الله، وهو الجهل الذي دخل مع الخطية والذي احتاج - كدواء - إلى كلمات الأنبياء، ثم أُعلن بعد ذلك الشفاء الكامل بتجسد ابن الله رب المجد حسب قول الرسول: «بعدما كلم الله الآباء بالأنبياء قديماً كلمنا في هذه الأيام في ابنه الذي هو رسم أُقنومه وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته» (عب ١: ٢ النص القبطي). **وهكذا بعد الإعلان النبوي يجئ الابن الكلمة الخالق الذي يعطي الوجود والحياة لكل كائن، والذي أنار عقولنا وقلوبنا بنعمة وقوة إلوهيته، وجعلنا**

نعرف الآب فيه ليس كخالق، بل كآب؛ لأن معرفتنا بالله كخالق لا تحتاج إلى إعلان، ولكن معرفتنا بأُبوة الله احتاجت إلى مجيء ابن الله المتجسد.

ويترك الجهل بالله وبمحبته مجالاً للتمسك بطقوس وعبادات ترد الإنسان إلى كيانه، وتؤكد له أن عبادته يجب أن تكون حسب طقوس خاصة، **مع أن هذه الطقوس لا تعلن الله، بل تحصر فكر الإنسان في كيانه** لا سيما الاغتسال قبل الصلاة الذي كان يُمارس قديماً حسب شريعة موسى، وتقديم الذبائح الذي يظن فيه العابدون أنه يجلب رضاء الله عليهم، بينما هو يجلب راحةً لضمير العابد، ولكنه لا يعلن الله، بل يجعل مسرة الإنسان في فكره وقلبه وليس في الله.

ثانياً: ويمنع الجهل بطبيعة الله ومحبته من التشبُّه بالله، وعندما يقول الرب: «كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل» (مت ٥: ٤٨)، ويقول الرسول: «تشبهوا بي كما أتشبه أنا بالمسيح» (راجع ١كور ١١: ١)، **فإن غاية العبادة الحسنة هي التشبُّه بالله**، وهو ما يجعل معرفتنا بطبيعة الله ضرورية؛ لكي يكون لنا اقتراب حقيقي وصحيح من الحق نفسه، ولذلك عندما أضاف «الغنوصيون» صفات المنتقم والمتكبر إلى الله، خلطوا بين الحق والجهل، وأضافوا إلى الله صفات الشيطان، أي الانتقام والكبرياء؛ لأن الشيطان يُسمى «المهلك»، وهو الذي أراد أن يجعل نفسه مثل الله متشبهاً بما يشتهي وليس بالحق نفسه.

ومزجُ صفات الله بصفات الشيطان لا يخلع صفات الكبرياء والانتقام من قلب الإنسان، ولا يعلِّم الإنسان المغفرة، بل يحوِّله إلى كائنٍ آخر غير الكائن الذي نال بذرة الصورة الإلهية. وقد يستغرق هذا حياةَ الإنسان الغارق في تفاصيل الطقوس، متى تجوز ومتى لا تجوز، وكيف يجب أن تُمَارس بشكل شرعي (قانوني) وكل هذه الأُمور هي استغراق الإنسان في الاهتمام بنفسه، وهو ما يحوِّل نظر القلب من الله إلى ذات الإنسان،

وخداع هذا التحول هو ظن الإنسان أنه يرضي خالقه. وكدليل واضح على ما نقول هو أن الرب يسوع المسيح علَّمنا أننا إذا قدَّمنا قرباناً على المذبح وتذكَّرنا – بعد أن بدأت الطقوس – أن لآخر علينا شيئاً، قال الرب: «أُترك قربانك على المذبح واذهب واصطلح مع أخيك» (مت ٥: ٢٣ – ٢٤)؛ **لأن المغفرة** أهم من كل الطقوس، **وهي أحد أسباب وجود الطقوس**، ولكن إذا كانت الطقوس تحول دون ممارسة المغفرة بظن الإنسان أنه يرضي ربه وهو يكره أخيه، فإن الخداع ظاهرٌ لأن الله الذي يغفر كل الخطايا لا يرضى بشركة مع إنسان يحفظ في قلبه وفكره خطايا الآخرين.

وعندما قال الرب: «إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم» (مت ٦: ١٥)، لم يضع شرطاً وقانوناً للمغفرة، وإنما أكَّد أن مَن لم يتذوق المغفرة في قلبه لا يمكنه أن يدرك كيف يغفر الله الآب السماوي، وكيف يغفر الابن بموته على الصليب، وكيف يغفر الروح القدس بسكناه في القلب عندما يطهِّره من نجاسات الخطية. هكذا ندرك أن التحرر من رباطات الجهل يقودنا إلى عبادة حسنة، وإن معرفتنا بالله تحررنا من الجهل وتقودنا إلى عبادة حسنة، وغاية العبادة الحسنة هي التشبُّه بالله. أمَّا إذا امتزجت هذه المعرفة بما نعرفه من صفات شيطانية، وجعلنا بعض صفات الشيطان هي ذات صفات الله، تحوَّلنا في النهاية إلى أرواح نجسة تعبد بخوف ورعدة مَن يعرف الدينونة ولا يعرف المحبة الغافرة.

ثالثا: وإذا لم يكن لنا معرفة حقيقية بالله، ومزجنا ما لدينا من معرفة بما نتصوره عن الله، صار التشبُّه بالله مستحيلاً على نفس وقلب يمزج بين صفات الله وصفات الشيطان، ويسود الجهل بالمحبة على قلب الإنسان وفكره، وبذلك تكون المحصلة (النتيجة) الأخيرة هي جهل الإنسان بكيانه والاغتراب عن صورة الله التي وُهِبت لنا في الخليقة الأولى. لأن العبادة الحسنة تبدأ بمعرفة الإنسان بكيانه، ومعرفة الإنسان بكيانه تبدأ بتأمُّل الله وطبيعته، وتأمُّل الله يتطلب التحرر من الجهل. هكذا يشبه الحبل المفتول من ثلاثة ضفائر وُضِعَت معاً، فإذا كانت الضفائر من أنواعٍ مختلفة

وضُفِرت معاً فقد الحبل متانته وغاية وجوده وصار استعماله خطراً.

وعندما نتكلم عن التشبُّه بالله، فإننا نقصد بكل يقين التشبُّه بالمحبة الإلهية لأننا لا نستطيع أن نحب الله بصدق وحق دون أن نتشبه به. لقد تشبَّه ابنه الوحيد بنا عندما صار إنساناً وغرس هذه العطية في حياة وصلوات وإيمان الكنيسة الجامعة مُعلناً إياها بالعمل والكلمة الحية في السرائر الكنسية وفي عطايا الروح القدس؛ لأن غاية السرائر وعطايا الروح القدس هي أن نكون مثل المسيح وصورته في الكون وشعاع محبته الأزلية في الخليقة، وقوة المصالحة لكل الشعوب، بل وفينا يوحِّد السماء والأرض تحت رأسه الإلهي.

الثالوث
دعوةٌ للتشبُّه بالله

١٣– يقول الرسول: «إن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس» (رو٥:٥) الذي وهبه الآب السماوي في ابنه الوحيد يسوع المسيح رب المجد وابن الآب بالحق لكل الذين صاروا حسب نعمة الإنجيل أبناءً له ونالوا في يسوع عطية التبني. **وغاية المحبة هي أن ننال شركة مع الله.** ولكن المحبة مثل كل شيء في حياتنا البشرية قد سادت عليه الخطية، ولذلك حذَّرنا الرب من أن لا نحب مثل العشارين والزناة لأن المحبة الإلهية كاملة، ولذلك فهي تتجه نحو الذين لا يحبون الله[1] ولنفس السبب حذَّرنا الرسول بولس من المحبة الكاذبة عندما وضع القواعد الإلهية للمحبة الحقيقية في عبارات موجزة صارت بمثابة شريعة كاملة للكاملين، وهي وصايا تحدد جوهر وعلاقات المحبة مع الثالوث حسب نمونا الروحي وثباتنا في النعمة.

١٤– فقد كشف الرسول المحبة الكاذبة التي نراها في العبادة الكاذبة، وقدَّم في عبارات موجزة هذه الحقيقة بقوله: «إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة وليست لي محبة فقد صرت مثل نحاساً يطن أو صنجاً يرن» (١كور ١٣: ١). ومَن يعبد بلسان الناس جميعاً بالفصاحة وقدرة اللغة، ويُسبِّح بلسان القوات السماوية، وليس له محبة هو فارغ تماماً مثل الصنج يدق بصوت عالٍ، وبعد ذلك يغرق في الصمت لأنه لا يعرف **أن غاية المحبة هي الشركة وإن الشِّركة هي قوام المحبة.**

وإذا قلنا إن الشيطان يسبِّح الله، دُهش الناس، فهو يعبد ولكن ليس بمحبة ولا بشركة، وإنما يعبُد عن خوف. وقد سلَّم لنا القديس يعقوب الرسول هذه الحقيقة التي تغيب عن أذهان الكثيرين بقوله: «الشياطين يؤمنون ويقشعرون» (يع ٢: ١٩)

(١) كتب الأب صفرونيوس رسالتين عن محبة الله للأعداء، وشفاعة الروح القدس في أعداء الله.

لأنهم يعرفون الدينونة الآتية وهي ترعب أرواحهم، ولكنهم لا يستطيعون – بسبب الكبرياء اللاصقة بهم – أن يقتربوا من الله ويشتركوا في محبته. وبهذا نميِّز الأرواح؛ لأن الأرواح الضالة الشريرة تمارس عبادات كثيرة، ولكن بلا محبة، بل عن خوف من قوة الله، في حين أن الله ليس السيد القاسي، وعن ورع مزيف ظناً أن الرعدة تُرضي الخالق، بينما لا يرضي الخالق سوى المحبة الحقيقية.

وعبادة الشيطان لله ليست مسألة نشك فيها، بل نميِّز فيها تصوُّر الشيطان لله على أنه مثله، ولذلك يعبده عن خوف من قوة الله وغضبه، ويظن أنه يرضي الله بهذه العبادة، وبينما هو غارق في أوهام كبرياء قلبه لا يقدر أن يتصور محبة الله للبشر الخطاة بشكل خاص، ولذلك يحارب كل الذين يريدون التوبة بكل عنف وقسوة كما يحارب النُساك والقديسين بسبب الحسد الكامن في قلبه، ولأنه يظن أن محبة الله للخطاة هي عجز وضعف لا يليق بمَن هو متكبر مثله.

وفراغ الحياة الداخلية بسبب انعدام المحبة هو فراغٌ يعود إلى غياب الله؛ لأن «الله محبة». أمَّا إذا كان الإنسان مملوءً من أفكار وخيالات قلبه، وهو لا يعرف المحبة، فقد امتلأ من كيانه، وسدَّ عليه كيانه وفكره كل سبل الاقتراب من الله، ولذلك يقول الرسول: «إن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً»، وكلمات الرسول «لست شيئاً»؛ لأن الذي يستطيع أن يعمل كل هذه الأُمور: كل علم ونبوة وكل إيمان، بدون المحبة، هو إنسانٌ فشل في أن يكون مثل الله في محبته، أي فشل في كل شيء؛ لأن الرسول بعد ذلك قال: النبوات ستبطل والتكلم بألسنة الناس والملائكة سوف ينتهي في الدهر الآتي لكي يبقى لسان المحبة، وهو يؤكد ذلك بقوله: «متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض» والكامل هو عندما يكون «الله الكل في الكل» (١كور١٥: ٢٨).

ولقد حدد الرسول الفرق بين المحبة الشيطانية ومحبة الخطاة بعلامات يمكن لمن يتأملها أن يدرك قوة الإفراز التي فيها، وهي علامات لا يمكن لمن له قدر من الحكمة أن ينكرها:–

المحبة تتأنى وترفق، فقد وصفت الأسفار المقدسة الله بأنه «طويل الأناة» (مز ٨٦: ١٥) ووُصِف الرب يسوع بأنه «يترفق بالخطاة» (عب ٥: ٢). أمَّا الشيطان فقد وُصِفَ بأنه «المهلك» (١كور ١٠: ١٠).

المحبة لا تحسد، وعندما يقول سفر الحكمة: «الموت الذي دخل إلى العالم بحسد الشيطان»، فهو يؤكد أن صراع الإنسان والشيطان مصدره الحسد، ونحن لا نحسده على شيء لكن الذين يقعون في هاوية السحر والعرافة والتنجيم وسائر المرذولات الأُخرى، هؤلاء يعرفون قوة «المهلك» ويشتهونها، بل ويحسدونه عليها.

المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ لأنها حسب منطق المحبة نفسه **لا تطلب ما لنفسها.** وحكمة المحبة ليست فقط في التأني والرفق، بل أيضاً في العطاء، فهي تعطي دون أن تفتخر، وعندما قال الرسول: «من افتخر فليفتخر بالرب» (١كور ١: ١٣ – ٢كور ١٠: ١٧) فقد أكد أن فخر المحبة هو في الصمت؛ لأن أعمال المحبة تتكلم عندما يصمت المحب والمحبوب.

المحبة لا تحتد وهي لا تطلب الفانيات، ولذلك لا تحتد؛ لأن الأبديات باقية، والأبديات معلقة بالإرادة الإلهية والنعمة الوافرة التي لربنا يسوع المسيح، ولذلك تبقى المحبة في هدوء وصبر وأناة الله لأن الله محبة، وتبقى كل الأبديات عطاء الله الذي لا يضيع بالمرة، ويدوم صبر المحبة بقوة الحياة الأبدية التي غرسها الرب فينا.

المحبة لا تظن السوء، فهي لا تحاول أن تفتش عن الشر ونوايا الإنسان الداخلية لأنها تريد أن تعطي، ولذلك لا تملك المحبة أن تظن السوء، أي أن ترى دوافع الشر في تصرفات مَن تحب حتى وإن كانت ظاهرة، بل تلتمس له العذر وتسعى للشفاء والمصالحة، ولذلك قال الرسول بعد ذلك مؤكداً هذه الحقيقة، **المحبة لا تفرح بالإثم** لأن الوحيد الذي يفرح بالإثم وبسقوط الآخرين وسيادة الشر هو الشيطان. وعندما نسمع بما يحدث للآخرين، فإن الشماتة هي جزء من الفرح بالإثم لا يمكن أن ينفصل عنه، ومَن يسقط كان الرسول يلتهب بنار المحبة لكي يخلصه، ولذلك تفرح المحبة بالحق، أي بابن الله ابن الحق.

المحبة تحتمل كل شيء حتى الانفصال والرِّدة وإنكار الحق والاستهانة

بكل المقدسات والعودة إلى الوثنية وسائر الشرور الأُخرى. تحتمل المحبة كل هذه الأُمور؛ لأنها تعرف أنها زائلة وغير باقية؛ لأن الشر مثل رياح الخماسين تعكر صفو الجو ولا تدوم، بل تعود الرمال إلى حيث تبقى. هكذا الشر يعبر مهما كانت قوته، وطوبى لمن لا يخاف الشر لأن بصره الروحي يرى نهايته فلا يرتعب. هكذا عاش الشهداءِ والنُساك الذين جحدوا العالم بكل ما في قلوبهم من محبةٍ إلهية.

المحبة تصدق كل شيء، ولكنها لا تصدق الشر، بل تصدق نهاية وزوال الشر، ولذلك **ترجو كل شيء**، أي كل ما هو متعلق بالصالحات، **وهي تصبر على كل شيء** حتى على خطايا الأشرار والمؤمنين؛ لأنها ترجو خلاص كل أحد كما قال الرسول: «الله يريد أن يخلص الجميع» (١تيم ٢: ٤).

١٥- هذه هي صفات المحبة الحقيقية التي نرى فيها العطاء والبذل والمغفرة وترك – حتى حقوقها – من أجل الشركة.

المحبة الحقيقية المُعلنة في الثالوث

١٦– بعد أن وضع الرسول قواعد المحبة الحقيقية، تعيَّن علينا أن نمتحن هذه الأقوال الإلهية بإيماننا بالثالوث القدوس؛ لأن المحبة الإلهية مُعلنة لنا في محبة الآب للابن، ومحبة الابن للآب، وانسكاب روح المحبة في قلوبنا أي روح الآب والابن[١]؛ لأن الله هو المثال الحقيقي الذي يعلن المحبة الحقيقية.

لقد منحنا كل شيء: الوجود والحياة الأبدية وشركة في ملكوته السماوي، حتى أن الرسول دعانا «ورثة المسيح».

بسبب المحبة أُعلن الثالوث. وبسبب الثالوث تُوهب لنا محبة الله، ليست محبة واحد لكثرة، أي الله الواحد للبشر، بل محبة ثالوثية لكثرة؛ لأن المحبة شركة، والشركة لا تقوم إلاَّ بالمحبة. ولأن المحبة شركة، فلا شركة لواحد مع ذاته، وإنما الشركة لأكثر من واحد، وإذا انعدمت الشركة في جوهر الله تعذَّر على الخليقة أن يكون لها شركة؛ لأن ما يعطيه الله لا يمكن أن يكون غريباً أو مناقضاً أو منافياً لما في جوهر الله. وما يخلقه الله لا يمكن أن يكون مناقضاً أو منافياً لما في كيانه الإلهي من حياة ومحبة.

هكذا نرى الشركة على مستوى المخلوقات، ونرى وجود الله وقد انعكس على كل كائن يعطي من كيانه ومن حياته ما يجعله قادراً على أن يشترك في حياة غيره. يجود الماء والهواء والنور والحرارة والنباتات بحياتها، وتشترك في بقاء الحياة الإنسانية. والماء ضروري لكل كائن، وبدون الهواء تموت الحياة. هكذا نرى مبدأ

(١) الروح القدس هو روح الابن، وهذه العبارة بشكل خاص لا تؤكد التعليم الغربي الذي أضافته الكنيسة الغربية عن انبثاق الروح القدس من الآب والابن (راجع غلاطية ٤: ٤ – ٥).

الشركة الذي تتحد فيه عناصر الكون معاً لكي تقيم حياةً. والماء والهواء ليسا غريبين ولا هما ضد الطبيعة الإنسانية، بل كل ما فينا من حياة مخلوقة لا يمكن أن يدوم ويبقى إذا انعدم الهواء أو المياه، فنحن نشترك بما فينا من حياة في حياة وكيان الآخرين من مخلوقات على قدر احتياجاتنا. والماء والهواء غير الإنسان، ولكن الطبيعة الإنسانية لا تحيا بدونهما، وهذا في حد ذاته انعكاس «التمايز» بين أقانيم الثالوث على المخلوقات التي تتمايز لكي تشترك، وتشترك لكي تحيا وتبقى في الشركة إذا بقيت في الحياة، وتبقى الحياة إذا دامت الشركة.

١٧- ومن يريد أن يحاجج في أن المحبة لكائن واحد هي محبة لها شركة، عليه أن يتأمل الكائنات المنظورة لكي يرى أن المحبة الإنسانية في شكلها ومظاهرها العادية (حرفياً الطبيعية) لا تتحقق إلاَّ بالشركة، وتبقى الشركة هي أساس المحبة، وإذا انعدمت الشركة انعدمت المحبة أو تحولت إلى محبة معكوسة (حرفياً مقلوبة)، أي البغضة والعداوة؛ لأن العداوة هي شركة، ولكنها شركة معكوسة؛ لأن البغضة تبدأ بمحبة وعندما تصل المحبة إلى طريق مسدود وتجد الآخر غير قادر أو غير راغب في العطاء، تتحول المحبة إلى رفض، ويبقى تحت الرفض نار المحبة التي تريد ولا تنال، وترغب ولكنها تُرفض، وترى في الآخر الرفض، وبذلك تسقط الشركة، وتتحول المحبة إلى مقاومة الآخر بشكل يجعل المقاومة متحدة بالمحبة، ويقلب المحبة رأساً على عقب وترتد المحبة من محبة الآخر إلى محبة الذات وتفضيل الذات على الآخر، أي تسود الأنانية وتبقى محبة الذات، أي محبة الفرد الواحد هي المحبة العليا التي لها اليد الطولى والقوة المحركة لكل تصرفات الفرد وبذلك تصبح عداوة.

١٨- نحن نتحدث عن الفرد الواحد الذي بدون المحبة يتحول إلى كائنٍ بلا حياة حسب كلمات معلم المحبة الحقيقية ربنا يسوع المسيح: «ومن وجد ذاته يضيعها» (مت ١٠: ٣٩) أي احتفظ بكيانه وحياته لذاته فقط، فسقط في بئر الأنانية الذي يقتل الشركة، ويقتل تبعاً لذلك المحبة نفسها.

١٩- ومحبة الفرد الواحد لذاته وحياته ضرورية، ولكنها ليست محبة كاملة؛

لأنها بدون الشركة تتحول إلى صورة الموت، أي مثل القبر الذي يأخذ ولا يعطي إلاَّ العظام وبقايا الحياة. وعندما نقول إنها محبة غير كاملة، فإننا نعني بذلك الكمال، أي الغاية (τελος)، وكمال المحبة في الشركة؛ لأننا في الشركة ننمو معاً نحو الكمال الحقيقي، أي الثالوث القدوس.

٢٠– وإذا حاول أحدٌ أن ينكر أن كمال المحبة هو في الشركة، فعليه أن يشرح لنا كيف يمكن لفردٍ واحد أن يحيا وينمو جسدياً وروحياً (حرفياً عقلياً) بدون الآخرين وتحت سيادة الأنانية. فعزلة وانفصال الفرد الواحد عن الآخرين هو قاعدة الموت الجسدي والروحي معاً؛ لأن القبور تضم الأفراد الذين يعيشون الموت كعظام بالية، ولذلك يقول المزمور عن الموتى: "في ذلك اليوم تهلك كافة أفكارهم، قد تبددت عظامهم عند القبر (الهاوية)" (مز ١٤٦: ٤)؛ لأن الموت يجيء بتقسيم الكيان الإنساني في الواحد إلى جسد وروح، ويفصل الحياة الإنسانية، ويجيء بعزلة الجسد عن الروح، ولذلك السبب عينه قال الرسول إننا يجب أن نحسب أنفسنا "أمواتاً عن الخطية" (رو ٦: ١١) أي لا تسود علينا الخطية إذا اعتبرنا أن الجسد قد صُلب ومات مع الرب، لكي يقوم لحياة جديدة كاملة في يوم قيامتنا من الأموات وفي حياة الدهر الآتي.

فالفرد – في الانفصال والعزلة – ينمو بطريقة مقلوبة، ويتجه نحو ذاته بحركة الأنانية التي تسود فيها محبة الذات على كل شيء، وعند ذلك يموت؛ لأنه يأخذ من ذاته ويعطي ذاته، ولا يسمح بالشركة إلاَّ في حدود ما يقوِّي الأنانية التي فيه.

٢١– ونحن ندرك من تأمل كياننا وحياتنا أن المحبة حركة قوية دائمة لا تهدأ، هي قوة محركة للفكر الإنساني، وإذا كان الفكر ينام — وهذا مستحيل؛ لأنه من علامات الحياة أن نتحرك داخلياً بقوة الإدراك والذكاء والمخيلة التي تنال قوتها من العواطف والمشاعر، وتتحد العواطف والمشاعر بالفكر وتحركها الإرادة، كما تحرك الإرادة الفكر ويحرك الفكر الإرادة، وكل ما فينا من حركة (داخلية) تقوى بالشركة؛ لأننا نتعلم الكلام من الآخرين، كما نتعلم السلوك الفاضل أو السلوك

الرديء من الآخرين، ونتطور بمقدار ما نحصل عليه من الآخرين وبمساهمتنا نحن في حياتهم، ومساهمة الآخرين في حياتنا. هنا تسقط كل حجة أو برهان يحاول الذين ينكرون الشركة أن يقدموه على كمال العزلة.

أمَّا نحن، فإننا لا نعتبر الذين يسكنون المغارات وشقوق الأرض أفراداً، بل أعضاء في جسد المسيح الكنيسة الجامعة؛ لأن هؤلاء لا يسكنون في حياة الوحدة إلاَّ بعد انقضاء سنوات في حياة الشركة. فقد تعلموا الشركة قبل التوحُّد، وتعلموا كيف يعيشون في المغارات من الآباء الذين يسلِّمون لهم هذا الأُسلوب الفريد والخاص بالرهبنة.

٢٢- مادمنا نتكلم عن حياة الشركة، يلزمنا أن نتوقف عند حياة الشركة في الجوهر الإلهي، أي شركة الأقانيم الثلاثة في جوهر واحد أو حياة واحدة؛ لأننا عندما نتكلم عن الجوهر، فإننا نقصد الحياة. وعندما نتكلم عن الحياة، فإننا نعني الوجود. والوجود، والكيان، والطبيعة هي كلمات مترادفة عندما نستعملها في الكلام عن الله.

أمَّا في الكلام عن الإنسان، فإننا يجب أن نكون أكثر وعياً؛ لأن الجوهر والطبيعة تعني ذات الحقيقة، أي الحياة الإنسانية، ولكن الحياة الإنسانية هي تحديد (ϩopoc) عقلي نصل إليه بتأمل البشر وتحديد جوهر الإنسانية. وعندما نقول الوجود، فإننا يجب أن نميِّز بين الوجود بشكل عام، أي الكون كله، والوجود الإنساني الذي يميز البشر. وإذا اختلفت مدارس الفلسفة في شرح معاني هذه الكلمات، فإننا لا نأخذ هذه الاختلافات بالمرة ونطبقها على الله؛ لأن الله فوق كل تحديدات الفكر البشري. وما ذكرته في هذا المجال يكفي في الوقت الحاضر؛ لأننا كتبنا من قبل عن الجوهر والأُقنوم، ونكتفي بما ورد في التسليم الكنسي لكي نشرح الإيمان الرسولي المسلم مرةً للقديسين (يهوذا ١: ٣).

التوحيد ورسالة المحبة

٢٣- حياة الله هي حياة واحدة لا تنقسم، والثالوث هو الذي يعلن لنا هذه

الحياة. وجوهر الله هو جوهر واحد لا ينقسم، والجوهر الواحد هو عقيدتنا الخاصة بالتوحيد، توحيدٌ علّمنا إياه الرب يسوع المسيح والرسل القديسين والآباء.

ونحن هنا أكثر وعياً من أنبياء العهد القديم بتوحيد الله؛ لأن وحدانية الله أُعلنت ضد تعليم الوثنية الشائع في عبادات الأُمم، فجاءت رسالة الأنبياء تقول: «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد» (تث ٦: ٤)، وبعدها «تحب الرب إلهك من كل قلبك ... وقريبك كنفسك» (تث ٦: ٥)؛ لأن توحيد الله هو توحيد الخالق والفادي والمخلص الذي نتجه إليه كإله واحد نقدم له محبتنا وطاعتنا وخضوعنا، ولذلك كان التعليم النبوي أن تحب الرب وتحب القريب معاً لأننا لا نقدر أن نقسم المحبة، فهي محبة واحدة لله وللقريب ولكل إنسان نعرفه. أمَّا إذا انقسمت هذه المحبة وقعنا في ضلال وشرك الوثنية؛ لأن البغضة تُعلّم الإنسان التقسيم. والخوف يزرع العزلة، والعزلة تُعلِّم الإنسان توحيداً يتفق مع فكره المنحل أو المنقسم؛ لأن التوحيد الذي لا يزرع المحبة ولا يعلِّم الإنسان الصفح والغفران هو توحيدٌ كوَّنه الإنسان في عقله بواسطة «رفض» الآخرين بما فيهم الإله الحقيقي نفسه، وهو توحيدٌ انتهى إليه الفرد الواحد وكوَّنه لنفسه صورة من كيانه الإنساني لا علاقة له بالإله الحقيقي.

وحسناً قال معلمنا الآب الكبير ديونيسيوس لواحد من قادة «المُوحِدين» جاء عندنا من أجل عراك وبلبلة فكر الأخوة، ولما سأله: هل تحب الله كما تحب قريبك؟ ولما قال له المُوحِد: لا، هذا غير ممكن، قال معلمنا العظيم: أنت تقسِّم المحبة إلى مخلوقٍ وخالقٍ، وعندما تعظِّم محبةً الخالق وتجعلها أكبر وأعظم من محبة المخلوقاتٍ، فأنت تهًرب من المحبة الحقيقية التي لا تعرف التقسيم. وقال المُوحِد: ولكن الله أعظم من كل المخلوقات ويجب أن يُحَب بمحبة أعظم، فقال الأب ديونيسيوس: نحن نعلم إن الله أعظم ولا نقارن الله بالمخلوقات، ولكن لدينا معلم واحد للمحبة هو يسوع المسيح الذي وحَّد في كيانه الله والإنسان وأعلن لنا محبة واحدة لا تنقسم. وعند هذا انصرف الموحد وترك قلاية الأب ديونيسيوس. وساد صمتٌ لفترةٍ قال بعدها معلمنا الكبير **يجب أن ندرك أيها الأحباء إن الذين يهربون من محبة القريب ومحبة العدو باسم إله آخر غير الآب**

السماوي أبو ربنا يسوع المسيح قد وقعوا في ضلال كبير.

٢٤- هكذا يجب علينا أن نؤكد ألاَّ يكون توحيد المؤمنين هو صورة لكيانهم، وألاَّ يصبح التوحيد مهرباً يهرب فيه الإنسان إلى حياة أخلاقية تدعِّم فيه العزلة وتقوّي فيه الأنانية، فيصبح صورةً لكيان ناقصٍ، واحدٍ بلا شركة، وعزلة لا تعرف المحبة. ومَن يؤمن بإلهٍ واحد ولا يعرفُ المحبة في كمالها، هو في الواقع ينكر الإله الواحد الحقيقي وقد رفض الأصنام وأقام لنفسه صنماً غير منظور.

التوحيد بلا إعلان عن محبة الله

٢٥- الأخلاق الجيدة هدفٌ يسعى إليه كل الذين يعرفون الخالق؛ لأن معرفة الخالق تضيف جمالاً للنفس البشرية؛ لأن معرفتنا بالله حتى وإن كانت مشوَّهة وغير كاملة تعيدنا إلى كياننا الحقيقي الذي أخذناه من الله وتردنا إلى صورة الله. لكن الأخلاق الجيدة مثل الإحسان للفقراء، المصالحة والسلام مع الأعداء، غفران الإساءة، السلوك الفاضل إزاء النساء، مساعدة الضيف واليتيم والأرملة، وباقي الصفات الحسنة والحميدة، كل هذه الصفات الجيدة بدون المحبة تتحول إلى دعامة متينة تثبِّت فينا الأنانية والكبرياء؛ لأننا نتحلى بهذه الصفات لكي نكسب رضاء الناس ومديحهم قبل رضاء الله، وقد حررنا الرب يسوع من السعي لنوال رضاء الله، لأن الله يرضى عنا كخالقٍ ولذلك خلقنا، ويرضى عنا إذ يشرق شمسه علينا دون تمييز بين الصالح والشرير (متى ٥: ٤٥)، كما رضي الله علينا بإرسال الأنبياء وبعطية سمائية وهي كلمات النبوة، ولذلك مديح الناس لا يقوي فينا محبتنا، بل يقسِّم المحبة نفسها ويجعل محبتنا لأنفسنا أهم وأعظم من محبة الله بل ومن محبتنا لله نفسه.

٢٦- تأمَّل مَن يعطي الفقراء لكي يقوِّي مكانته (الاجتماعية) في وسط جماعة، ويسالم الآخرين ويصالح الفرقاء، ويفتح قلبه لسماع شكوى المحتاجين، ولكن إذا عجز عن الصفح عمن أساء إليه كانت فضائله وسلوكه الصالح هي دعامة وثباتاً للأنانية وحب الذات وحدها دون محبة الآخرين.

وحب الذات وحدها يزرعه التوحيد بلا ثالوث؛ لأن التوحيد كما نراه ونسمعه هو انعكاس لصورة الإنسان وليس إشراقاً لطبيعة الله ولا هو إعلان عن الله؛ لأن الله لا يعلن عن ذاته بكلمة واحدة هي «واحد»، فهي رغم أهميتها في شفاء الإنسان من ضلال الوثنية، إلاَّ أن الشفاء من المرض ليس هو العافية والصحة.

وقد ذكر الأب ديونيسيوس الكبير في رسالته للأخوة في الإسقيط إن العبادة الحقيقية لا تبدأ بالإنسان، وإنما بالإعلان الإلهي، وتنتهي إلى أن تصل إلى غايتها (ⲧⲉⲗⲟⲥ) بالشركة. وهكذا، بالإعلان الإلهي، وبالشركة يتحرر الإنسان من صورته غير الحقيقية، لأن ما يجب أن يقال عن الطبيعة الإنسانية هو أنها تخلق وتكمل كيانها بما تفكر فيه وتفعله، وما نعمله إنما يصبح طبيعة ثانيةً لنا، إمَّا امتداداً ونمواً للطبيعة التي خلقها الله، أو تراجعاً وسقوطاً وابتعاداً عن الهدف الذي لأجله خُلِقنا، أي الله نفسه.

٢٧- تأمَّل العكس، وهو الإنسان الذي يعرف أن غاية الوجود هي أن يحب نفسه والقريب والله. وهذه ليست ثلاثة أنواع مختلفة أو متباعدة، بل محبة واحدة لا تنقسم، تبدأ بالله أو بالإنسان أو بالذات، أيٍّ بالله أو الآخر أو الكيان الإنساني، فإنها لا تنقسم، بل تظل محبةً واحدة. ولذلك، كمال الأخلاق الجيدة هو بالمحبة، وكمال المحبة في الأخلاق الجيدة. **والإفراط في أيٍ من ثالوثية المحبة، أي الله والآخر والذات يظهر في السلوك نفسه:**

لأن مَن يحب الله أكثر من البشر، هو غارقٌ في صوفية مجد الخليقة،

ومَن يحب البشر أكثر من الله، هو غارقٌ في صوفية الكبرياء،

ومَن يحب ذاته أكثر من الله أو البشر، هو غارقٌ في صوفية الشيطان، الذي بسبب الإفراط في محبته لذاته سقط من رتبته وانعدمت فيه الشركة.

أمَّا تمييز هذه الثلاثية (أو هذه الثلاثة)، فهو بالتجسد وبالصليب وبالقيامة:

أمَّا بالتجسد؛ فلأن التجسد كسر كل صور الوثنية وأباد صوفية مجد

الخليقة.

وأمَّا بالصليب؛ فلأن الصليب أعلن لنا بشكل حقيقي شريعة البذل، وبذلك قلع جذر الكبرياء.

وأمَّا بالقيامة؛ فلأن الخلود هو عطية الله وليس من قدرة الإنسان.

وعلى هذا الأساس الثابت والراسخ في الله الثالوث والمُعلَن بالابن والمُعطى بالروح القدس، نقول دائماً دون تردد: **إن سلوك الإنسان وفضائله لا تجعلنا أبناء للآب ولا تؤهلنا لميراث السماء، بل تحفظنا في نعمة وعطية الثالوث؛ لأن المجازاة هي على الإيمان وليس على الأعمال، فإذا كان الإنسان يطلب البقاء الأبدي ولذلك سعى إليه وناله بالأعمال الصالحة، فقد جعل نفسه صالحاً أكثر من الله، ونفى صلاح الله ورحمته الفائقة:**

أمَّا أنه جعل نفسه أكثر صلاحاً من الله؛ فلأنه استطاع بالأعمال الصالحة أن يأخذ الملكوت الذي لم يخلقه ولا تعب فيه ولا هو خاصٌ به، بل هو أصلاً عطية الله.

وأمَّا أنه نفى صلاح الله ورحمته الفائقة، فلأن الإنسان حدد لنفسه ميراثه وناله دون أن يُعطي الله فرصةً ومجالاً لكي يُعلن فيه صلاحه ويعطي الإنسان من خيرات محبته.

الحياةُ الجديدةُ
شركةٌ في الثالوث

٢٨- لنثبُت في الحياة الجديدة التي نراها كثوب روحاني، نراه في كلمات العبادة الحسنة والخدم الإلهية (الليتورجية)؛ لأننا نرى هذه الحياة الجديدة معلنةً في الصلوات نفسها. وعندما نصلِّي، فإننا نشترك قي حياة الثالوث، تلك الحياة التي أفاضها الابن وأعطاها بالروح القدس. نحن نسبح ونمجد ما أُعطي لنا في الابن، وما هو ثابت لنا وفينا بالروح القدس. تأملوا أيها الأخوة «عطية التبني»، ماذا نأخذ؟ نحن نأخذ شركة في بنوة الابن. وهذه ليست كلمات تقال، بل كلمات تعبِّر عن حقيقية ماثلة وكائنة أمام عيوننا، وعندما نشترك في بنوة الابن، فنحن نقف أمام الآب كأولاد سمائيين رغم وجودنا في الجسد. وعندما نسجد، فإن سجودنا ليس هو سجود الاحترام فقط، بل هو انسكاب محبتنا في عبادة المحبة الفائقة، تلك التي تجعلنا - ونحن في الجسد - قائمون في السماء عينها.

٢٩- وكيف نشترك في بنوة الابن؟ يقول الرسول: «ولكن لأنكم أبناء أرسل الله روح ابنه صارخاً أبَّا أيها الآب»[١]. وبقوله: «ولكن» مؤكداً دوام النعمة غالبة الخطية والظافرة رغم تردد الإنسان وضعفه؛ لأننا بقوة الله ننتصر وبفيضان نعمته للخطاة نشترك، ليس حسب صلاح أعمال أو خير فينا، بل حسب محبة الله.

وما هي هذه الشركة؟ إنها من ينبوع فياض هو ربنا يسوع المسيح الذي أنزل البنوة من السماء ومن فوق حيث لا يقدر إنسان أن يدخل أو يتجاسر حتى بالفكر أن يكون ابناً لله.

---

(١) ''ولكن لأنكم أبناء أرسل الله روح ابنه''

Ⲟϯ Ⲇⲉ ϫⲉ ⲛⲑⲱⲧⲉⲛ ϩⲁⲛϣⲏⲣⲓ ⲁ Ⲫϯ ⲧⲁⲟⲩⲟ ⲙ̅ⲡⲓⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲛⲧⲉ ⲡⲉϥϣⲏⲣⲓ.

هو جاء إلينا عندما كنا نجلس في «كورة الموت» ومستعبدين للعالم وللشريعة القديمة وكل ما هو ترابي وأرضي. ولأنه هو جاء إلينا، وهو الذي فتح لنا باب الشركة ليس بالقول، بل بالفعل.

ما هو هذا الفعل؟ هو اتحاد أُقنوم بنوته الإلهي بالجسد. وهو بذلك الاتحاد ثبَّت لنا أساس الشركة. وعندما اتحد اللاهوت بالناسوت في أُقنوم الابن الكلمة ابن الآب صار باب الاتحاد مفتوحاً، ليس باقتحام الإنسان ولا بالخيال ولا بالكلام، بل بعمل الروح القدس. ولذلك يعمل الروح القدس فينا مشرقاً في قلوبنا بالمعرفة هادياً إيانا للصلاة البنوية صارخاً «أبَّا أيها الآب» مؤكداً لنا ثبات النعمة محركاً الإرادة والقلب للتشبُّه بمن نحب ونعبد بالرب والمخلص يسوع المسيح.

ونحن نتحد بلاهوت الابن اتحاد النعمة النابع من الرب يسوع، هو يسكن فينا مع الروح القدس، أو إذا شئنا الدقة اللفظية «يسكن فينا بالروح القدس» ليست سكنى اجتهاد الإنسان، ولا هي سكنى حسب العواطف والشعور، بل حسب ثبات النعمة، ولذلك إذا كنا لا نحس أو نشعر، فهذا لا يعني أننا فقدنا ما مُنِح لنا أي عطية التبني.

أعود وأقول إن الاتحاد الذي تم بين الله والإنسانية في المسيح أساسه في تجسد الابن، قوته في الصليب الذي رفع الخطية والموت، مجده في القيامة التي أعطت لنا الانتصار على الفساد وفتحت لنا حياة الخلود. **التجسد ثبَّت لنا الأساسات، والصليب أباد العوائق لا سيما الخطية والموت، والقيامة أعطت البقاء والخلود والحياة.**

هذا هو الينبوع الذي ننال منه ونشرب المياه العذبة الروحية التي صرخ أشعياء وهو يراها بروح النبوة « هلم أيها العطاش»[1]، فقد رأى جيوش وألوف وربوات القديسين الآتين من الأُمم إلى ميراث إبراهيم ودعاهم للشرب. فإذا كان أساس النعمة هو اتحاد اللاهوت بالناسوت في ربنا يسوع المسيح، فإن هذا الأساس ليس من إرادة الإنسان، ولا هو من قدرة اللحم والدم، بل بقوة الله ومحبته التي لا تزول.

وإذا كان الصليب قد أباد العوائق، فما هو العائق والمانع الذي يمنع الإنسان؟

---

(١) «أيها العطاش جميعا هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمرا ولبنا» (أش ٥٥: ١).

لقد غفر الرب الخطايا وقهر الموت. إن ما يمنعنا – أيها الأخوة – هو تردد الخطية والشك في صلاح الله، والخوف النابع من إحساسنا بأننا لا نملك، ولم يكن لنا قرار في نعمة الله. نحن لا نصدق إلاَّ ما هو تحت أيدينا ولا نؤمن إلاَّ بما نقوم به من أعمال ونحققها، هذه الموانع الروحية يعالجها الروح القدس بدواء كلمة الله وبسيرة المعلمين الأبرار، بالفرح والسلام الذي يجعل القلب صافياً مؤهلاً لقبول النعمة. وأحياناً يعالجها بالتجارب لكي يتعلم من يسلك طريق الرب أن حياته ليست نابعة منه.

بسبب تجسد الابن الوحيد صارت النعمة الإلهية نابعة من الابن؛ لأنه وحَّد كيانه بالطبيعة الإنسانية، فأسس بذلك أسرار الاتحاد به أي المعمودية والمسحة الملوكية وسر الشكر حيث تُعطى حياة الدهر الآتي فيها لكل المؤمنين، أي البنوة وسكنى الروح القدس، والتناول من شجرة الحياة أي جسد الرب ودمه لكي نحيا به وفيه حياةً واحدةً نابعةً منه أبديةً وغالبة للموت والفساد في هذا الدهر، ومشرقة ببهاء السماء في الدهر الآتي. هذا هو ما نراه ماثلاً أمام عيوننا في صلوات الكنيسة وخدمة الأسرار الواهبة الحياة.

الثالوث
هو أساس الحياة الجديدة

٣٠- أيها الأحباء المختارين حسب صلاح الله لملكوت السموات، هذه هي أساسات الإيمان والحياة الجديدة:

الآب ضابط الكل مصدر كل نعمة وصلاح، معلناً لنا محبته في ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح.

الابن الوحيد كلمة الله معلِّم ومعطي سر الاتحاد الفائق من الآب بالروح القدس فيه هو بسبب اتحاد طبعنا الإنساني به، ولأنه الوسيط بيننا وبين الآب ورأس الخليقة الجديدة.

الروح القدس البارقليط عطية الآب في يسوع المسيح ربنا؛ لأنه هو الذي أدخل الروح القدس في خدمة الخلاص ووهبه لنا فيه، ولذلك أحياناً يُسمى روح الابن وأحياناً روح الآب. أعطانا الابنُ الروح القدس لكي يثبِّت لنا الشركة في الثالوث.

وبذلك أعلن لنا ثالوثية الأقانيم ليس بكلام ولسان فقط، بل بالعطية **لأن الثالوث القدوس ليس واحداً حسب الأقانيم، بل ثلاثة كل منهم هو آخر بالنسبة لنا، وكل منهم هو واحد بالنسبة إلى الطبيعة. لأن البشر كل واحد منهم هو آخر بالنسبة إلى الباقين، وكل واحد هو واحد بالنسبة إلى الطبيعة الإنسانية**، هكذا تعمل المحبة، فالآخر هو آخر وهو واحد في نفس الوقت، هو آخر متمايز، والتمايز هو أساس الاتحاد، وهو واحد لأن الوحدة هي الطبيعة. ونحن البشر نخضع للطبيعة ونعلو عليها بالنعمة، أمَّا الله فإن الطبيعة والأُقنوم والآخر والوحدة هي علامات ورموز روحية أُعطيت لنا لكي نستوعب على قدر احتمالنا السر الإلهي الفائق، بينما في الله كل شيء كائن بالأقانيم.

نحن نجمع في كياننا، أي كل واحد منا هو أُقنوم إنساني يضاف إلى الطبيعة الإنسانية بسبب ميلادنا الجسداني، فالطبيعة تسبق الأُقنوم الإنساني، والآخر هو سبب وجودنا أي الوالدين. نحن نولد من التمايز بين البشر ونسعى للاتحاد بالإرادة الإنسانية وبرغبات الطبيعة التي تدفعنا إلى الزواج والولادة حسب قانون الطبيعة البشرية. لكن الثالوث هو عكس ذلك تماماً، وما نقوله عنا لا ينطبق على الله؛ **لأن الطبيعة الإلهية لم تسبق الأقانيم، والابن لا يولد من طبيعة، بل من أُقنوم الآب، وكذلك الروح القدس من الآب ينبثق** (يو١٥: ٢٦)**، فلا يوجد تمايز بين الطبيعة والأُقنوم، أي سيادة طبيعة على الشخص، ولا يخضع الأُقنوم لقانون تحدده الطبيعة الإلهية؛ لأن هذا ينطبق على البشر**، ولكن الطبيعة الإلهية غير مركبة من أقانيم بسيطة خالية من الصفات التي تسود على الطبيعة، بل هي مملؤة من كل الصفات التي تعطي بصلاح وخير ومحبة؛ لأن سيادة صفة على طبيعة هو وضع خاص بالإنسان والحيوانات وسائر المخلوقات، أمَّا صفات الله، فهي في الأقانيم الإلهية، ولا توجد صفات تضاف إلى الأقانيم؛ لأننا نحن نحصل بالنعمة على صفات ليست فينا مثل عدم الموت أي الخلود الذي يُعطى حسب نعمة الله، بينما خلود الطبيعة الإلهية هو من صفات كل أُقنوم، ومُعلناً لنا حسب تدبير الخلاص في قيامة الرب وسكنى الروح القدس؛ لأن الروح القدس يوزع عطاياه ولا ينقسم، ويسكن فينا دون أن يُستهلَك، ويحيا فينا دون أن ينفصل عن الآب، بل هو من عند الآب ينبثق لكي يسكن فينا بواسطة الرب يسوع المسيح، ويطهرنا دون أن يفقد طهارته، ويقدسنا دون أن يفقد قداسته؛ لأنه خالد حي وحياته نابعة منه.

٣١- أعود إلى الموضوع الأصلي، وهو الثالوث أساس الحياة الجديدة، حتى لا نفقد سياق الشرح. نحن نولد جسدياً من الوالدين، ونولد روحياً من الثالوث. هذه الولادة الروحية، هي تحرير الطبيعة الإنسانية لكي تخضع بالنعمة، وتتحول من عبودية الفساد والموت إلى حرية أولاد الله. هذا الانعتاق يكمُل في الدهر الآتي، وكعملٍ تام غرسه الرب، هو كامل الآن حسب النعمة، ويكمُل معلناً للسماء الجديدةً والأرض الجديدة حسب تدبير الخلاص.

ونحن نتحرر من الطبيعة القديمة وننال طبيعة الابن المتجسد، وهو ما جعله يقول لنا: «أخوته» (عب ٢: ١٧)، وهو «البكر بين أخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩). نحن لم نولد من عذراء، بل وُلدنا من الماء، و لم نولد أزلياً من الآب، ولكن ولدنا زمانياً في هذا الزمان ولادة روحية أبدية تعيد إلينا الأصل الحقيقي للحياة، وهو الآب الذي نعود إليه في هذه النعمة الفائقة لكي يصبح الآب هو الأصل، وهو غاية الوجود الجديد حسب يسوع المسيح ربنا.

هكذا نتحرر من عبودية الطبيعة القديمة التي ترى خيرات الأرض والأزمنة التي خلقها الناس منتجات وصنع أيدي البشر وكأنها أساس الحياة، لكن الطبيعة الجديدة ترى خيرات الأرض عطايا الخالق، وأزمنة الناس أي التاريخ كشاهد على احتياج الإنسان لله، وكل ما أبدعه العقل أنتجته الإرادة والتقنية عامةً كوسائل وليست كغايات؛ لأن اختلال الإفراز في الإنسان ظاهر جداً حيث تتحول الوسيلة إلى غاية. وعبودية الإنسان ظاهرة؛ لأن الخيرات الأرضية تتحول إلى غايات نسعى إليها بكل جهد وعرق حتى أنها تسود علينا وتستعبدنا.

وعندما تحرر الرسول بولس من بر الناموس حَسِبَ حياته السابقة «زبالة»، وأدرك أنه «عبد المسيح»، أي «عتيق الرب»، وأنه الحُر من كل قيد يستعبد الإنسان. هذا هو السبب الذي قال عنه الرب: «إن حرركم الابن» من قيود الطبيعة القديمة تصيرون أحراراً بالمحبة. وبسكنى الروح القدس في المعمودية نخلع الطبيعة الآدمية ونتحرر منها، ولكن تبقى خبرات قديمة كامنة في الذاكرة تحاربنا أحياناً عندما نترك غاية الحياة الجديدة ونرمي بأنفسنا تحت ثقل الحياة الأرضية، أو عندما نفقد - بسبب التراخي والكسل - رؤية الحياة الجديدة الظافرة في المسيح. ولكن ميلادنا الجديد لا يقوى عليه الموت حسب كلمات التقوى الأرثوذكسية[1] ويجيء زمان الانعتاق من رباطات الجسد، أي الموت الجسداني بشارة حياة جديدة غالبة في فردوس النعيم «كورة الأحياء إلى الأبد».

هذه هي ملامح الحياة الجديدة في المسيح الناهضة من موت الخطية إلى حرية مجد أولاد الله:

(١) كلمات الأوشية « اسمك القدوس هو الذي نقوله، فلتُحيا نفوسنا بروحك القدوس ولا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية».

أولاً: حرية داخلية لا تخضع للظروف الحاضرة، بل تسود عليها كما حدث للشهداء والمعترفين والنساك.

ثانياً: محبة حقيقية لا تفضِّل الحياة الشخصية، ليس عن خوفٍ أو جبن أو ضعف، بل عن قوة تدفع للبذل والذبح بكل جسارة القداسة وحكمة الإنجيل.

ثالثاً: شركة ووحدة مع جسد الرب الكنيسة مع الظافرين السعداء في السماء، والظافرين بالمعاناة والألم على الأرض من المؤمنين.

رابعاً: قداسة حقيقية ليست بتصنع أو بمحاكاة، ولكن بقبول صورة المسيح الحية فينا، تلك التي يصنعها الروح القدس حسب كلمات التقوى «يتصور المسيح في قلوبكم» (راجع غل ٤: ١٩). هذه الصورة لها ملامح الرب نفسه في السلوك المقدس وجوهر محبته، النار الروحية الداخلية التي نأخذها من الرب لكي تعيد تكوين طبعناً ليكون حسب المسيح.

الحياة الجديدة
مُعلنةٌ في الثالوث القدوس

٣٢– أيها الأخوة الحكماء حسب حكمة الروح القدس، ميِّزوا بميزان الإفراز الذي لا يخطئ والذي أخذناه من الرب هذه الأمور الأساسية والضرورية للحياة الحقيقية التي تليق بأولاد الله. وإن كان أحدٌ بيننا يريد أن يترك الإنجيل لكي يعتنق تعليم «الموحدين»، فإننا لا نملك إلاَّ أن ننذره بخسارته وما يلحق به من دمار روحي. لقد وضع الرب يسوع المسيح أساس الإفراز الروحي على هذا الأساس:

أولاً: كل ما يهدم شركة الإنسان في الحياة الإلهية المتجسدة هو من الشيطان، حتى وإن بدا في صورة النور أو ثوب الحق. **نحن نعلم أن غاية تجسد ابن الله هي أن يفتح لنا باب الشركة في الحياة الأبدية،** ولذلك كل ما يمنع هبة الحياة الأبدية أي الشركة في الطبيعة الإلهية، فهو ضد بشارة تجسد ابن الله، حتى ولو كانت ببراهين من الكتب المقدسة.

ثانياً: لقد تمجّدت الطبيعة الإنسانية في ربنا يسوع المسيح بميلاده من والدة الإله، فأسس ميلادنا الجديد، وبمعموديته من يوحنا في نهر الأردن أسس المسحة، وبموته أباد الموت بذرة الخطية والداء الخفي، وبقيامته أعلن الخلود. هذه هي الأسرار الثلاثة التي تمت فيه ووُهِبت لنا لكي تمجدنا بالميلاد الجديد في المعمودية وبمحسة البنوة والمائدة السماوية التي تؤكد لنا أن حياتنا ليست منا ولا هي بقوة البقاء الطبيعي الذي أُعطي لنا عندما خُلِقنا أولاً في آدم الأول، بل بقوة بقاء وحياة الذي هو بالطبيعة الحياة.

نحن نولد من الآب في ابنه ونُمسح بواسطة الآب في ابنه بالروح القدس ونأكل خبز الله النازل من فوق من عند الآب، أي جسد الرب ودمه (يو٧: ٣٣) الذي يُعطى لنا بالروح القدس.

هذه هي شركة الثالوث؛ لأن الآب هو الينبوع الذي منه كل الأشياء، والذي منه – قبل الأشياء – الابن والروح القدس. ونحن لا ندرك الآب، بل نراه في الابن، ونرى الابن في الروح القدس وبواسطة الاستنارة التي تُعطى لنا منه وفيه لكي نبقى ونثبت في المسيح، وبذلك نثبت في الآب بالروح القدس.

٣٣– نحن نحتاج إلى الثالوث، والثالوث لا يحتاج إلينا؛ لأننا لا نملك حتى الوجود نفسه، فهو هبةٌ من الله.

نحن نحتاج إلى الشركة، والشركة لا تكون بين الواحد والواحد؛ لأن الإثنينية هي أضعف صورة للشركة، فهي مغلقةٌ على اثنين وتبقى كذلك بلا إمكانية للنمو، وأنا هنا أتحدث عن المؤمن وعن الله الواحد، ولذلك نحن نُعلِّم بأن شركتنا هي مع أقانيم الثالوث، مع الثلاثة الذين هم جوهر واحد. **وإعلان هذه الشركة جاء بإعلان الثلاثة وليس بإعلان الجوهر الواحد؛ لأن الجوهر الواحد الإلهي يعلو على الإدراك ولا نعرفه إلاَّ بإعلان الابن وإعلان الروح القدس.**

فإذا كانت شركتنا هي مع الله الواحد فقط بلا ثالوث الأقانيم، صارت شركة بدون إعلان المحبة، أي محبة الآب للابن وللروح، أي محبة الثالوث ومحبته للإنسانية التي صار رأسها «ابن الإنسان» ربنا يسوع المسيح. وشركتنا في كل صفات الله الواحد إن كانت ممكنة لنا نحن المخلوقين لا تقود إلى شيء، وهي أصلاً ليست ممكنة؛ لأننا عبرنا الفجوة بين اللاهوت والطبائع المخلوقة بأسرها بسبب تجسد الابن كلمة الله. وبدون التجسد، أي عبور الله إلينا لا توجد شركة في الله مهما كانت قدرتنا. ولذلك فإن دعوة «التوحيد» صالحة لأنها تعالج خطية الشِّرك كما سبق وذكرنا، ولكنها لا تعلن محبة الله لنا لأن الواحد يستطيع أن يحب نفسه ومحبته لنفسه أو ذاته قاصرة عليه وتبقى هذه المحبة محصورة ومغلقة على الواحد، لكن الواحد الذي يحب آخر ويعلن محبته للآخر هو قادر على أن يدعو الآخرين إلى هذه المحبة؛ لأن هذه المحبة ليست معلنة فقط، بل هي شركة، والشركة مفتوحة للآخرين. لقد قابل البعض من زوار ديرنا هذا الكلام بسخرية، والأب الحكيم أرسانيوس ابتسم في وداعةٍ وقال لهم إن الأنانية والرغبة في حياة

العبودية لله هي التي تمنع هؤلاء من قبول دعوة «الشركة» ومَن يسخر من الإنجيل لا ينال بركة الإنجيل.

أمَّا نحن – كما يقول الإنجيلي – «فشركتنا مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح»(١يو١ :٣). وعندما قال الإنجيلي: «نكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً» (١يو ١: ٤)، فالفرح لا يكمل إلاَّ بالشركة، والشركة لا تكون بين اثنين فقط، لأن شركة المحبة بين اثنين هي أقل من شركة المحبة بين ثلاثة.

٣٤– انظروا أيها الأخوة: **نحن لا نملك أن نشرح الثالوث للآخرين شرحاً عقلياً وفلسفياً؛ لأننا لا نملك أن نبرر حقيقة الذات الإلهية؛** لأن الله هو مبرر وجودنا. أمَّا نحن، فلا نملك أن نبرر خالقنا، ولكن على قدر ما نملك من رؤية إنسانية مستنيرة بالروح القدس أقول لكم - أيها الأحباء – إن شركة الثلاثة كاملة لأنها تتحرك نحونا وتبقى كاملة. فالثلاثة، أي الآب المصدر أو الينبوع، والابن الإعلان، والروح القدس العطية، هؤلاء هم حركة الشركة الإلهية، وهي حركة الوحدة؛ لأن الله متحرك دائماً بقوة المحبة التي تميز ذاته أو جوهره. فهو يتحرك نحونا حركة ذاتية لكي يسكب محبته في الابن معلنةً إعلاناً كاملاً في تجسده وصلبه وقيامته، ولكي يجعل هذه المحبة عطية أبدية تنسكب فينا بالروح القدس. فالمحبة تنبع من الآب وتتجه نحو الابن حركة داخلية في الجوهر الإلهي وتعلن عن أمرين:

أولاً: الآخر المساوي الذي هو ثمرة جوهر الآب.

ثانياً: الآخر المحبوب محبة كاملة.

لأن المحبوب المساوي هو وحده القادر على أن يحب محبة كاملة، محبة المتساوين في كل شيء. عند ذلك يصبح العطاء كاملاً لأن انسكاب كيان أو أُقنوم الآب – بحسب عبارة الرب نفسه: «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤: ١٠) – تجعل الانسكاب كاملاً في آخر هو كامل، وهو بسبب المساواة يسكب كيانه في الآب انسكاباً أزلياً دائماً لا ينقطع.

وماذا عن الروح القدس؟ هذا سؤال الفضول العقلي، ولكن يجب أن نجيب عليه لكي نُسكِت غباوة الفضول. عندما يسكب الآب كيانه في الابن، ويسكب الابن كيانه في الآب، فإن علاقة الاثنين لا تبقى مغلقة على الاثنين؛ لأن الأُبوة مصدر وينبوع، والبنوة إعلان عن الآخر، وهذا يحصر المحبة الإلهية في ثنائية قابلة للانغلاق، ولكن ولأن الثالوث كامل ولأن الطبيعة الإلهية كاملة، يعطي الآب من جوهره الروح القدس الذي من عند الآب ينبثق –كما قال المخلص– (يو ١٥: ٢٦) لكي يكون روح الآب، ولكي يكون الثالث الذي يكمل الدائرة. وهذا يعني بالنسبة لنا أن الآخر الثالث هو العطية، وهو الاسم الأزلي للروح القدس. ولذلك يعطي الآب الروح القدس للابن لكي يفتح الأحضان الأبوية لآخر ليس هو الابن، بل هو الروح الذي يشترك مع الآب والابن في الاسم «الروح»، ومع الآب والابن في صفته الأُقنومية «القدس»، لأنه هو الذي يكمل الأُبوة بالعطية، ويثبِّت الإعلان بالعطية حسبما نرى في الأسفار المقدسة، وحسبما نعرف من تدبير الخلاص. ولا يقصد بالكمال هنا أن هناك نقصاً يستدعي وجود من يكمله، بل هو كمال الحركة الإلهية الذي رأيناه في تدبير الخلاص؛ لأن الروح القدس روح الرب كان يعمل في العهد القديم قبل تجسد مخلصنا ربنا يسوع المسيح لكي يرتب لمجيئه بالجسد. وعندما جاء الابن وتجسد، جاء من الروح القدس الذي أعطاه الناسوت من القديسة مريم والدة الإله، وأعطاه من عند الآب لأنه روح الآب الذي منه ينبثق.

وسر انبثاق الروح القدس يعلو على إدراكنا، ولكنه معلن في الأسفار المقدسة، لأن الآب أرسل روحه للأنبياء معلنا مجيء الابن بالجسد. ولما جاء الابن وتجسد، أعطانا الروح القدس لكي نقبله ونقبل تعليم الأنبياء. هكذا جاء الروح معلماً ومرشداً. ثم جاء الروح ساكناً في الابن بعد أن أعطاه جسده ونفسه من والدة الإله ومن عند الآب، فجاء إلينا يوم العنصرة حاملاً إلينا حياة الابن والفداء الذي أكمله بموته وقيامته، وحاملاً إلينا قوة الوجود في أحضان الآب السماوي، أي في دائرة الخلاص الإلهي. ومن جوهر اللاهوت حيث يولد الابن وينبثق الروح وفيه حيث استقر ناسوت ربنا يسوع المسيح بسبب اتحاده بأُقنوم الابن، أي من

سر تمايز الآب عن الابن، وفيه سكن ناسوت الابن في وحدة الجوهر وفي التمايز حيث يشترك الآب والابن في الحياة الواحدة وحيث تولد البنوة، أي أُقنوم الابن.

وأحذِّر الأخوة من أن يظنوا أننا نتكلم عن نقطةٍ أو عن جزء أو عن مكان محدد، فهذه كلها رغم أنها قد تساعدنا على الفهم، إلاَّ أنها خطرة جداً؛ لأنها تحصر طبيعة الله في مقولات وصور مادية لا تليق بالطبيعة البسيطة غير المركبة؛ لأننا هنا نقول إن أقرب الأشياء هي التقاء الفكر بالعواطف والمشاعر حيث لا يمكن الفصل بينها بالمرة، ومع أهمية هذا التشبيه إلاَّ أنه لا ينطبق على الله بالمرة.

٣٥– هكذا استقر الابن المتجسد في أحضان الآب متمايزاً عن الآب، معلِناً لنا هذا التمايز ليس بالأقوال فقط، بل بالحياة التي عاشها بيننا والتي يحياها فينا الآن. ومن التمايز وفيه حيث استقر الابن المتجسد، وحيث أدخل الطبيعة الإنسانية في بحر اللاهوت – حسب تشبيه اللفظ – صار الروح القدس الذي هو من الآب، هو واهب هذا الناسوت للابن من لحم ودم القديسة مريم، فصار تجسد الابن إعلاناً عن أُبوة الآب لنا وإعلاناً عن بنوتنا. والاكتفاء بذلك يحرمنا من ثالوثية المحبة حيث الحب والمحبوب والمحبة، وحيث محبة المحب ومحبة المحبوب واحدة بسبب تساوي الأقانيم وبسبب عدم انقسام المحبة كما ذكرنا. هنا ندرك أن كمال المحبة هي بالمساواة والشركة والتمايز. والمساواة هي مساواة في كل الصفات الإلهية. والشركة هي عطاء كامل يسكب فيه كل أُقنوم كيانه في الآخر. والتمايز هو اختلاف كل أُقنوم بصفة أُقنومية تجعله كائناً خاصاً معيناً في الذات الإلهية يحفظ لنفسه الصفة الأُقنومية التي تجعله متمايزاً وواحداً مع الأُقنومين الآخرين؛ لأنه يشترك في كل صفات جوهر اللاهوت.

يستقر الروح القدس في الابن كما يستقر الابن في الآب، والآب في الابن والروح القدس؛ لأن كل أُقنوم يحل حلولاً كاملاً في الآخر، **وعندما تجسد الابن سكن في ناسوته الآب والروح القدس بسبب وحدة جوهر اللاهوت، ومع ذلك فالذي تجسد هو الابن؛ لأن تمايز الابن عن الآب يجعل التجسد قاصراً على الابن رغم وحدة جوهر الآب والابن والروح القدس.**

لقد وُلِدَ من العذراء لكي يؤسس ويثبِّت ولادتنا الجديدة فيه وبه، ولذلك نحن لا نولد من جوهر الآب كولادة الابن الأزلية من الآب، ولكننا نولد كولادة ناسوت الابن من الروح القدس وبواسطة الابن وفيه، وهي الولادة الجديدة التي من الله حسب كلمات الإنجيلي (يو ١: ١٣، ١٤) ولادة روحية حقيقية تنقل كياننا المخلوق من العدم إلى كيان جديد مخلوق بالروح القدس ومتحد بأُقنوم الابن بسبب اتحاده بطبعنا، وهكذا تم القول بأننا «من لحمه وعظامه» (أف ٥: ٣٠)، وبأننا واحد معه ومع الآب وحدة روحية لا يقوى عليها الموت على مثال وحدة جوهر الثالوث القدوس ومستمدة من الثالوث وكائنة في الثالوث.

٣٦- هكذا تنسكب محبة الثالوث متجهة إلينا في الابن الذي يحمل طبيعتنا وبالروح الذي جاء بهذه الطبيعة من والدة الإله حاملةً إيانا إلى أحضان الآب الذي منه الابن والروح القدس؛ لأن وحدتنا ليست جسدية، بل روحية. لأننا نأخذ من الآب البداية أي الرأس، ومن الابن الصورة أي حدود الطبيعة، ومن الروح القدس التقديس أي الثبات والبقاء في صورة الابن لأن الروح القدس هو الذي «يثبتنا في المسيح» (٢كور ١: ٢١) حسب كلمات التقوى الأرثوذكسية. ومن هذا ندرك أن الثالوث هو إعلان عن الحياة الجديدة، فهي معلنة فيه ليس فقط كمصدر وينبوع، بل أيضاً كبقاء وثبات أبدي؛ لأن الآب هو رأس (ⲁⲣⲭⲏ) كل الأشياء، والابن هو حدود كل الطبائع، فهو الكلمة الخالق الذي رسم صورة كل كائن وحدود طبيعته، والروح القدس هو الذي يقدس إذ يمنح الحياة الثابتة في الصلاح ويعطيها البقاء حسب دعوتها وصورتها في الابن.

وعندما نقول إن الآب هو الرأس، فهو لا يعطي بدون الابن والروح القدس. وعندما نقول إن الابن رَسَمَ أي كوَّن صورة (أي كيان) كل كائن ورَسَمَ أي كوَّن حدود طبيعته، فقد حدد الابن له المجد الآتي:

أولاً: صلة كل كائن بالآب والروح القدس.

ثانياً: اعتماد كل كائن على الآخر، أي مكانه في شركة الخليقة مثل اعتماد النبات على الشمس والهواء، واعتماد الإنسان على عناصر الكون.

هذه الشركة الزمانية هي مقدمة الشركة الأبدية والمدرسة الأولى التي نتعلم فيها الشركة الأبدية.

أمَّا عن صلة كل كائن بالآب، فقد رسم الابن ثلاثة مبادئ هامة، وهي القوى التي تمسك بالكون كله وتحفظه من العودة إلى العدم، بل تُبقي عليه. هذه المبادئ هي:

أولاً: كل كائن هو من الله الآب بشكلٍ موازٍ لبنوة الابن، أي صورة مخلوقة لما هو أبدي في جوهر الله. (والتحديد المقصود هنا هو) أن كل كائن مخلوق مولود، أي مخلوق لكي ينال كيانه من الله الآب؛ لأن الآب هو رأس أو بداية كل الأشياء، لكي بعد خلقته يولد ولادة سمائية.

ثانياً: كل كائن وُهِبَ طبيعة خاصةً به تعطي له مكاناً في الخليقة وتحفظه كما ذكرنا سابقاً في شركة الخليقة، وسيد وملك الكائنات هو الإنسان حسب كلمات المزمور الثامن، هذه هي مدرسة الشركة الأولى.

ثالثاً: كل طبيعة مخلوقة تنال ثلاثة دعائم للشركة في طبيعة الله:

١- : الاستنارة الروحية العقلية بنور اللوغوس *Logos* الكلمة ابن الله.

٢- : الحرية المولودة من المحبة الفائقة، وهي عمل نعمة الروح القدس في كل مخلوق عاقل.

٣-: الانعطاف نحو الله بقوة عمل النعمة التي تعطى للإنسان مؤهلةً إياه أن ينمو بقوة نعمة الشركة متجهاً نحو غاية خلقته على صورة الله ومثاله.

هذه هي حدود الطبيعة المخلوقة، وهي ذات الحدود التي رأيناها في تجسد الابن له المجد، والتي أدركناها من خلال تجسده وصلواته الخاصة وموته المحيي على الصليب وقيامته، وهي الحدود التي أعاد له المجد خلقها من جديد مكوناً فيه أي في أُقنومه الإلهي - وباتحادٍ لا يُعبَّر عنه - الطبيعة الجديدة التي سوف تُوهب لنا من خلال شركتنا فيه بالروح القدس.

حدود الطبيعة الجديدة
المُعلنة في ربنا يسوع المسيح بتجسده،
وباتحاد الطبيعتين بغير افتراق[1]

٣٧– بتجسد الرب الوحيد أُعلنت لنا حدود الطبيعة الجديدة. **وحدُّها الأول هو الروح القدس** الذي بسبب تجسد الابن له المجد نقلنا من الأصل الأول أي العدم إلى الأصل الجديد أي الروح القدس الذي به نُولد ولادة روحية سماوية على مثال ربنا يسوع المسيح من العذراء مريم والدة الإله. هذا **الحد الأول** يعطي لنا نعمة خاصة مثلثة، فهو

أولاً: يجعل رأسنا الجديد هو روح الحياة، وهو ما تفوقت به نعمة الرب يسوع على خطية الأب الأول آدم.

ثانياً: يبيد صلتنا بالعدم، وعندما يقول الرسول إن الرب «كسر شوكة الجحيم»، فهو يعني كيف خُلِعَت هذه الشوكة من طبعنا ثم كُسِرَت تماماً. فقد خُلِعَت بالتجسد؛ لأن الشوكة هي سيادة الموت والهاوية علينا، سيادةً مردها ليس سقوط آدم فقط، بل الأصل الذي جئنا منه، وهو الذي جعل طبيعتنا قابلة للموت، ولكن الآن صار أصلنا «سمائياً» في المسيح يسوع ربنا وبقوة الروح القدس.

ثالثاً: جاءت النعمة هذه المرة من اتحاد اللاهوت بالناسوت، فصارت ثابتة في المسيح وصار مصدرها الاتحاد، وهذا هو أقوى ما يعطيه المسيح للإنسانية؛ لأن الاتحاد هو أمانة الله الابن وثباته ليس بالنعمة كآدم، بل

(١) هذا العنوان من وضع الأب صفرونيوس وليس من وضع الناشر.

بقوة ومجد اللاهوت؛ لأن النعمة التي فُقِدت كانت خاصة بسلوك الإنسان الأول ومرتبطة بمكان خلقه أي الفردوس. أمَّا النعمة الجديدة فهي من اتحاد اللاهوت بالناسوت وليست مرتبطة بمكان أو زمان؛ لأن المسيح يسوع «هو هو أمس واليوم وإلى الأبد» (عب ١٣: ٨) وثباتها ليس بحفظ الوصية، بل باتحاد اللاهوت بالناسوت.

٣٨- والحد الثاني هو نمو المعرفة والحكمة مع نمو القامة، ولم تعد المعرفة خارجية يحصل عليها العقل بالإدراك والحواس. وفروع المعرفة الثابتة في التاريخ البشري والتي نأخذها من تراثنا ومن التسليم مثل الفلسفة والعلوم والتاريخ وغيرها من فروع المعرفة، لم تكن هي وحدها هي معرفة الابن المتجسد، بل المعرفة التي وُلِدت ونمت بنمو إدراك الابن المتجسد، أي إدراكه البشري وانفتاح حواس الروح الإنسانية على الاتحاد بأُقنوم الابن، وبذلك نمت معرفة داخلية وصارت من خصائص الطبيعة الإنسانية المتأقنمة في الابن، وهي المعرفة المُعلنة لنا في الأناجيل وكتابات الآباء الرسل في الأسفار المقدسة التي تشهد لسر المسيح. وهي المعرفة التي استلمتها الكنيسة المقدسة من الآباء، لاسيما تلك المؤسسة على صخرة الإفراز والتمييز، أي الرب يسوع المسيح صخرة خلاصنا ومعلم الخليقة الجديدة أسرار اللاهوت المُعلنة لنا في الرب يسوع بالروح القدس، ومن السرائر الكنسية لا سيما سر المائدة السماوية.

٣٩- هنا يجب أن نكون على حذر؛ لأننا لا نخلص بالمعرفة، وإنما بالإيمان وبنعمة الرب. ونحن لا نُعامَل ولا ندخل الشركة على قدر معرفتنا، بل على قدر إيماننا ونمو محبتنا. وليس كمكافأة، بل كنعمة تُعطى لنا حسب إرادة وعمل الروح القدس. ومعرفتنا لما يعرفه الرب يسوع كإنسان، يدركه كل واحد منا حسب نموه الروحي.

٤٠- والحد الثالث للطبيعة الجديدة هو الحياة الأبدية. ونحن لا نُعلِّم بما تركه لنا الفلاسفة من أفكار ومبادئ تبدو موازية للإنجيل؛ لأننا نعلم علم اليقين إن الأبدي وحده هو الله «الساكن في نور لا يدنى منه» (١تيم ٦: ١٦)، والذي حسب عبارة

الرسول «له وحده عدم الموت» (١تيم ٦: ١٦). وهكذا صارت معرفتنا الجديدة معرفة بالحياة الأبدية، وهي تبدأ فينا من خلال شركتنا في الطبيعة الإلهية. هذه الشركة تجعلنا نميِّز بين المائت والزائل، الحي والدائم، بين ما يقوّي ويدعّم شركتنا مع الثالوث وما يهدم هذه الشركة. نحن لا نحتاج إلى شرح مطول يفرز المائت من الحي، والدائم من الزائل؛ لأننا نعلم علم اليقين أن الخليقةً الأولى ذاهبة إلى تحول ومجد في المسيح، ذلك التحول الذي نراه في كلمات الرب بإعادة سلطان وخضوع الخليقة للثالوث وهو العمل المشترك[١] مع الثالوث الذي أعاد الشركة بالتجسد، أي تجسد الابن، وأباد عائق الموت وفتح باب الحياة في ذاك الذي قال: «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)؛ لأن الحياة الأبدية في المسيح قد أعادت إلينا معرفة الحق بواسطة الحياة، ومعرفة الحياة بواسطة المحبة. معرفة الحق في ذاك الذي قال أنا الحياة. ومعرفة الحياة بواسطة المحبة في ذاك الذي أعلن لنا محبة الآب ودعانا إلى شركة محبته للآب وسكب علينا روح المحبة الروح القدس (رو ٥: ٥).

٤١- نحن نعرف الحق بواسطة الحياة؛ لأن الحق الذي جاء إلينا لم يكن أقوالاً تُدرس وعبارات تقال مثل الذي نسمعه من غيرنا، ولكنه الحق المتجسد، الحق الظاهر في الجسد الذي دعانا إلى حرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١)، أي حرية الاكتشاف والمعرفة من خلال الشركة. والشركة هي قوام الحياة والحياة تعاش، وعندما تعاش الحياة ندرك أن الشركة طُبِعَت في الخليقة وخُتِمَت لكي تدرك الخليقة – وفي مقدمتها الإنسان – أن أول درس (حرفياً فصل) في كتاب المعرفة الإلهية هو تأمل الخليقة؛ لأن هذا الدرس هو أقرب إلينا من معرفة جوهر الله الذي يعلو على الإدراك. وكتاب المعرفة الإلهية هو كتاب الابن الوحيد المتجسد والمصلوب لأجلنا والحي إلى الأبد والذي من خلال الشركة فيه ومعه ندرك ونعرف الأسفار القديمة والجديدة (العهدين القديم والجديد).

٤٢- ما هي الحياة الأبدية؟ يقول الرسول بولس: «ما أحياه الآن في الجسد أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم ذاته لأجلى» (غل ٢: ٢٠)، فالحياة الأبدية هي حياة ندركها الآن في الجسد ليس بواسطة ما نعرف، بل بواسطة ما نؤمن.

(١) «العمل المشترك» ترجمة موسعة للكلمة اليونانية القبطية Synergia وهو صدى لعبارة الرسول "نحن عاملون مع الله" (٢كور ٦: ١).

والفرق بين الاثنين هو فرق ضروري؛ لأننا أحيانا لا نعرف إلاَّ القليل لأننا في تحول دائم ونتوقع إعلان مجد الله في أجسادنا، بل وانعتاق الخليقة من رباطات الموت والفساد، أي تجلِّي الكون بمجد الحي القائم من الأموات ربنا يسوع المسيح، ولذلك فمعرفتنا ناقصة، ولكن اختبارنا الذي يقوده الإيمان يتقدم كل يوم. ومع أن الرسول وصف اختباره بتحوله من اليهودية إلى المسيح بقوله: «لما كنت طفلاً كطفل كنت أفطن» (١كور ١٣: ١١)، ولكن نفس الكلمة تنطبق على تقدمنا الروحي لأن الرسول قال أيضاً: «خلاصنا الآن أقرب إلينا» (رو ١٣: ١١) ليس لأن الخلاص كان بعيداً، بل لأن اختبارنا الآن أعمق بكثير من اختبارنا عندما قبلنا الإيمان.

لذلك يا أحبائي نحن لا نحدد الحياة الأبدية من خلال مقولات *categories* فلسفية؛ لأن الحياة لا يمكن تحديدها لفظياً، بل نأخذها هبةً وعطيةً من الخالق اللوغوس الابن الوحيد الذي خلقنا، ومن ثم نستطيع أن نتأملها. وعندما قال الرب: "هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ١٧: ١)، فقد حصر الرب المعرفة بالشركة، والشركة من الإيمان، والإيمان بداية الحياة لأن نفس الرسول يقول لنا شارحاً كلمات الرب: "الحياة قد أُعلنت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُعلنت لنا لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. أمَّا شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١يو ١ :٢-٣). لا يمكن تحديد الحياة لأن الحياة تسبق الكلام واللفظ، والحياة هي التي خلقت كل الكلمات، ولذلك نحن لا نبدأ بالكلمات، بل بالحياة، أي الحياة التي أُعطيت لنا لا سيما في سر الشركة، أي المائدة الإلهية. والحياة التي خلقت كل الألفاظ لا تحددها الألفاظ، بل هي تحدد الألفاظ وتعطي لها المعنى الحقيقي.

٤٣- نحن ندرك هذا من دعوة الرب وتعليمه، فقد وجَّه عقل الإنسان نحو الحياة عندما علَّمنا عن الملكوت بأمثال، أي بما نعرفه ونراه ونحسَّه، فأسس بذلك مدرسة الشركة الأولى؛ لأنه نقل إدراك الإنسان من المرئي والمنظور إلى ملكوت السموات في كل الأمثال.

ولمَّا كانت الحياة تمنع الأب من الانتقام من ابنه الذي "بدد" ثروته مع الخطاة،

فإن الحياة هي التي جعلته يعود إلى أبيه مُفضلاً أن يكون عبداً على أن يحيا في غربة عن بيت الآب.

والحياة هي التي جعلت الأب يسرع إليه ويقبله ويقيم له الوليمة.

والحياة هي التي جعلت السامري الصالح يضع الطبيعة الإنسانية التي ننتمي إليها جميعاً قبل طقوس وعوائد الشريعة، ولذلك اهتم بالجريح.

والحياة هي التي جعلت العشَّار يدرك أنه أقل الناس، فطلب الرحمة، بينما تمسك الفريسي بالشريعة وحدها فرفض الرب أن يجعله مثالاً حياً للتوبة.

والحياة هي التي تجعل الأب يعطي سمكةً لابنه.

والوقت والمناسبة لا تسمح بأن نقول أكثر من ذلك، ولكن يكفي الآن أن نرى إن الحياة هنا – حسب تعليم الرب في الأمثال – قد كوَّنت معرفة سمائية خاصة لا تُدرَك من دراسة الكتب، بل تُدرَك من الحياة؛ لأن مَن هو الذي يفشل في معرفة الغفران في مثَل المديون لسيده والذي ترك له سيده الدين الثقيل، فذهب وأمسك بأخيه يطالبه بالدين الأقل؟ ومَن هو الذي لا يدرك أن اللص اليمين لم ينل أسرار الكنيسة، ولم يتلو قانون الإيمان، ولم يكن له معرفة بالثالوث، ولكنه أدرك أول درجة في الإيمان بالمسيح فوُهِبَ مكاناً في الفردوس؟

مدرسة الشركة الأولى

٤٤– نحن ندرك ونتعلم الشركة من مكاننا في الخليقة المنظورة التي – هي رغم كل النواقص التي فيها – تعلن لنا إرادة وحكمة الخالق، ومنها نتقدم إلى مدرسة الشركة الثانية، وهي الليتورجية؛ لكي نصل إلى مدرسة الشركة الأبدية للثالوث القدوس.

٤٥– في مدرسة الشركة الأولى، الثالوث خالق. وفي مدرسة الشركة الثانية الثالوث خادم. وفي مدرسة الشركة الثالثة، الثالوث هو الشركة نفسها.

٤٦– هذه مدرسة واحدة؛ لأن الثالوث هو رب الخليقة المنظورة وغير المنظورة، ولأنه ملك السموات والأرض، ولكننا ننتقل كأطفال من المدرسة الأولى والثانية إلى المدرسة الثالثة، وهي المعرفة الكاملة.

٤٧– أمَّا المدرسة الأولى فهي شركة تعتمد على قوانين الطبيعة، وهي من الممارسة ومن المعرفة التي تكوِّنها الحياة ندرك أن كل كائن – مهما كان – لا تكمل حياته إلاَّ بحياة الكائن الآخر، وإن الشركة تجعل اعتماد الإنسان على عناصر الكون حقيقة لا يمكن تجاوزها.

وعطاء الكائنات من حيوانات ونباتات يتطلب من الإنسان:

أولاً أن يرعاها ويحرص عليها.

وثانياً أن يخدمها؛ لأننا لا نأكل الخبز إلاَّ بالعمل، أي بالزراعة والري والحصاد وطحن الحنطة ثم باقي مراحل إعداد الخبز. نحن لا نأكل بدون خدمة ورعاية النباتات والحيوانات. نحن لا نلبس إلاَّ بعد خدمة القماش. وهنا نجد دعامة الشركة في توزيع العمل ومساهمة كل واحد حسب مكانه في الشركة الزارع والتاجر والمشتري (المستهلك).

٤٨- وتقدم لنا هذه المدرسة مبادئ الشركة في صورتها المخلوقة:

أول هذه المبادئ، هو التعاون التام حسب الهدف الذي تسعى إليه الجماعة؛ لأن انعدام التعاون و»الهارمونية» التناغم يقضي على الشركة.

وثانٍ هذه المبادئ هو أن السلطان خادم، وعندما يخرج على حدود الخدمة ويتحول إلى رئاسة متسلطة تفقد الجماعة حريتها. والسلطان الخادم يجعل الكبير مسئولاً كخادم، أمَّا إذا تسلط ضاعت «الهارمونية»؛ لأن مثال الشركة هو القيثارة المتنوعة الأوتار، وتنوع الأفكار هو الذي يخلق النغمة الواحدة.

وثالث هذه المبادئ هو تمايز كل كائن عن الآخر، وهو بابٌ للحياة وهوةٌ للموت؛ لأن التمايز يجعل الاعتماد على الآخر هو مناسبة محبة؛ لأن تمايز الزارع عن التاجر ضروري لكي نأكل خبزنا. لكن تمايز الزارع عن التاجر الذي يحول واحداً ويجعله أكبر وأهم من الآخر هو هوة الموت التي تبتلع - بالصراع على الثروة والمكاسب — التناغم، وبالتسلط تجعل كل من يشترك في الشركة أقل وبلا قيمة، فتتحول الشركة إلى تسلط وإلى رئاسة شيطانية فيها الانقسام والخراب.

٤٩- هكذا، مَن تَدَرَّب في مدرسة الشركة الأولى حسب الخطية، لا يقدر أن يرى جمال المدرسة الثانية؛ لأن الخطية تجعل الزارع يفتخر على التاجر، وتجعل المدرس أهم من التلاميذ، والملك أهم من قواد الجيش، فيدخل التناحر والتزاع والتسلط وسائر الشهوات الإنسانية وتُفسد مدارك الإنسان وتجعله تلميذاً فاشلاً لا يعرف كيف يحيا في سلام ووحدةٍ مع غيره، وبذلك يفشل في الوصول إلى المدرسة الثانية. والأخطاء والخطايا التي نراها في المدرسة الأولى والتي نتعلمها بالشركة حسب خراب الخطية هي التي تجعلنا نفشل في النمو، بل ونحمل هذا الفشل وهذا التدهور إلى المدرسة الثانية، مدرسة الليتورجية.

مدرسة الليتورجية

٥٠- لقد وضعت الكنيسة الجامعة الليتورجية لكي تنقل الإنسان من الانقسام والخطية والأنانية إلى شركة الحياة، حيث يتعلم المحبة وتولد وتنمو المعرفة حسب الحياة.

وعندما استلمنا أن الليتورجية لا يمكن أن تُخدم إلاَّ بالكاهن والشماس والشعب، فإننا استلمنا عدم الانفراد بالخدمة وحصر المسئولية في الشركة. ومع أن الكاهن يمكن أن يصلِّي كل الصلوات وحده، إلاَّ أن هذه تنزع عنه صفته **كخادم**؛ لأن الخادم لا ينفرد بالخدمة، ولأن الخادم يتحول هنا بالانفراد إلى فردٍ متسلط. ولقد سألني بعض الأخوة عن سر نداء الشماس للشعب: «صلوا من أجل....»، ومع أن السبب المباشر هو «الانتباه» وضبط فكر الجماعة أثناء الصلاة حتى لا يتوه الفكر، إلاَّ أنه مع هذا السبب المباشر نرى بوضوح **أن نداء الشماس هو نداء شركة، والشركة هنا هي مسئولية الشعب في الثبات والاحتفاظ بنعمة الله**، وهي ليست أن يقول فقط «يا رب ارحم»، بل أن يسند بكل ما يملك ما يقال في الطلبات والأواشي لأننا جسد واحد. وهكذا نعرف **أن الصلاة «يا رب ارحم» هي طلب الرحمة للكل حتى لا يجعلنا الكسل وعدم الإفراز بلا مسئولية**، وبذلك ينفرط عقد الجماعة، وهو عقد جسد المسيح، أي العهد الذي قدَّمه الرب إلينا؛ لأنه «عهد جديد» لم يُكتب بالدم، بل قُدِّم في أُقنوم الكلمة القائم «بدم العهد الأبدي» (عب ١٣: ٢٠) الذي نلنا به الخلاص الأبدي. وهو عهد شركة لأننا نشترك جميعاً في دم الحمل. وعهدٌ جعل الكنيسة جسد الرب لأنه قال: «خذوا كلوا هذا جسدي خذوا اشربوا هذا دمي»، فأعطى لنا الحياة «هذا هو خبز الله النازل من فوق الواهب الحياة للعالم» (يو ٦: ٣٣).

ومن شركتنا في جسد الرب ودمه نتعلم أساس الشركة؛ لأن الواحد، أي الرب الواحد يسوع المسيح يجمع «الكل» حوله وفيه: حوله بدعوتنا للوليمة،

وفيه لأننا فيه بسبب تجسده المحيي. وهو فينا لأننا اتحدنا به في المعمودية المقدسة وثبُتنا فيه بالمسحة، وصار هو فينا في سر الشكر، سر الشركة.

في هذه المدرسة نحن نتعلم كيف نحيا حياة الشركة.

أولاً: نحن نوزِّع جسد المسيح الواحد الذي لا ينقسم إلى أجزاء، بل يوحِّد ويقدِّس المتناولين عندما يحوِّل تمايزهم إلى جسده ليصبح كل متمايز عن الآخر كعضو في جسد الرب الواحد. وبتوزيع جسد الرب الذي لا ينقسم نتعلم **أن الشركة هي قبول الحياة في المسيح مع الآخرين قبول مشاركة** تعبِّر عنه الليتورجية عندما يقول الكاهن: «اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً، نجد نصيباً وميراثاً مع جميع قديسيك الذين أرضوك منذ البدء».

فالجسد الواحد والروح الواحد هو كائنٌ واحدٌ حيٌّ؛ لأننا جسد المسيح الحي الذي يحمل في داخله بشارة القيامة وحياة المسيح غالبة الموت. ونجد مع القديسين ذات النصيب وهو الرب، وذات الميراث وهو ملكوت السموات؛ لأننا في الروح القدس الواحد الذي يمسح أعضاء المسيح نجد الوحدة التي تجعل توسلات وشفاعات القديسين الذين في «كورة الأحياء إلى الأبد، أي أورشليم السمائية» ذات دلالة؛ لأننا جميعاً ننال «كمال المسيح» الذي لا يخص فرداً واحداً دون آخر، بل يعطى لواحد من أجل الكل، من أجل الواحد الذي مات وقام من أجل الكل.

والروح القدس، الروح الواحد الذي سكن في القديسين هو الذي يجمع الكل في صلاة واحدة وتسبيح واحد وتوسلات وشفاعات واحدة. كان أحد الأخوة في «دير يسوع» لديه اشتياقات روحية سماوية وسألني مرة عن سبب ذكر القديسين في المجمع في صلاة وتسبحة نصف الليل والقداس الإلهي، وقلت له **إننا استلمنا وحدة جسد الرب في قانون الإيمان: «كنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية» وإننا بسبب الأسرار**

وبسبب حلول الروح القدس فينا نبقى واحداً نشترك في الغاية الواحدة والمصير الواحد.

ثانياً: أركان الليتورجية خمسة، وكان الآباء يقولون لنا إنها حسب عدد أصابع اليد الواحدة:

الركن الأول: اجتماع الجماعة.

الركن الثاني: الحياة الواحدة في جسد واحد وروحٍ واحد.

الركن الثالث: المواهب المتعددة من الرب الواحد والروح الواحد للأعضاءِ المتنوعة والمتمايزة التي تنال تمايزها من الروح القدس.

الركن الرابع: إن تمايزنا له شقين: الشق الأول أن الكل يأخذ الأسرار الثلاثة، أسرار الشركة العامة، أي المعمودية والمسحة والإفخارستيا. ولكن الشق الثاني هو أن البعض يتمايز في أسرار الزواج والكهنوت التي تعطى للبعض دون الآخر من أجل تأكيد خدمة الثالوث لنا وحفظ الشركة بالمواهب الروحية من الروح القدس، وبما نناله من الأسرار كل حسب مكانه المميز في جسد الرب، تمايز مصدره النعمة ومن أجل الشركة.

الركن الخامس: هو أن الوحدة هي غاية الشركة في الحياة الإلهية؛ لأنها الحياة الوحيدة السامية التي لا انقسام فيها، والتي بدون الشركة تفقد الكنيسة وحدتها وتسقط عنها صفة «الواحدة» وتنعدم منها صفة «الكاثوليكية»، بل لا نملك أن نقول أنها «مقدسة»؛ **لأن الذي يقدس الكنيسة – ليس فقط – سكنى الروح القدس فيها، بل شركة الكنيسة في قداسته**، وهو الذي يجعلها بناءً من الله لسكنى الله متماسكة بالشركة موزعةً في العالم كله كَيَدي الله.

هي واحدة؛ لأنها جسدٌ واحد.

وهي حية؛ لأنها تأخذ حياتها من المسيح الحي غالب الموت **Nικα**.

الأول A الذي منه وبه الكل. والآخر Ω الذي هو غاية الكل والمصير الواحد الذي يشترك فيه الكل، وهو مصير الرب نفسه: القيامة والجلوس عن يمين الآب في مجد نعمة التبني التي أفاضها علينا الآب في ابنه بالروح القدس، روح الآب والابن.

أركان الليتورجية الخمسة حسب ترتيب الرب[1]

٥١- الاجتماع: هو ركن الليتورجية **الأول**.

كانت دعوة الله لإبراهيم أن يكون أباً لأُمم كثيرة، وصار إبراهيم شعباً نال المواعيد، وأخذ النبوة والمملكة لكي يأتي الترتيبً الأول بالتعليم الرمزي الذي ينال كماله في المسيح. فجاء الرب يسوع وأسس بداية الشعب الجديد، أي الكنيسة وأكمل النبوة لأن إسرائيل الجديد هو «كَرمل البحر» أي شعب الكنيسة الجامعة. **والاجتماع** ليس اجتماع الشعب لسماع «التوراة»، ولا حتى لسماع الإنجيل المقدس رغم أهميته القصوى، **بل نحن نجتمع في اجتماع الطبيعتين الإلهية والإنسانية في المسيح**، فهو اجتماع وحدة مقدسة لغايةٍ واحدة، وهي المحبة الكاملة.

نحن نسمع كلمة الله ليس كمن يسمع عن خبرٍ حدث في الزمان الماضي، بل كمن يسمع ما هو حادث، ونشترك فيه، وهذا هو **الركن الثاني**، أي **الحياة الواحدة** التي لأجلها دُعينا، ولها وفيها قد اصطبغنا في صبغة المعمودية لنكون صبغةً واحدةً، جسداً واحداً، وروحاً واحداً يحفظ التعدد، أي كثرة الأعضاء، ويحفظ التمايز والتنوع بروحٍ واحد هو الروح الذي يوزع المواهب الروحية دون أن ينقسم.

تماماً كما أن جسد الرب الواحد في الإفخارستيا يوزَّع دون أن ينقسم، كذلك الروح الواحد يوزِّع المواهب دون أن ينقسم لكي يعطي لكل عضو في جسد الرب مكانته ووظيفته كرتبة سمائية مغروسة في المحبة؛ لأن التسلط ينجس الشركة.

---

(١) العنوان من وضع الأب صفرونيوس.

والركن الثالث كما ذكرنا الآن هو في حقيقة الأمر لا يختلف عن الركن الثاني؛ لأن الحياة الواحدة للجسد الواحد ليست حياة جسدانية، بل هي حياة جسدانية روحية. تأخذ كيانها المنظور من المسيح الرب المتجسد، وتأخذ مجدها وقوتها من غير المنظور أُقنوم الابن، وأُقنوم الروح القدس. وهنا نرى أن شركة الروح القدس في بناء الكنيسة وتكوين الشعب الواحد تضع الوحدة والتمايز معاً أمام الشعب الجديد لكي تحفظ بالوحدة، أي وحدة الثالوث الأساس الأبدي، ويصون التمايزُ التنوعَ؛ لأن التنوع في جوهر الله هو تنوع الأقانيم، وهو تنوع مثلث لا يزيد ولا ينقص.

واتحادنا بالثالوث لا يجعل أياً منا اُقنوماً من أقانيم اللاهوت، فقد تعلمنا من المدرسة الأولى **أن البذرة غير الجذر، والجذر غير الفروع رغم وحدة الشجرة ووحدة الحياة النباتية.** وتعلمنا أيضاً أن الرجل غير المرأة، رغم الحياة الإنسانية الواحدة؛ لأن التنوع هو كثرة ⲟⲩⲙⲏϣ والكثرة هي الأعضاء المختلفة بالموهبة، لكي بتنوع وبكثرة وباختلاف المواهب الروحية نتعلم الشركة والوحدة بالمحبة التي من الله الذي عندما يضع عضو في جسد ابنه، فإنه يضع بذلك أساس شركة المحبة داعياً إيانا أن نكون صورة سمائية للثالوث في التمايز والوحدة والمحبة، وليس في تثليث الأقانيم.

لذلك السبب، نحن نشترك في الأسرار، أي أسرار الشركة العامة، المعمودية والمسحة والإفخارستيا، لكي نشترك كلٌ حسب دعوته في سري الزواج والكهنوت. وحسب ترتيب الرب: لا يأخذ أحدٌ رتبة الخدمة إلاَّ إذا نال الأسرار الأولى، أي أسرار الانضمام للمسيح.

٥٢- أيها الأخوة الأحباء – انظروا ما أكبر سحابة الظلام التي تغطي كورة مصر؛ لأننا نسمع كل يوم أخباراً مزعجةً عن الذين يتركون بشارة الحياة تحت الهرب من دفع الجزية، أو خوفاً من التهديد بالموت، ويتركون الرب يسوع معلم الحياة الإنسانية الجديدة ومصدرها، ويتجهون إلى فراغ تسنده كلمات غريبة؛ **لأن الله الواحد غريب عن الوحدة، ولا يقترب من الخليقة التي خلقها**، بل

يتركها تحيا وتتحرك حسب القوانين التي تحدد كل طبيعة مخلوقة، وبذلك يصبح التسبيح والشكر والصلاة بشكل خاص، نابعة فقط من إدراك الإنسان غير المستنير بالروح القدس معلم الخليقة التسبيح الحقيقي عندما يشركها في قداسته.

وإذا أخذنا كل العطايا المخلوقة من ثمار الأرض – مهما كانت – فإننا إذا حُرمنا من العطايا السماوية، أغلقت علينا العطايا الأرضية حياتنا، وحُبسنا في كياننا بلا فرصةٍ لمعاينة الله أو معرفته. أمَّا نحن، وقد صار الله الواحد مصدر كل نعمة، وصاحب الدعوة إلى الشركة، ومعلن هذه الشركة في ابنه بالروح القدس، ومؤسس مدرسة الشركة التي نتعلم فيها أولاً من الخليقة **إنَّ الحياة لا يمكن أن تنمو بدون شركة**، لكي ندخل مدرسة الليتورجية؛ لكي نذوق ونمارس الشركة مستنيرةً عيوننا وقلوبنا بنور الروح القدس، ونرتفع بما تعلمناه من أركان الليتورجية الخمسة إلى مدرسة شركة الثالوث حيث ندرك من خدمة الثالوث لنا كيف نحيا في شركة معه.

٥٣– عندما ترك الأخ زينون بشارة الإنجيل، وتحوَّل إلى دعوة الغنوصيين، أو العارفين بالله، سعى الأب ديونيسيوس إلى رده إلى الإنجيل، ولكنه في عناد غريب قال إن تعليم الغنوصيين أسهل، وإن **عبادة الله الواحد** أسهل من **عبادة الله المثلث الأقانيم**. وأنتم الذين كنتم معنا في كنيسة القديس اسطفانوس الشهيد وأول الشمامسة، شهدتم الحوار الذي دار بين زينون والأب الحكيم ديونيسيوس، وسمعتم الكلام كله، **وأدركتم أن عبادة الثالوث اسم لا يليق بنا، بل خدمة الثالوث**؛ لأن الرسول لم يقل أنه (يعبد) الله (حسب لفظ الغنوصيين)، بل قال (أخدمه): "فإن الله شاهد. Ⲫϯ ⲉ̀ϯϣⲉⲙϣⲓ ⲙ̀ⲙⲟϥ ϧⲉⲛ ⲡⲁⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ الذي اخدمه بروحي في إنجيل ابنه" (رو ١: ٩). ونحن نخدم الله بما هو جديدٌ جداً في الروح القدس، لا بالعبودية للحرف القديم (راجع رو ٧: ٦) لأننا بعد أن تحررنا من عبودية الحرف، كيف نصبح من جديد عبيداً؟ وحسب لفظنا القبطي، فإننا نقول Ⲃⲱⲕ أي خادم، أمَّا كلمة عبد، فهي ذات وقع خاص على آذان الغنوصيين الذين يقبلون الطبيعة كما هي المستعبدة لناموس الحياة وحدود خلقها، ويرفضون النعمة التي ترفع الطبيعة من حدود خلقها إلى مجد المسيح؛ لأن الرسول قال: "لأنكم

أبناء، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبَّا أيها الآب، إذاً لست بعد عبداً، بل ابنا وإن كنت ابناً فوارثٌ لله بالمسيح“ (غلا ٤: ٦ - ٧).

ولأن الله لم يعطنا روح العبودية (رو ٨: ١٥)، بل أعطانا روح ابنه، أصبح لكلمة عبد معنىً خاص عند الرسول بولس وعندنا نحن الرهبان وعند المؤمنين؛ لأننا عبيدٌ ملكٌ للرب يسوع، وهذا يجعلنا أحراراً من كل قيود العالم وأفكاره ومجده الباطل، وهو العهد الذي نقرره في المعمودية المقدسة[1] لأننا ”لُبَّاس الصليب“ لسنا عبيداً؛ لأن الذي صُلِبَ لم يكن عبداً بل حراً، ووارثاً وهو الذي يعطينا ميراث الملكوت.

(١) حسب النص القبطي / اليوناني نقول قبل الاعتراف بالإيمان: «ألتصق بك أيها المسيح إلهي....».

الشركة في خدمة الثالوث[١]

٥٤– جاء الكائن في حضن الآب كل حين[٢] لكي يعطي لنا مكاناً في حضن الآب، و»خدم لنا الخلاص»[٣] نحن العصاة، وصالحنا مع الآب «وأعطانا خدمة المصالحة» (٢كور ٥: ١٨)، فصار هو مصالحنا مع الآب حيث يخدم كرئيس كهنةٍ بالروح القدس؛ لأنه يغسلنا من عار الخطية ليس بماءٍ، بل بدمه الكريم ويطهرنا بعطية الروح القدس ويقدسنا ويحولنا إلى ورثة الملكوت.

٥٥– وخدمة المصالحة شركة بيننا وبينه؛ لأن ما نأخذه نمارسه، وما نمارسه هو ما نطلبه في الصلاة، وما نطلبه في الصلاة معلنٌ بالروح القدس واهب كل العطايا السماوية.

٥٦– عندما يخدمنا ابن الله المتجسد، فإن خدمته لنا مُرتَّبةٌ حسب الترتيب السمائي الذي يجعل كل مَن ينال خدمة الرب، يخدم الرب وإخوته كما خدم الرب إخوته. وهكذا يدعونا الرب يسوع إلى شركةٍ في بنوته، وشركةٍ في قوة قيامته وآلامه لكي ننال المجد السمائي. يخدمنا لكي نخدمه ونخدم الأخوة فيه، ونخدمه في الأخوة، ولذلك قال الرب إن ما نعمله للآخرين فقد عملناه له بسبب وجودنا الإنساني فيه.

٥٧– وحسب الترتيب السمائي: الأعظم يخدم الأصغر، والأعظم هنا هو الذي تخلى عن مجده وأخلى ذاته وأخذ صورة العبد (فليبي ٢: ٧) لكي يحول العبد إلى ابن. فالترتيب السمائي يجعل الأعظم يجود بما هو عظيم فيه لكي يرفع الأصغر. وحسب كلمات التقوى الأرثوذكسية «يتصور المسيح» πχ̅c̅ ϭιμορφη (غلاطية ٤: ١٩) لنكون فيه "ورثة الله" (غلا ٤: ٧).

---

(١) هذا هو العنوان الأصلي كما ورد بالمخطوطة.

(٢) قسمة عيد الميلاد.

(٣) القداس الغريغوري.

لقد جاد الرب بحياته، وهي أعظم ما يملك. فقد سكب حياته للموت لكي يبيد الموت، فقدم ما يملك لكي يؤسس فينا ولنا ترتيب الخدمة السمائية حيث ننال جسده ودمه الإلهي، ترتيباً من أجل العطاء وتحرير أو فك رباطات الخطية، ولذلك السبب عينه تعلن الليتورجية "فك الرباطات" في صلواتها[1] إذ تطلب أن نعود إلى أشواق المحبة "ردنا يا الله إلى شوقك"، وأن يحاللنا الرب يسوع نفسه خادم المصالحة لكي بقوته الإلهية يقطع كل رباطات الخطايا.

٥٨- وحسب الترتيب السمائي يبدأ الاتحاد بالبذل، ويكمل بالشركة؛ لأن الله أعطانا كلمات الليتورجية، لكي تعلن بذل ابن الله لحياته، وبذلك ندخل خدمة الاتحاد بالثالوث ببذل الوحيد؛ لأن الكائن في حضن الآب الذي حل كل عداوة البشر[2] هو الذي يعطي جسده ودمه، وهو الذي فيه قبلنا كل شيء. والرسول بولس يقول: "ولما سُرَّ الله...أن يعلن ابنه فيَّ ⲉϭⲱⲣⲡ ⲙ̀ⲡⲉϥϣⲏⲣⲓ ⲉⲃⲟⲗ ⲛ̀ϧⲏⲧ" (غلاطية ١: ١٦) لأن الإعلان لم يكن كلاماً يقال عن الماضي أو الحاضر أو حسب تعليم الغنوصيين، بل كان شركةً وحلولاً إلهياً بدأ برؤية الرب يسوع على طريق دمشق، وكمل بمعمودية "شاول"، فصار حلول الرب هو كمال الإعلان؛ لأننا عندما نرتل في الكنيسة: "**هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له**"، **فإننا لا نتحدث فقط عن كلمة الله وحدها، بل عن المسيح حياتنا الذي نشترك في حياته؛** لأنه هو كما نقول في صلواتنا "**قيامتنا كلنا**"، فنحن لا نقوم حسب قوة حياتنا، بل نقوم قيامة الرب يسوع الحي من بين الأموات؛ لأننا لا نأخذ مجداً من ذواتنا، بل نقوم بمجد آدم الجديد "الرب يسوع" الإنسان من السماء (١كور ١٥: ٤٧).

٥٩- وخدمة الثالوث - حسب ترتيب سر الشكر - تبدأ بإعلان أصلنا الأول، أي الخليقة الأولى التي "أُخضِعَت للبُطل" (رو ٨: ٢٠) مؤكدين إننا منها وفيها، وأنها ليست غريبة عنا، ثم نشكر الله الآب على خلقتنا؛ لأننا بالشكر نسترد الطاعة الحقيقية ونقبل المصير الذي آل إلينا وهو فساد الموت وألم الخطية بسبب اغترابنا عن "فردوس النعيم". هنا نحن نقف على الأرض وما حل بها وما حل

---

(١) صلاة التحليل.

(٢) القداس الغريغوري.

بالخليقة، وهو ما نراه كل يوم ونحسه في أجسادنا وفي قلوبنا من آلام ومصائب كلها تشهد بالعطب الذي أصاب الخليقة.

٦٠- بعد ذلك نتقدم إلى ''سر التدبير''، فقد جاء الابن إلينا من عند الآب وحمل لنا فيه ينبوع الحياة، فلم يعد أصل الحياة فينا؛ لأن أحد روافد الخطية في الإنسان - كل إنسان - أنه يظن أن حياته فيه، آتية إليه من الطعام والماء والمال وما تعلّمه من حكمة. وهذا ما يؤكد ''اغتراب'' الإنسان عن الله المصدر الحقيقي للحياة. ولكن إن أضاء الروح القدس عيوننا الداخلية، أي عيون قلوبنا وعرفنا أن الله هو مصدر الحياة، بدأت شركتنا؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يغترب عن الله مصدر الحياة، بل عندما يرى ويؤمن بأن الله خالقه، فإنه يرى ويعرف إن هذه هي بداية الشركة.

وحقاً — أيها الأخوة — إن صدمة الموت تأتي لنا عندما نعرف أن حياتنا سوف تنتهي؛ لأن هذه المعرفة وذلك الشعور مصدره الحقيقي هو إيماننا بأننا نحن مصدر الحياة وليس الله خالقنا، وعندما نحس بأن وجودنا ينحل، نُصاب بالخوف والذعر، أمَّا إذا عرفنا ورأينا وجودنا وحياتنا الحقيقية غالبة الموت أي الرب يسوع المسيح ⲓⲥ ⲭⲥ ⲛⲓ ⲕⲁ الغالب، فإننا نقبل الموت بفرح. وهكذا كُتِبَ في سيرة الآباء إن بعضهم تجلى بنور الدهر الآتي وهو في طريقه إلى مجد الرب يسوع الذي أنار ظلمة الموت بقيامته وأباد قوته (أي قوة الموت) في الصليب.

٦١- وعندما نبدأ بسر التدبير حسب طقس السر العظيم، فإننا نؤكد أولاً شركتنا مع القوات السمائية ومع الشاروبيم والسيرافيم ''القيام'' حول العرش الإلهي، أي الذين نالوا نعمة الحياة من الثالوث، فصاروا - بسبب أدراك أن حياتهم ليست منهم بل من الله - ''مندهشون'' من عظمة الثالوث ويسبحون على الدوام: ''قدوس قدوس قدوس رب الجنود''. لأن نشوة التسبيح تحركها الشركة في الحياة الإلهية على المستوى السمائي الذي لا نعرف عنه إلاَّ القليل.

ونحن نسبّح الثالوث؛ لأننا بسبب نعمة المعمودية ننال التبني، ولذلك نطلب من الثالوث أن نُحسب مع القوات السمائية، وأن نشترك مع السمائيين في التسبيح.

هنا يلزمنا أن نقول إن الصلوات تدعونا إلى الشركة الإلهية مؤكِّدةً لنا ثلاثة أشياء (حرفياً ثلاث درجات):

أولاً: تؤكد لنا الصلوات وجودنا في السماء مع القوات السمائية، وهو الوجود الحقيقي والأبدي الذي سوف يصبح كاملاً في الدهر الآتي. هذا الوجود لا ندخله بالانتقال من مكان إلى مكان، بل بسبب حلول الروح القدس في الكنيسة (جسد الرب يسوع) ندخل به السموات؛ لأنه هو "الملك السمائي المعزي" الذي يفتح لنا كافة أسرار الملكوت.

ثانياً: بتجسد الرب، جمع الربُ السماء والأرض تحت رأس واحد، أي جعل وحدة السماء والأرض تحت سلطانه وتحت سيادته "دُفِعَ إليَّ كل سلطان مما في السماء وما على الأرض"، ولذلك السبب نفسه نحن في السماء مع وفي "الرأس". وعندما نسبح مع القوات السمائية، فإننا تحت قيادة وسلطان ابن الله الذي أعطانا هذه الخدمة.

ثالثاً: إننا لسنا تحت حكم الدينونة، فقد أباد الربُ الموتَ بموته، وفتح لنا باب الحياة وجعل ينبوع الحياة الذي فيه، فينا. ولذلك نحن نسبح بحياةٍ واحدة مصدرها يسوع المسيح رب الحياة وغالب الموت، ومحوِّل "العقوبة خلاصاً".

٦٢– وحتى نغلب شهوتنا في الاستقلال والابتعاد عن الله، نعيد ذكرى التدبير من تجسد الرب حتى صعوده إلى السماء؛ حتى نحفظ علامات الحياة التي غرسها الرب في الكنيسة: أولاً: ببشارة (إنجيل) الحياة. وثانياً: قدَّمها على الصليب تقدمة. وثالثاً: أعطاها لنا بقوة الحياة التي لا تموت (راجع عب ٧: ١٦)، أي بقيامته. وقد جمع الربُ هذه العناصر الثلاثة في شخصه المحيي، فصارت هي أساس خدمة كهنوته الأبدي كرأس الكنيسة وينبوع حياة الخليقة الجديدة.

٦٣– هذه هي خدمة الثالوث وسر شركتنا في الرب يسوع المسيح الذي علمنا الحياة، وعلمنا كيف نأخذها هبةً لا لكي نستقل بها، بل لكي تصبح هي قوة وبقاء الشركة؛ لأننا نقبلها بالإيمان ونتذوقها في الأسرار ونحياها كأعضاء في

الكنيسة جسد الرب يسوع الحي غالب الانقسام والخطية والموت.

٦٤– وعندما نقول إن الثالوث يخدمنا، فإننا نؤكد ثلاثة إعلانات خاصة بهذه الخدمة:

أولاً: محبة البشر التي أُعلنت بالتجسد.

ثانياً: إبادة الخطية والموت التي أُعلنت على الصليب وفي القيامة.

ثالثاً: سكنى روح التقديس الذي يسكن فينا مطهِّراً إيانا ناقلاً عن الرب يسوع المسيح حياته وقوته ومحبته الباذلة المذبوحة لكي يدخلنا شركة الحياة.

٦٥– هذه هي خدمة الحياة الجديدة عندما يغسلنا الرب من خطايانا ويطهرنا من دنس الموت ويجعل لنا شركةً فيه وفي الروح القدس. هنا يلزمنا أن نتوقف أمام أربعة أُمور ذات دلالةٍ خاصة، وهي جوهر إيماننا المسيحي الأرثوذكسي:

أولاً: إن الثالوث يخدمنا نحن البشر خدمة الأكبر للأصغر، وهو ما نراه في تجسد ابن الله وموته المحيي لأجلنا وقيامته معلناً أبدية محبته للبشر.

ثانياً: ويخدمنا الثالوث بدوام التطهير من الخطايا؛ لأنه يغسلنا من الدنس ومن كل شر وشبه الشر، ولذلك السبب عينه نطلب في صلاة التحليل أن ننال الحِل من رباطات الخطايا الإرادية وغير الإرادية، التي بمعرفة والتي بجهل، الخطية التي لا نعرفها والقابعة في القلب، والظاهرة التي نعرفها والتي لا نعرفها.

ثالثاً: إننا نُخدم دائماً، وقد وضع الرب يسوع أساس خدمته لنا بالحياة التي عاشها بيننا، فقد شُهِدَ له أنه "كان يجول يصنع خيراً ويشفي الذين تسلط عليهم إبليس" (أع ١٠: ٣٨)، وإنه كان يطلب – كراعٍ صالح – ما قد هلك ليرده. هذه الخدمة لم تنتهِ بالصعود، بل صارت بالصعودً غير محصورة في بلاد اليهودية حيث وُلِد وعاش وصُلِب وقام، بل صارت الآن غير محصورة في مكان أو زمان لأنه جعل نفسه رأس الجسد الكنيسة معطياً

إياها حياةً جديدةً فيه وبالروح القدس.

رابعاً: ونحن ننال خدمة الرب لنا في الخدم الإلهية (الليتورجية) التي تبدأ بميلادنا فيه وبه في المعمودية، ومِسحتنا فيه وبه في الميرون، وبالفداء وبالقوت السماوي الذي هو الرب نفسه، وبعد ذلك ينمو كل عضو في الجسد حسب دعوته بالتطهير في التوبة أو بمسحة المرضى أو بالاتحاد بزوجة أو زوج، أو بالدعوة السمائية لخدمة الرب في خدمة ونعمة الكهنوت.

٦٦– ونحن نذوق هذه النعمة الواحدة المعلنة لنا في أشكال كثيرة لأن كل إعلانٍ يقابل احتياج الخليقة الجديدة، وهو الاحتياج إلى:

* أصل جديد هو الرب يسوع نفسه.

* سكنى للروح القدس لكي يدوم لنا وفينا التقديس.

* حياة لا يغلبها الموت، بل هي غالبة الموت.

ونحن ننال ذلك في سر المعمودية وسر المسحة وسر الشكر العظيم، إذ ننال الميلاد الجديد ومسحة الروح القدس للتقديس والقوت السماوي للحياة.

خدمة الثالوث
في أسرار الانضمام إلى المسيح

٦٧– أيها الأخوة الأحباء، إن دعوة الرب لنا هي دعوة سمائية مصدرها الله نفسه، ومعلنةٌ بالله نفسه، ومعطاة بالله نفسه. مصدرٌ واحد، إعلانٌ واحد، عطيةٌ واحدة ونعمةٌ واحدة من الآب بالابن في الروح القدس[1].

٦٨– وعندما ننضم إلى المسيح، فإننا ننضم إلى الكنيسة جسد المسيح لكي نصبح مع الرب ومع الأخوة والأخوات جسداً واحداً، وروحاً واحداً. هنا نتعلم سر الثالوث، أي من الممارسة الحية، ومن تذوق الإعلان الإلهي، ومن معرفتنا بالرب يسوع المسيح ابن الآب الوحيد – الذي عندما نقبل فيه التبني، ونسعى فيه وبه لإدراك الأسرار الإلهية – ننال معرفة الثالوث من خلال الممارسة، أي المعرفة الحية الآتية من الشركة والتي ليست قاصرة علينا، ولا هي خاصة بفردٍ دون فرد، بل بواسطة الشركة يتم التطهير من المعرفة الذاتية النابعة من خوف الموت، أي من الداء القديم، ومن المعرفة الجسدانية، وهي ثمرة المعرفة الذاتية حيث تسود الأشكال والأحجام والرائحة على كل شيء. ومن المعرفة العامة التي تنتشر بين الأخوة والأخوات، وبعضها صحيح ويقود إلى الحياة، وبعضها ذاتي نابع من الفكر المغترب عن محبة الله، وهي خطر كبير يهدد الشركة والمعرفة معاً.

٦٩– عندما قال الإنجيلي يوحنا معلم المحبة وتلميذ رب المحبة ربنا يسوع المسيح: إن كنت لا تحب أخيك الذي تراه فكيف تدّعي أنك تحب الله الذي لا تراه، فهو بهذا قد فصل وميَّز لنا طريق معرفة الله الذي يبدأ بما هو منظور ومحسوس، ولكنه يطهِّر من الأنانية والمعرفة الجسدانية بالمحبة؛ لأن ما هو منظور

---

(١) راجع رسائل القديس أثناسيوس الرسولي إلى سرابيون عن الروح القدس، حيث وردت هذه العبارة الآبائية الهامة: «من الآب بالابن في الروح القدس».

هو قاصر وعاجز عن قيادتنا نحو الله إذا كان بلا محبة؛ لأن المحبة تُطَوِّر المعرفة. ولذلك السبب عينه نحن نُعطى معرفة الثالوث باختبار المحبة الإلهية والتي تأتي من الشركة لكي تقوي الشركة، أي تبدأ منها وتعود إليها؛ لأنه لا محبة بلا شركة ولا معرفة طاهرة بدون المحبة؛ لأننا لا نعرف شيئاً معرفةً حقيقيةً إلاَّ إذا كانت لنا محبة ترتفع فوق الشهوة، ونتقدس بالروح القدس لكي تُفتح حواس الإنسان بالتقديس، فنرى بالمحبة كل شيء رؤيةً صحيحةً كاملةً.

٧٠- والرؤية النابعة من المحبة هي معرفة نابعة من الحياة؛ لأن الإنجيلي يؤكد أننا بالمحبة قد «انتقلنا من الموت إلى الحياة، ولا نحيا في ظلمة الخطية» (١يو ٣: ١٤). فالمحبة حياة؛ لأن المحبة تعيدنا إلى المبدأ الأول الذي خلقه الله، وهو الشركة، وهو دعامة الخليقة الأولى المنظورة، وجوهر الخليقة غير المنظورة التي تولد من الأولى وتحمل معها كل تدبير الله الصالح الذي خلق في الخليقة الأولى مثل الجسد الذي يقوم لحياةٍ أبديةٍ جديداً طاهراً من الموت والفساد حياً بقوة الحي إلى الأبد، مشتركاً وواحداً مع الروح في كل خيرات الدهر الآتي.

٧١- والمحبة – كما ذكرنا – هي شركة، والشركة – كما ذكرنا أيضاً – هي حياة، والحياة تقود المعرفة؛ لأن المعرفة الحية ليست مثل المعرفة الميتة، أي تلك المعرفة التي تولد من الخطية وتحت تهديد وسيطرة الموت الذي يدفع إلى معرفة ما يخصه، وما يعطي له أكبر قدر من اللذة، ويحقق ما يجول في خياله. هذه هي المعرفة الذاتية التي تجعلنا نرى ما نريد أن نراه، ونعمى عن رؤية الباقي، بل ونسمع ما نريد أن نسمعه ونسُدُّ آذاننا عما لا نريد أن نسمعه، وهي بذلك ليست فقط ناقصة، بل هي خاطئة تحت سيطرة الخطية والداء الخفي الذي هو الموت.

٧٢- نكتفي هنا بتأكيد الفرق بين «الرئاسة» حسب الحياة والمحبة، و«الرئاسة» حسب الخطية والموت. الأولى يخدم فيها الكبير الصغير، والثانية يسود فيها القوي على الضعيف، ويخدم فيها الأقل والأصغر من هو أكبر، ولذلك تنشأ سلسلة من الرئاسات كل منها يرتفع نحو ما هو أكبر بالسلطة والقدرة، وليس بالمحبة حتى تنتهي بالواحد الأكبر. هنا نرى كيف تحولت القدرة من خدمةٍ إلى تسلطٍ. وكيف خلقت الأهواء والشهوات نظاماً كاملاً متدرجاً يعتمد على السلطة

والقدرة ويقدم نوع المعرفة التي تتلاءم مع ممارسة السلطة والقدرة بدون المحبة.

٧٣- هكذا يجلس الواحد على عرش فريد ومن تحته رئاسات وسلطات، وهذا ليس مثل الإعلان عن الثالوث خالقٍ كل الأشياء بالابن، ومُقدِّس الكل بالروح القدس. الذي تقف حوله كل الأرباب والقوات، ولكن في خدمة السر العظيم، سر البذل والخلاص الذي يخدمه الروح القدس، والذي يقدِّس قربان الكنيسة المقدَّم حسب ترتيب الرب، والذي بسبب كونه رأس الجسد يعطي لجسده (الكنيسة) حرية تقديم القربان الفائق لسر محبته الإلهية التي يقدِّم لنا فيها ذاته خبزاً سمائياً وذبيحةً روحانيةً غير دموية، فصارت بذلك «الرئاسة» للخدمة والبذل والتسبيح. وعندما نقول «رحمة السلام ذبيحة التسبيح»، فإننا نعلن ليس فقط قبولنا لرحمة الرب وسلامه «لأنه هو سلامنا» (أف ٢: ١٤)، بل لأننا بالشركة نسبِّح على ما نناله، وعندما نسبِّح ندخل إلى أعماق المحبة الإلهية التي يسكبها الروح القدس في قلوبنا (رو ٥: ٥).

٧٤- رئاسة الرب ليست رئاسة تسلطٍ، بل رئاسة محبةٍ تجعل الرب ليس فقط «البدء» ''ⲁⲣⲭⲏ'' ، بل الرأس ''ⲕⲉⲫⲁⲗⲏ''. ومع اختلاف الكلمتين، ندرك أن البدء والرأس كلاهما يحددان لنا معنى المحبة؛ لأن المحبة تبدأ بمصدرٍ، وهي من مصدرٍ هو الله الآب، وتعطى لتكون بداية، ولذلك استخدم الرسولُ كلمة ''رأس'' لأنها محددة، ولأنها إعلان ظهر في الزمان.

وتحدد كلمة ''الرأس'' معنى كلمة ''البداية''؛ لأن ما أُعلن في الزمان الحقيقي - أي الأبدية — الذي لا يتحرك حسب إدراك الإنسان للماضي والحاضر والمستقبل، بل يتحرك حسب نعمة الإعلان الإلهي، ولذلك قال الرسول إن النعمة سبقت الأزمنة الأزلية ''ⲛ̀ⲛⲓⲥⲏⲟⲩ ⲛ̀ⲉ̀ⲛⲉϩ'' (٢تيمو ١: ٩)، فقد كان يعلن أن إعلانات الله المتتابعة أُعلنت حسب ترتيب تدبير الخلاص، وأن كل ترتيب له جذر في الأزل يشمل الزمان كله ويُعلَن كاملاً عند نهاية الدهور.

وعندما تجسد الابن له المجد، أدخل الأبد في الزمان معلناً لنا أن الأيام والساعات لا تحمل في ذاتها قوة خاصة، بل تصبح الوسيلة والأداة ''ⲟⲣⲅⲁⲛⲟⲛ'' التي يعلن فيها محبته. وتصبح الرئاسة، أي رئاسة المحبة المصدر والإعلان الذي يجمع

ويضم في شركة المحبة كل ما هو للحياة ولكل من يؤمن.

هذه هي رئاسة العطاء والبذل، ولذلك هي خالية من التسلط والقهر؛ لأن المحبة لا تتسلط، والبذل الإلهي يعطي غير المستحِق الذي ينال الاستحقاق بالإيمان بصلاح الله وجُودِه الفائق، الذي يجمع حوله الخراف الضالة والمارقين والجاحدين والقتلة، معلناً صلاحه لكي تدرك – حتى القوات السمائية – فيض محبته الخاصة للخطاة. هكذا بالإنعام الإلهي وحسب الصلاح الفائق، ننال الشركة في الحياة الإلهية، لكي ننمو ونتحول إلى صورة الصالح محب البشر ربنا يسوع المسيح نفسه.

٧٥– توحيد جوهر الله هو توحيد الإنجيل، وهو التوحيد الذي يعلن وحدانية الله كمثال للشركة والمحبة، ليس لأن الله يجمع في جوهره ثلاثة آلهة – كما يظن عديمي الفهم – بل لأن الله في ثالوث، والثالوث هو التوحيد الصحيح، لأنه توحيد المحبة، أي التوحيد الذي يعلن محبةً كاملةً في الجوهر الإلهي نفسه، حيث المُحب والمحبوب والمحبةُ ليست صفات مثل القدرة والرحمة، بل أقانيم تشترك في حياةٍ واحدةٍ، ولها كيان واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة، رئاسة واحدة للآب والابن والروح القدس.

٧٦– والمحبة المتأقنمة ليست صفةً، بل الأُقنوم الذي من الأزل يحب أُقنومين وهو ثالثهما، لكي يكون محباً ومحبوباً ومحبةً، وهو ما يجعل حركة المحبة الإلهية حركة تبادلٍ حي، وشركة حيةٍ عاملةٍ تأخذ وتعطي، ليس من الخارج حيث لا تقدر كل الكائناتٍ أن تعطي الصالحَ وحده، ليس فقط لأنها خُلِقَت من العدم وهو ما يجعلها تفتقر إلى الصلاح، بل لأنها لا تملك حياتها، وكيانها هو هبة من الصالح وحده الثالوث القدوس. **لذلك يأخذ الابن بنوته من الآب، ويأخذ الروح القدس انبثاقه من الآب، ولا يأخذ الآب أبوته من الابن، ولكن بدون الابن هو ليس آباً، بل هو الآب بالابن ليس عن احتياج بل عن فيض الصلاح الواحد للثالوث.**

وعندما نقول إن الآب لا يأخذ، بل يعطي، فإننا هنا نتكلم عن الكيان الإلهي، ولكن من حيث المحبة هو يأخذ ويقبل محبة الابن ومحبة الروح القدس، محبة

واحدة لا تنقسم، وهي أيضاً محبته التي تفيض في شركة المحبة الأزلية التي فُتحت لنا بإعلانٍ إلهي، وفاضت علينا بتجسد الوحيد وحلول الروح القدس، وأبادت عوائق الموت والخطية وحولت الخلق من العدم إلى دعوة للشركة في وجود ثابت لا يتحول ولا يفسد، وهو الوجود الإلهي الذي ""يُخلِّص ما قد هلك"" (مت ١٨: ١١ – لو ١٩: ١٠) أي ذاك الذي هو قابل للانحلال، ولكنه أُعين بالنعمة الإلهية.

٧٧– الأُقنوم هو أُقنوم بالشركة، ولا يوجد في الذات الإلهية انفرادٌ أو خصوصية خارج الشركة، فليس في الله خارج أو زائد، بل هو الكمال المطلق. ولذلك، فالانفراد – وهو من خصائص الطبيعة الساقطة المستعبدة – ليس مثل تفرُّد الله بالكمال والصلاح؛ لأن الانفراد هو اختيار الكائن للابتعاد عن غيره خوفاً أو أنانيةً. ولذلك إذا شئنا أن نقارن بين الله والخليقة، أي بين كمال الذات الإلهية ونقص وضعف الخليقة، وجدنا إن ما هو غائب عند الأقانيم الإلهية، كائنٌ في الخليقة مثل الأنانية والخوف والتسلط والرئاسة بالقوة والسيادة بالسلطان. بينما في الأقانيم لا أنانية؛ لأن المحبة كاملة. ولا خوف؛ لأن الشركة بالصلاح. ولا تسلط؛ لأنه لا يوجد كبير وأعظم بين الثلاثة الآب والابن والروح القدس، ولا توجد سوى رئاسة المحبة ⲁⲣⲭⲏ حيث الرئاسة عطاءٌ، والسيادة بذلٌ، والشركة بين متساويين في الحياة وفي الجوهر؛ لأن المساواة في الجوهر والوحدانية تنفي من فكر الإنسان كل صور وخيالات فساد الخطية. لذلك السبب أُعلن الثالوث لنا؛ لكي بالإعلان عن الكمال والشركة ووحدانية الجوهر يتنقى فكر الإنسان من الفساد ويعود إلى الحياة الحقيقية التي لا فساد فيها.

٧٨– وقد أنار الثالوث ترتيب كل الخدم الإلهية (الليتورجية)؛ لأنها كلها تبدأ من دعوة الله لنا. ولا تتم الخدمة بفردٍ واحد، بل بالشركة، أي شركة الكنيسة شعب الله. كما أن الصلوات والطلبات مشتركة، وإذا كانت طلبة ""يا رب ارحم"" هي أكثر الطلبات التي يصليها الشعب، فإن اختيار أقصر الكلمات والعبارات هو ضروري من أجل انسجام[١] ووحدة الشعب في الصلاة، فالكل مشترك بسبب وحدة الجوهر، أي الكنيسة جسد المسيح.

(١) حرفياً: «هارمونية».

ولأننا نؤمن بالثالوث، لا نقبل أن ينوب شخصٌ عن شخصٍ آخر لأنه أكثر كفاءة، أو أكثر قداسة، بل لأنه مساوٍ، ولأننا نؤمن بأن التمايز هو لوحدة، وليس للتسلط أو الرئاسة. وحتى عندما نطلب شفاعة القديسين والملائكة والذين غلبوا "بدم الحمل" (رؤ ٧: ١٤، ١٢: ١١)، فإننا لا نعتقد بأن هؤلاء أقرب إلى الثالوث منا، بل هم شركاء معنا في ذات الشركة، وقد نالوا بصيرةً روحيةً أعظم لأنهم تركوا الجسد، أو لأنهم من رتبة غير المتجسدين، أي القوات الملائكية، وهؤلاء بقوة الروح القدس الذي يدبِّر الشركة الواحدة قد نالوا معرفةً روحيةً أعظم، وهي سوف تكون من نصيب كل واحد منا. وعندما قال الرب 'نه يكون فرحٌ في السماء بتوبة خاطئ واحد (لو ١٥: ٧)، فإنه أعلن لنا أحد جوانب الشركة على المستوى (حرفياً حسب رتبة) السمائي.

٧٩- وتعلمنا الخدمة الإلهية (الليتورجية) أن توزيع جسد الرب ودمه على المؤمنين يعطى حسب استحقاق الإيمان بصلاح الله، وحسب إيماننا بمحبته للخطاة؛ لأن الخطية تمزق الوحدة، والنعمة تردها، وهي تجرح الشركة والسر العظيم يشفيها؛ لأننا نأتي إلى الصلوات حاملين معنا جراحات الحياة الترابية التي نحياها، فننال الشفاء وتصحو فينا قوة النور الإلهي، أي عمل الروح القدس الذي ينير ظلمات القلوب وتشتعل فينا نار المحبة؛ لأن الرسول حذرنا قائلاً "لا تُطفئوا الروح" (١تسا ٥: ١٩).

٨٠- ومن الخِدم الإلهية (الليتورجية) تعلمنا كيف نصلي؛ لأن صلواتنا لم تعد حسب تعليم الرب من أجل نفوسنا كأفرادٍ فقط، بل كشركة. ولذلك السبب شدد الرب على ضرورة غفران الإساءة، وهو ما يجعلنا نضع "القبلة الرسولية" في بداية الخدمة (صلاة الصلح)؛ لأننا لا نأتي كأفرادٍ متباعدين، بل شعباً واحداً وقلباً واحداً حسب عبارات الروح القدس في سفر الأعمال (أع ٢: ٤٦). نحن نغفر كلٌ للآخر لكي لا يخلق الانقسام شركةً ممزقة، يسود فيها توحيدٌ مشوَّهٌ، أي سيادة فردٍ على جماعة، وتسلط رأي واحد؛ لأن هذه هي صورة للوثنية التي افتُدينا منها بقوة ربنا يسوع المسيح الذي قال لنا مؤكداً معنى كلمة الأُقنوم ومجالها الأبدي "أنا بينكم كالعبد" (راجع لو ٢٢: ٢٧)، وحذَّرنا من العظمة الكاذبة التي تسود

الأُمم والشعوب الوثنية مؤكداً أن الكبير والعظيم هو كبير وعظيم بالعطاء، وليس بالسيادة أو القهر.

٨١- حسب تعليم الرب نحن نصبح أقانيم بشرية بالشركة، وحسب الشركة ننمو. ولكن حسب الحياة الإلهية نحن لا نرى شركة تولد منها أقانيم اللاهوت، وإنما الشركة والجوهر والأقانيم هي أسماء وُضِعت للفهم، فلا توجد مسافة أو زمان أو قبل أو بعد في اللاهوت, والجوهر لم يسبق الأقانيم، و لم تسبق الأقانيم الجوهر كما أن المحبة لم تسبق الجوهر و لم يسبق الأقانيم المحبة.

هذه كلها تحذيرات ذات دلالة هامة، وخاصة بتصحيح الحياة الإنسانية التي تحيا تحت الزمان، وتتحرك حسب المسافة، وترتب كل شيء حسب أبعاد الزمان وحسب الأهمية، وفي أحيان كثيرة حسب منطق الخطية وحواس الموت القابعة في قلب الإنسان؛ لأن الكبير والأعظم هو من له قوة أكبر، والفاسد قد يستر فساده بالنفاق والتظاهر. أمَّا في الثالوث، فالمساواة بين الأقانيم هي ترياق العظمة الكاذبة، والوحدة هي شفاء انقسام الخليقة، والشركة هي الحياة الوحيدة الحقيقية.

كل هذا لا يدعونا إلى أن نتصور أن الثالوث هو اختراع عقل بشري يبحث في الكمال، ويضع للكمال صورة واحد في ثالوث، وثالوث في واحد، بل هو إعلان عن إعادة الخليقة إلى غايتها، أي الشركة ورد الحياة الميتة الخاضعة للموت والفساد إلى حياة مجيدة حية. والدليل على ذلك هو أننا لم نصل بعد إلى حياة شركة تشبه حياة الثالوث و لم نتأقنم بالمحبة إلى ذات صورة الرب المتجسد؛ لأننا لا نزال نطلب هذه الغاية ونسعى إليها لكي نكون حسب نعمة الله ونحقق في كياننا ما أعطاه لنا الرب يسوع بنعمته الغنية.

المحبة الأُقنومية وإعلان الثالوث

٨٢- يوجد فرقٌ بين المحبة والمحبة الأُقنومية؛ لأن الأولى عامة غير محددة وتعلن عند الاحتياج. أمَّا الثانية، فهي خاصة فوق حدود الكلمات، ولكنها مُعلنة دائماً في علاقة مؤسَّسة على العطاء دون أن يحدّها احتياج. الأولى تُستوعَب وتُستهلك (حرفياً تضمحل) متى اختفت الحاجة. ولكن الثانية تبقى دائماً؛ لأنها قوام وكيان الشخص (حرفياً أُقنوم)، فهي دائمة غير قابلة للتغيير؛ لأنها ليست عواطف ولا مشاعر تجيء مع المواقف والاحتياجات، بل تبقى دائماً دعامة ثابتة لا تضمحل.

٨٣- هكذا يجب أن نتصور محبة الله، الآب والابن والروح القدس حيث لا رئاسة ولا تسلط، بل وحدة جوهر لمتساويين، وشركة متساويين.

وقد أكدنا - من قبل — تمايز الأقانيم، وهو ما يجب أن نؤكده دائماً؛ لأن التمايز مثل الشركة، هو أهم ما يجب أن نؤكده عندما نتكلم عن وحدة الجوهر. وتمايز المتساويين هو ضدٌ لكل ما نعرفه عن الخطية، ولذلك أُعلن تمايز الآب والابن والروح القدس لكي يخلع جذر الخطية من حياتنا الساقطة التي تجعل التمايز مصدراً للشر — وبشكل خاص — الرئاسة والتسلط. لذلك وُضِعت المواهب الروحية لأعضاء الجسد الواحد، أي جسد المسيح؛ لكي ندرك أن الموهبة تُعطى من أجل الشركة، ولكي تدّعم الشركة.

وهنا يجب أن نؤكد أن الكنيسة هي مرآة الثالوث، نرى فيها انعكاس الحياة الإلهية، الوحدة والشركة والتمايز. وبالحياة الكنسية، ومنها نتعلم هذا الدرس الفائق الذي لا يوجد ما يماثله في الحياة الإنسانية، ولا في كل الخليقة. ولذلك السبب أسس الرب الكنيسة المقدسة وأعطاها أسم التدبير: «الجسد» أي

جسد الرب، وغَرَسَ فيها الأسرار الإلهية التي هي حياته التي يسكبها في المعمودية والميرون والإفخارستيا وخدمة الأسرار، أي سر الكهنوت، وسر تجديد الحياة بالتوبة والاعتراف، وسر اتحاد الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل، الصورة الإلهية التي تُعطى فيها نعمة الاتحاد على مثال اتحاد الرب بالكنيسة حسب كلمات معلم الأسرار القديس بولس الرسول (أف ٥: ٣٢).

وفي هذه الأسرار نجد أساسات الإيمان والحياة الحاضرة والحياة الأبدية أيضاً، وهي الأعمدة السبعة الروحية، والتي هي دعامة الحياة المسيحية؛ لأننا:

أولاً: نتحد بشبه موته وقيامته في المعمودية.

ثانياً: ننال شركة في مسحته الإلهية.

ثالثاً: نأخذه طعاماً وشراباً روحياً إلهياً في سر الشكر.

رابعاً: به نتحول من غربة وعزلة الخطية إلى الإنسان الكنائسي[1] الذي وجوده الجديد يعتمد على الانضمام للرب ولأعضاء جسده أي الكنيسة، الإنسان الجديد ⲙϥⲉⲣⲓ ⲥⲩⲟⲱⲛⲧ أي الخليقة الجديدة التي نأخذ صورتها الحية من رب الحياة يسوع المسيح، صورة التبني وليست صورة العبودية؛ لأن الذي أخذ صورة العبد مجَّدها بمجد بنوته.

خامساً: إنسان النعمة أي الخليقة الجديدة حسب نعمة الله؛ لأن النعمة تعطى لكي تجعل مصدر الحياة الجديدة ليس الإنسان، بل الله. ليس الكيان الإنساني الذي لم ينل بعد القيامة من الأموات، بل الكيان الجديد الذي أصله في المسيح وينمو حسب المسيح حياً بالروح القدس.

سادساً: يسبق الإيمان كل شيء، وكل ما ليس هو من الإيمان هو خطية، أي بعيد عن هدف الإيمان وغايته وله هدف آخر غير الإيمان، ولذلك هو غريب عن الشركة وعن أصل كل الأشياء، وعن محبة الثالوث التي يسكبها على الخليقة.

---

(١) تعبير معروف عند الآباء "ⲫ̀ⲣⲟⲩⲙⲓ ⲛⲧⲉ ϯⲉⲕ̀ⲕⲗⲏⲥⲓⲁ".

سابعاً: ولأن كل ما هو ليس من الإيمان هو بلا هدف سماوي، يرد الإيمان كل شيء إلى نعمة الله، وتردنا النعمة إلى الثالوث، ولذلك كل ما في الحياة المسيحية أصله في الثالوث، وما ليس له أصل في الثالوث، فهو مؤقت ويفنى بفناء الخليقة الأولى.

٨٤- أعلن الرب لنا هذه الأساسات السبعة، ليس فقط بكلمات التعليم، بل بحياته وموته المحيي وقيامته المجيدة وصعوده وجلوسه عن يمين الآب وانسكاب الروح القدس. وهذه هي مصدر معرفتنا بالحياة الأُقنومية وبالثالوث القدوس.

٨٥- من حياة الرب يسوع تعلَّمنا وأدركنا أُقنوم الآب، وأُقنوم الروح القدس. فقد علَّمنا الرب في أكثر من مناسبة عن الآب، وعندما اقترب من الآلام المُخلِّصة أعلن لنا عن عمل وشهادة الروح القدس الجديدة؛ لأنه لم يعد يمسح أنبياء وملوك بني إسرائيل، بل الكنيسة التي آل إليها مُلك داود بتجسد المسيح ابن داود.

٨٦- وأعلن لنا الرب جوهر الحياة الجديدة التي تكوِّن المعرفة الجديدة بالتعليم وبتجاربه على الجبل وفي البرية وعلى جناح الهيكل. فقد جُرِّب الرب يسوع في البرية لكي يستر عُري الإنسانية، ذلك العُري "الروحي" الذي أصاب الطبيعة بالعمى عندما سقط الأب الأول الذي فشل في أن يكون صورة الله، وأراد أن يكون صورةً لذاته وكيانه المخلوق من العدم. وعندما أدرك ذاته بدون الله وبدون شركة، وجد الموت وانحلال الطبيعة التي خُلِقَت من العدم، فدخل الموت في فكره وإرادته، وعرفه كاختبار ملأه بالخوف والسعي الدائم الحثيث نحو خلود ذاته. ومع الموت الذي هو "العري" الحقيقي، فَقَدَ آدم معرفة الله، أي تلك المعرفة التي تولد من الشركة ومن الاختبار والتذوق الذي يؤدي إلى معرفة حقيقية لكل ما هو مقدس؛ لأن ما هو مقدس هو حق. أمَّا المعرفة العارية، أي التي تولد وتتكون من طلب عدم الموت من الطبائع المخلوقة مثل المال والخبز والمقتنيات التي تضاف إلى كياننا الميت لكي ينمو حسب صورتنا التي خلقناها لأنفسنا، هذه المعرفة تتكون من الخوف من الموت، ومن إدراك انحلال القوى الجسدانية والروحانية للكيان الإنساني، ومن صراعنا مع الفساد الروحي قبل الانحلال الجسداني، وكل هذا نضعه

تحت اسم واحد هو المرض أو الداء الخفي، أي رغبة الإنسان الدائمة في الخلود وعجزه عن الحصول عليها وإقامة سور فكري يحمي به هذه الرغبة، والبحث عن أدوية وعلاج للقلق والخوف من المستقبل والمرض والألم، ومع هذا يستقر الغضب والأنانية وتعجرف الفكر وتحجر القلب ورذائل أخرى لا محل لها هنا.

٨٧- جاء الرب برداء المعرفة الحقيقية التي بشَّرنا به. وجاء العدو القديم "الحية" برداء الموت لكي يقدمه إلى ابن الله الحي بالآب، وهو ذات الرداء الذي يلبسه العدو القديم، ولذلك السبب قال الرسول: "إن له سلطان الموت أي إبليس" (عب ٢: ١٤). ولكي يقدم له هذا الرداء جاء أولاً بتجربة "الخبز"، أي طلب الحياة من مصدر آخر غير الله؛ لأن الطبيعة العارية من معرفة الله لا تفهم أن الله هو مصدر الحياة. ولذلك طلب عدو الحياة أن يحول الربُ الحجارةَ إلى خبز، أي أن يتعدى حدود الطبيعة المخلوقة، وهو بداية سقوط ذاك الذي كانت له صورة الله، فطلب "إلوهيةً زائفةً"، ولأن الخطية كما قال الإنجيلي هي التعدي، وهي احتقار حدود الطبائع المخلوقة، لكن ابن الله الذي لم يكن يريد حياةً ذاتيةً رغم أنه يملك هذه الحياة، و لم يريد مصدراً آخر للحياة غير الله الآب، رد بجواب الحق، أي جواب الأسفار المقدسة "أنفاس الله". وبذلك رد التجربة ورفض رداء الموت وهزم العدو بحكمة الآب وقال له: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله يحيا الإنسان".

٨٨- سلَّمنا الآباء أن الرب أخفى لاهوته عن الشيطان، وهذه حقيقة تفوق إدراك عقولنا؛ لأننا لسنا الرب المتجسد، كما أننا لسنا الشيطان، ولذلك نحن نشهد لِما أُعلِن، ولِما نتذوق ونختبر. أعلن لنا أن الكبرياء هي "عمى روحي" يصيب الحياة والفكر بشكل خاص، ولذلك لم يرَ الشيطان حقيقة تجسد ابن الله بسبب الكبرياء، و لم يفهم تواضع الرب ولا استطاع أن يراه، بل كان دائماً في فكره "الظن"؛ لأنه الأب لكل الشكوك والظنون، ولذلك قال الرسول: "هادمين الظنون وكل فكر يشمخ على معرفة المسيح" (راجع ٢كور ١٠: ٥)؛ لأن كل فكر يعلو على تجسد ابن الله هو فكر الكبرياء الذي لا يريد أن يعترف بأن "المسيح جاء في الجسد" (١ يو ٤: ٢، ٣)، وإنه هو وديع ومتواضع القلب وينادي

كل التعابى بتواضع المحبة. أمَّا العدو ''المتسلط''، و''المهلك''، فهو يعظم نفسه بالقوة، ولذلك ليس هو من التعابى، ولا هو من راغبي التوبة، ولذلك هو غير قادر على رؤية تواضع الرب.

هكذا ظن الشيطان أن الرب يسوع يحب السلطان والقوة، وجاء إليه لكي يرى ما إذا كان قادراً وهو جائع على أن يحول الحجارة إلى خبزٍ، أي أن يحيا بما له من سلطان يتعدى فيه حدود الطبائع المخلوقة.

والفرق بين تجربة الخبز وتحويل الماء خمراً في عرس قانا الجليل ظاهرٌ؛ لأن الرب لم يكن لديه سبب آخر يعلن به مجده سوى إعلان محبته واهتمامه بما يحتاجه البشر، أي أنه لم يكن في عرس قانا الجليل يطلب احتياجاً جسدياً، أو حرصاً على أن يأكل، بل كان يطلب إعلان محبته للزواج والعرس بشكل خاص لأنه خالق الجنس البشري.

٨٩- وجرَّب الشيطانُ الربَ طالباً منه أن يُظهر سلطان لاهوته، لكي يسلك حسب السلطان، وليس حسب المحبة والشركة التي تجعل للسلطان مكاناً حقيقياً في المحبة الواهبة والقابلة لكل ما يأتي مع المحبة. أمَّا الرب فقد بدأ في أن يكمِّل نسج القميص الروحي الجديد للطبيعة الجديدة، أي الحياة التي تأتي من فوق من عند الآب، والتي جاء لكي يكون هو مصدرها الثابت غير المتغيِّر، فهي لا تجيء ولا تذهب مع العواطف وتجارب الإنسان، بل هي ''الخبز الحي النازل من فوق من عند الآب والواهب الحياة للعالم'' (يو ٦: ٣٣)، ولم يحوِّل الحجارة خبزاً لأنه هو ''خبز الحياة''، وهو الواهب الوجود لكل شيء، وهو الذي قال ''من يأكلني يحيا بي'' (يو ٦: ٥٧). فقد أعطاه الآب أن يكون له حياة في ذاته (يو ٥: ٢٦)، وبذلك أعلن الرب شركته مع الآب في حياة واحدة.

وهناك في البرية بدأت ملامح المعرفة الجديدة تظهر، فهي تأتي من الحياة الخاضعة للرب، والتي بسبب مصدرها الفائق ''تأسر كل فكر'' وكل ظن يرتفع على الحياة الجديدة التي أعطاها الله والتي تكشف لنا جذور موت الخطية، وكيف تنمو هذه الجذور في حياة ''الجالسين في كورة الموت وظلاله''.

إن أول ما نلاحظه هو أن الرب ثبّت لنا أن الحياة تسبق المعرفة؛ لأننا نوجد أولاً وبعد ذلك تنمو معرفتنا. والمعرفة الذاتية التي لا تأتي من الشركة والتي تأصّلت فينا بسبب ابتعادنا عن الله تولد من صورةٍ ومثالٍ نخلقه لأنفسنا، ومن ثم تصبح هذه الصورة الذاتية هي صورتنا التي نعتقد أنها صورة حقيقية، بينما هي صورة الإنسان الذي "يحيا بالخبز وحده"، أي يبحث عن مصدرٍ للحياة غير الله.

هكذا خلقنا لأنفسنا طبيعةً ثانيةً غير تلك التي خلقها الله، ووصفها الرسول معلم التقوى الأرثوذكسية بأنها "الإنسان العتيق" الذي شاخ بالمعرفة وثبّت حياته الفاسدة الميتة بالعادات والممارسات مدافعاً عنها بالفكر والقيم ونماذج ΤΥΠΟC السلوك الذي لا يعرف الله، أي السلوك الوثني الذي لا يؤمن إلاّ بالمنظور والمحسوس.

والطبيعة الثانية القديمة، أي الآتية إلينا من الأجيال السابقة التي عاشت قبلنا، والكل وهو خاضع للموت، سقط في بئر الاستقلال بالذات والاغتراب عن الله، وهو فكر الإنسان الذي "يحيا بالخبز وحده"، ولذلك جاء العدو ليعرض على الرب هذا الخبز، ويجعله مثل آدم الأول، ولكن الرب وهو يخلق لنا الطبيعة الجديدة — ليس من العدم — بل من اللحم والدم الذي سقط في الفردوس الأول، خلق الطبيعة الجديدة من وفي الطبيعة القديمة وادخلها الفردوس الجديد "الكنيسة الجامعة".

وعندما رفض الرب مشورة الحية لم يرفض من أجل الطاعة، بل رفض من أجل المحبة التي هي الطاعة الحقيقية، أي طاعة من له شركة كاملة مع الآب الذي له حياة في ذاته وقد أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته (راجع يو 5: 26). وعبارة الرب في إنجيل القديس يوحنا "أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته" هي عبارة ذات دلالة؛ لأنها تؤكد الشركة التامة والمساواة التامة في الحياة الذاتية لابن الآب ربنا يسوع المسيح. وقد تضمن الإعلان عن هذه المساواة أساس شركتنا مع الثالوث؛ لأننا سوف نعطى حياةً في الشركة في ربنا يسوع المسيح مع فارقٍ جوهري، وهو أنها لن تكون حياة ذاتية حتى لا نقع مرةً ثانيةً في ضعف آدم ونتغرب عن الله.

٩٠- وطاعة العبودية مرفوضة تماماً في بشارة الإنجيل؛ لأنها طاعة الأسرى الذين لهم "روح العبودية"، وهي ليست مثل طاعة الذين أُعطي لهم "روح التبني".

أعطى الرب يسوع المسيح ثلاثة أشياء جديدة هي جواهر الحياة المسيحية عندما رفض أن يحيا بالخبز وحده:

أولاً: أعطى معرفةً جديدةً نابعةً من الحياة، تولد من الشركة، ممسوحة بالحياة الجديدة التي أعطاها الرب لنا.

ثانياً: أعطى طبيعةً جديدةً لا ترفض فقط مشورة الحية، بل ترفض بقوة المحبة أن تحيا خارج الشركة.

ثالثاً: هزم الرب عبودية الإنسان الأول الذي يحيا بالخبز وحده، وجعل الحياة الأرضية تقتات بالخبز السماوي؛ لأنه لم يُعطِ جسده ودمه قبل أن يهزم مشورة الشيطان ويبدد الداء القديم أي الخوف من الموت.

٩١- جاءت الحياة الجديدة في صورة ⲡⲣⲟⲥⲱⲡⲟⲛ الأُقنوم، أي الذي يحيا في شركة "إنسان الكنيسة" "إنسان الجماعة" "إنسان الشركة"، هذا الذي أُعلن في تجارب الرب في البرية، وهي التي بدأ بها "خدمة التدبير". فقد حدد الرب لنا طبيعة وشكل الأُقنوم، أي ذاك الذي لا يحيا بالخبز وحده، بل يجمع الأرض والسماء معاً، أي "الخبز وكلمة الله". ولذلك جاءت التجربتان بثبات جديد عندما رفض الرب ممالك العالم ومجده، فقد رفض السيادة على الخليقة بدون الله الآب. ولأن تجديف العدو ظاهرٌ في كلماته المملؤة كذباً وخداعاً، فهو لا يملك أن يعطي ممالك العالم ومجده، ولذلك يقول الرسول الإنجيلي الذي أحب الرب يسوع محبة نارية واتكأ على صدره: "لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم"، وأكد لنا إن شركتنا في الرب ومع الرب هي شركةُ من يرفض السيادة على الآخرين، حتى على النباتات والأشجار والزروع. وعندما نصلّي الطلبات (الأواشي)، فإننا نصلّي لدوام شركتنا مع الثالوث ونحن هنا في العالم حتى لا نسقط في وهم ذاك الذي يظن أن له سيادة على العالم.

أمَّا طلب الشيطان أن يسجد ابن الله له، فهو وقاحة المجدِّف الذي أحياناً يزور بعض المتوحدين بروح التجديف ويبث فيهم أفكار السوء والظنون. وعندما رفض الربُ السجودَ، فقد رفض أن يأخذ شيئاً بمقابل؛ لأن هذه هي روح التجارة وروح الشريعة وليست روح المحبة. يا لِعظم نعمة ربنا يسوع المسيح الذي يعطي بدون مقابل، ويزرع حتى في الأرض غير المستعدة (راجع مَثَل الزارع في مت ١٣: ٣ – مر ٤: ٣ – لو ٨: ٥). هكذا داس الرب تحت قدميه الحياة القديمة وخلع منها "العطاء بمقابل"، تعطي لكي تأخذ ولا تأخذ حتى تعطي؛ لأن هذه هي صورة ⲥ̀ⲙⲟⲩϯ ذاك الذي امتلأ من تجارة الأُمم (أش ٤٥: ١٤).

من هذه التجربة نعرف معنى كلمة "التعدي"، أي أحد أسماء الخطية؛ لأن الإنسان ترك الطبيعة الحقيقية واشتهى أن يكون مثل الله (تك ٣: ٥) شهوة باطلة تقودها المعرفة، ولا تقودها الحياة ولا هي من المحبة.

كان خلق الإنسان على صورة الله دعوةً لأن يصبح مثل الله، ولكن من خلال الشركة، لا باختطاف الإلوهة واختلاسها، ولذلك جاء ابن الله لكي يعلن أن الله لا يسود بالقوة، ولا يعطي ويطلب المقابل، بل "يعطي بسخاءٍ" (يع ١: ٥) وحسب صلاحه.

وهناك عندما هزم الربُ الشيطانَ أعلن لنا ثلاثة أشياء خاصة بالرئاسة والقوة والمحبة:

أولاً: إن القوة الحقيقية هي قوة المحبة، وليست قوة التسلط.

ثانياً: المحبةُ تعطي بلا مقابل.

ثالثاً: السجود هو سجود محبةٍ، وليس طلباً لمكاسب حتى ولو كانت مكاسب مقدسة.

وعلى الجبل فضح الرب دعوة "الغنوصيين"، فقد رفض ممالك العالم ومجدها، ورفض أن يكون هذا عن طريق العبادة، ورفض أن يشترك مع الشيطان في السيادة الباطلة. رفض كل ذلك لكي يغرس العبادة الحقيقية، أي تلك التي تقدَّم عن محبةٍ، وليست عبادة، بل خدمة، وليست سيادة عن طريق المكاسب.

٩٢- حفظ الرب الطبيعة الجديدة، وصورة آدم الجديد من التعدي ومن طلب المكاسب، بل طلب الآب وحده، ولذلك استطاع بحريةٍ أن يعطي لنا شركةً في بنوته، تلك الخاصة به وحده والتي لا يملك أحدٌ أن ينتزعها منه "لي سلطان أن أضعها وسلطان أن آخذها أيضاً" (يو ١٠: ١٨). وهكذا عبَّر الرب عن سلطان حياته الخاصة مؤكداً لنا أن "هذه الوصية قبلتها من أبي" (يو ١٠: ١٨).

٩٣- التعدي هو نوع من "الفضول"، من جسارة رغبة الاكتشاف، ومن الطمع، ومن رغبة التسلط والسيادة. ونحن هنا أمام طريقين:

الأول: وهو يؤدي إلى الموت، وهو الخروج عن حدود الطبيعة وتفضيل الذات على كل ما عداها.

والثاني: هو قبول حدود الطبيعة وحفظ الذات لا من أجل حفظ الذات، بل من أجل الشركة حيث الآخرين معاً في وحدةٍ يفضِّل كلٌ الآخر عن ذاته، وبذلك تنمو المحبة قوية فعالة نحو الآخرين. هكذا بنى الربُ لنا طبيعةً جديدةً تقبل المعرفة من الشركة، ولا تتعدى، بل تحيا حسب إرادة الآب لا عن قهرٍ، بل بتفضيل الآب على الخبز وعلى ممالك العالم كله.

٩٤- رفض الربُ السلطان والمجد الذي من غير الآب. رفض السجود بمقابل. ولم يكن كلام الشيطان مع الرب إلاَّ إعلاناً لما سوف يحدث لنا نحن الذين سوف ندخل متاهات الشريعة التي تحاول أن تسحب الإنجيل بشارة الحياة إلى إرضاء مطالب الشريعة وحفظها بمقابل لكي تتم المقايضة بين الله والبشر: يعبدون ويحفظون الشريعة، ويقدمون الأعمال الصالحة والصلوات والأصوام لكي ينالوا "الجنة".

هذا هو منطق الشيطان، كل شيء بمقابل. وبوجود المقابل لا يوجد مكان ولا حتى رجاء في المحبة؛ لأن المحبة تعطي بلا ثمن. هكذا صرخ أشعياء النبي وهو يتكلم عن عطية الروح القدس "هلموا أيها العطاش جميعاً إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا واشربوا وكلوا. هلموا اشربوا بلا فضة وبلا ثمن تأخذون خمراً ولبناً" (أش ٥٥: ١ س). فقد رأى فيضان ماء الحياة، وأرضٍ كنعان الجديدة "الكنيسة الجامعة". أمَّا عدو الإنجيل فهو "عدو كل بر" (أع ١٣: ١٠) يطلب المقابل ويطلب الثمن، ولا يرضى بنعمة الله الوافرة عطية الروح القدس.

وها نحن – يا أخوتي – نسمع هذا الكلام في دعوة الغنوصيين الذين يقولون إنهم يعرفون الله بالعقل لا باستنارة الروح القدس، ويقرعون باب الملكوت بالأعمال الصالحة طمعاً في مكسبٍ، وهو ما يحجب وجه الله عنهم؛ لأن "الله محبة" (١يو ٤: ٨، ١٦) **والمحبة لا تعطي بمقابل.**

٩٥– جاء العدو يطلب من الرب أن يلقي بنفسه من على جناح الهيكل، وقدَّم له الوعد الإلهي مبتوراً، فقد حذف منه التسليم المطلق والكامل لله، وحذف منه أيضاً بداية المزمور "الساكن في سترِ العلي..." (مز٩١: ١)؛ لأن مَن يسكن في حماية أو ستر العلي "يجعل الله ملجأً له"، فهو يعرف قوة الله وصلاحه، وهو لذلك لا يمتحن مواعيد الله، ولا يتحدى أمانة الله، ولا يضع الله تحت الاختبار، فكل هذه علامات عدم المحبة.

انظروا أيها الأخوة إلى علاقة المحبة بالإيمان؛ لأننا نؤمن بما نحب ونحب ما نؤمن به، ولا يمكن فصل الإيمان عن المحبة؛ لأن الإيمان هو دفة سفينة المحبة حتى نصل إلى " الميناء غير العاصف" (أوشية المسافرين)، أي ميناء الخلاص.

٩٦– لا إيمان بلا محبة إلاَّ عند الوثنيين والغنوصيين؛ لأن إيمان الوثنيين بالأوثان يجعل الله تحت سيطرة حواس الإنسان، فهو لا يحتاج في النهاية إلى إيمان. وعند الغنوصيين تسبق المعرفةُ الإيمانَ، وتحل الطاعة للشريعة محل المحبة؛ لأن الخلاص بالمعرفة يضع الجزاء أو المكافأة على قدر تقدُّم الإنسان وإخلاصه لما يعرف، وبذلك يصبح الخلاص هو قدرة الإنسان على التقدم نحو المكافأة.

أمَّا دعوة الغنوصيين بأن الأعمال الصالحة تغفر الخطايا، فهي دعوة فاسدة؛ لأنها لا تضع أمام الإنسان الصلاح كطريق للحياة، بل الصلاح والخير كمكافأة، وبذلك يفقد الإنسان رؤيته للخير.

وإذا قالت أسفار الحكمة بأن الصدقة وأعمال الخير تغفر الخطايا، فهي تؤكد أن الغفران هو شفاء وتطهير؛ لأن مَن يعطي خبزاً للجائع يطهِّر ذاته من محبة الاقتناء ويذوق فرح الشركة.

وعندما نقول إن الإيمان يسبق المحبة، وإنه لا إيمان بلا محبة، فإننا نؤكد أن الإيمان

طريقٌ مفتوح لتذوُّق واختبار الشركة. ومِن هنا جاء التعليم عن الأسرار، وعن "سر الأسرار" الثالوث القدوس الذي يُكشف هنا في هذه الحياة وفي الحياة الآتية.

أمَّا عبارة "الله واحد"، فهي عبارة زمانية، خاصة بالزمان الحاضر تنفي خطأ الشرك وتعدُد الآلهة، وتقف عند حدود الزمان الحاضر، ليس لها ولا فيها وعدٌ بإعلان الله عن نفسه، ولا تشير من طرف بعيد أو قريب إلى شركة أو اتحاد بالله.

٩٧- المحبة الأُقنومية، محبة كاملة؛ لأنها ليست صفة تُكسب أو تضاف إلى الأُقنوم، بل هي جوهر وقوام الأُقنوم، وليس خطأٌ أن نقول إنها الأُقنوم نفسه (أي الشخص) في كماله المطلق؛ لأن المحبة ليست تعريفاً يضاف إلى الكيان أو الوجود، ولا هي شيئاً يُكتسب، بل هي الحياة الأُقنومية نفسها.

والكمال هنا هو كمال الحياة التي تشترك مع حياة مماثلة ومساوية لها مساواة تامة حسب تعليم المجمع العظيم (نيقية ٣٢٥م) بأن الابن واحدٌ مع الآب في الجوهر، أي له ذات الحياة الأبدية، ومع ذلك هو متمايز عنه. ويكمل التمايز بتمايز الروح القدس عن الآب والابن؛ لأن ذلك التمايز المثلث ينفي المحبة الثنائية عن الثالوث؛ لأنها محبة مغلقة بعلاقة ثنائية تستوعب الآخر، لكن هنا في الثالوث يظل الآخر هو الآب والابن، أي اثنين بالنسبة للروح القدس. ويظل الآخر هو الآب والروح القدس بالنسبة للابن. ويظل الآخر هو الابن والروح القدس بالنسبة للآب (أي أن الثنائية هي في آخر وآخر "اثنان"). وبذلك تصبح المحبة حركة ثلاثية من واحد إلى اثنين، ومن اثنين إلى واحد مؤكدة لنا أنها حركة حرة، وحركة أقانيم وليست طبيعة تفرض قوانين حركتها على الأقانيم كما هو معروف لنا عن الطبائع المخلوقة.

٩٨- وكمال المحبة الأُقنومية في حريتها وفي عطائها الكامل واتحادها بالآخرَين (اثنين) وقبول الآخرَين؛ لأن الروح القدس يستقر في الآب والابن، كما أن الآب يستقر في الابن والروح القدس — مع ملاحظة عدم كمال ودقة كلمة يستقر — لأن الثلاثة واحد، وهي وحدانية داخلية لا تُفرض من الخارج، ولا تأتي من مصدرٍ آخر غير الحياة الإلهية التي هي جوهر الله الذي يعلو على الإدراك.

٩٩– هكذا أعطانا الإيمان أن نفحص – بدقةٍ بشريةٍ – عن حياة الله نفسه، وهي الحياة التي سُكِبَت في التاريخ والزمان والبشر؛ لأنها أُعلنت في العهد القديم في الكتابات النبوية، ثم أُعلنت في العهد الجديد بتجسد ابن الله، وأُعطيت لنا بحلول وسكنى الروح القدس فينا حاملاً معه – إذا جاز هذا التعبير – الآب والابن. فقد أعطانا الآبُ الابنَ. وأعطانا الابنُ الروحَ القدس. وأعطانا الروحُ القدس الآبَ والابن. وعندما سأل واحدٌ من الموحِّدين الآب الكبير ديونيسيوس: لماذا لا نكتفي بالآب وحده، أو بالآب والابن، **لماذا ثلاثة؟ أجاب المعلم الحكيم بأن الآب وحده ينفي عطية البنوة؛ لأن البنوة أُعطيت بالابن. والابن وحده ينفي عطية الروح القدس، والروح القدس وحده ينفي أُبوة الله للإنسانية.**

إن مشكلة الموحِّدين هي أنهم يطلبون وحدةً مع الله حسب تصورات قلوبهم وخيالهم الجامح، ولذلك أخذوا من الآداب القديمة صور العشق والحب وحولوها إلى الله في أشعارٍ وأغانٍ لا تعلن شيئاً عن الله، بل تعلن الأشواق الحقيقية للإنسان ورغبته في التألُّه؛ لأن من يتحد بالله يأخذ من الحياة الإلهية ما يجعله إلهاً. **ولكن تألُّه الإنسان بدون التجسد والصلب والقيامة وسكنى الروح القدس مستحيلٌ؛ لأن التجسد أدخل الإنسانيةَ في الشركة. والصلب رفع حاجز الموت. والقيامة أعطت خلود الإنسان خلوداً كاملاً. وسكنى الروح القدس أسست عطايا الله – ليس على قدرة الإنسان من الاقتراب من الله – بل حسب جود الله وصلاحه ورغبته في أن يُشرك الإنسان في حياته الثالوثية.**

الهدف أو الغاية التي تحدد المعرفة

١٠٠- من الصعب علينا أن ندرك من أول وهلةٍ أنَّ الغاية التي نسعى إليها تحدد نوع ودور المعرفة. فمَن يريد أن يعبر نهر النيل يبحث عن وسيلةٍ لكي يعبر بها النهر. ومن يريد أن يتسلق جبل «أنصنا» لا يفكر في السباحة ولا يفتش عن قارب. **هكذا من يطلب الإله الواحد لا يفكر في الشركة ولا يطلبها، ولكن من يؤمن بالواحد في الثالوث والثالوث في الواحد، يجد الغاية التي تحدد له طريق المعرفة،** وهو طريق يميزه:

أولاً: التجرد من الإفراط في محبة الذات؛ لأن الإفراط في محبة الذات يخلق المعرفة التي تنكر الآخرين، بل وتحارب الشركة.

ثانياً: الاستناد على شركة المحبة كقاعدة السلوك الصحيح؛ لأن الشركة خبرة وتذوُّق، والتجرد من الإفراط في محبة الذات بسبب محبة الآخرين يقود المعرفة نحو البحث عن ترك ما يعطل الشركة وما يقويها.

ثالثاً: التماس الغاية الواضحة - وهي التشبُّه بالثالوث — هو ما نتعلمه من الابن المتجسد، فقد تشبَّه بالآب وبالروح القدس — ليس بالكلام — بل بالأعمال التي تؤكد الشركة والوحدة والمحبة الواحدة. **فقد أعلن لنا الابن المحبةَ الحقيقية للذات عندما ترك الإعلان عن نفسه للروح القدس. وهو ما فعله الآب نفسه إذ أعلنه الابن في ذاته «الذي رآني فقد رأى الآب»** (يو ١٤: ٩)، **وترك الروح القدس الإعلان عن نفسه للكنيسة، فهي «جسد المسيح الواحد» الذي يعلن «الروح الواحد» بواسطة المواهب المتعددة. ولو كان الابن المتجسد مفرطاً في محبته لذاته لعجز عن أن يقدم نفسه «قرباناً وذبيحة» محبةً.**

١٠١– وبتجسد الابن أعلن الابن قاعدة الشركة الأساسية التي لا يمكن لمن يريد أن يشترك في الثالوث أن يتجاهلها، فقد «صار مثلنا في كل شيء». وعندما أضاف التسليمُ: «ما خلا الخطيةَ وحدها»، وصارت هذه الكلمات المقدسة تسبحة من تسابيح الكنيسة الجامعة، فقد أسست في صلواتها هذه الحقيقة الباهرة، وهي أنه لا محبة حقيقية إلاَّ «بقربانٍ واحد»، واحدٍ في النوع، وواحدٍ في غايته، وواحدٍ لا يتغير وهو «قربان الصليب»؛ لأن ما عدا ذلك هو خطية، وهو ثمرة الإفراط في محبة الذات. ولذلك جاء الابن معلناً لنا فداء الذات بالصليب؛ لأن الصليب وسيلة عبور بحر العالم المظلم[1] القابع في قلب الإنسان؛ لأن المحبة حياة، والحياة نور كما قال الإنجيلي يوحنا، وعندما تغيب المحبة، فإن القوات السمائية تعجز عن أن تقدم ما يقنع قلب الإنسان بحقيقة الشركة.

١٠٢– جاء الابن ربنا يسوع المسيح معلناً لنا في حياته نفسها وفي كلمات التعليم الغاية العظمى، وهي الشركة في الثالوث، الشركة التي تغرس في الإنسان معرفة خاصة، وهي لا تبدأ بالفضول ولا بالإقدام، بل بترك الفضول بواسطة الإيمان وبتواضع المحبة وبقبول التعليم واختباره بالصلاة وبالشركة في الأسرار المحيية التي تقربنا وتشركنا في حياة الابن بالروح القدس؛ لأننا نقترب من الابن أولاً بالصلاة التي يدعونا إليها الإيمان. وعندما نشترك معاً في إعداد وتقديم الصعيدة ⲑⲩⲥⲓⲁ التي تقدَّم على مذبح الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس، فإننا عندما نقدم الخبز والخمر ندخل الشركة "عقلياً". وعندما "تُرفع" ذبيحة التسبيح نشترك "عقلياً". وعندما نتناول السر المحيي تتحد أرواحنا وأجسادنا وتصبح واحداً مع الواحد في الثالوث.

لقد وضع الرب يسوع المسيح أساس هذه الخدمة التي **يخدمها لنا وفينا بالروح القدس**؛ لأننا نأتي إلى هيكل الله الحي في الكنيسة حاملين معنا التقدِمة ⲡⲣⲟⲥⲫⲟⲣⲁ لكي تتحد إراداتنا ونياتنا وتصبح واحدة، ونقدم القربان بالإيمان وبالمحبة الذي يقدس كل نقائص شركتنا، ويعطي لنا التقديم نعمة الشركة؛ لأن ربنا يسوع المسيح رتب هذه الخدمة السماوية بقوله: "هذا اصنعوه"، فأسس

(١) راجع عظة القديس أثناسيوس الرسولي في قراءات البصخة المقدسة: «يعلموننا في الكتب المقدسة».

سر الاقتراب من ذبيحة محبته معلناً ضرورة قيام النية واستعداد القلب للدخول في الخدمة.

وبعد ذلك يأتي **استدعاء الروح القدس** – ليس لأنه غائب – بل لأن "نداء المحبة" مثل نداء عروس النشيد[1] يطلب عن احتياج. وبإقرار فقرنا ننال عطية الروح القدس، ومع أنه فينا وبه اعتمدنا وخُتمنا، **لكنه ليس تحت سلطاننا وإرادتنا؛** لأنه الروح الرب المحيي. ونحن نطلبه لأننا نحتاجه وهو فينا، لكن القلب – بالصلاة – ينتبه إلى ما فيه وما يحتاجه وما يُعطى، فالروح فينا ونحن نحتاج عطية الاستنارة دائماً، ونحتاج جسد الرب ودمه لكي نحيا به. **ومع أن التناول مرةً واحدةً يكفي، لكن انغماس الإنسان في هموم الحياة اليومية والاهتمامات وانصراف الفكر وتحوله الدائم، جعل ضرورة تقديم الذبيحة – ولو كل يوم – ضرورة لكي نقترب دائماً من ينبوع الحياة الأبدية الرب يسوع المسيح،** ولكي – بنشاط الإرادة واشتعال المحبة – نترك كل شيء من أجل الرب محب البشر؛ لأن الليتورجية هي الحياة السمائية التي لأجلها نترك كل شيء، وهي (أي الليتورجية) مدرسة جحد الذات التي لا تمارس عن صِغر قلب أو ضعف، بل عن محبة حقيقية.

---

(١) سفر نشيد الأناشيد.

خطية الغنوصيين وجهل الموحدين

١٠٣– عندما انتشرت دعوة الغنوصيين في كورة مصر وتبعها بعد ذلك دعوة الموحِّدين، سقط الناس عندنا في خطية مستترة لا يشعرون بها ولا يعرفونها. فقد وقعوا في خطية معرفة الله بالعقل الإنساني وحده؛ ولذلك وُلدت معرفةٌ عقلانيةٌ بلا حياة حوَّلت الله إلى قضية[١] فكريةٍ مغلقة تحدده كواحدٍ، وتخلع عليه ما تشاء من صفاتٍ حميدة وتنكرُ عليه «الشركة» كحياة، وتنكر عطية الشركة التي يعطيها لنا للإنسانية، وتفصل بين الله والخليقة وبشكل خاص الإنسان. ولما جاء انعدام الشركة جاء معه وساطة الشريعة بين الله والإنسان؛ لأن الشركة ترفع الإنسان من شيء إلى شخص (أُقنوم).

أمَّا الشريعة فهي عمياء لا ترى الشخص، بل ترى الرذائل وتعاقب عليها، وبذلك تحوِّل الشخص إلى مجموعة من الصفات مثل الله الذي أيضاً تحوَّل إلى مجموعة من الصفات الحسنة. أمَّا الشخص (الأُقنوم) فهو حرية ومحبة تفوق كل القواعد وتعلو على كل النصوص، هو صورة من سر الوجود الأزلي، الله الذي خلق كل الأشياء بصورته الأزلية، الكلمة الذي في الزمان تجسد من والدة الإله معلنا لنا ارتفاعنا من وحل الخطية الذي «يُشيِّء»[٢] الإنسان ويستعبده إلى صورته المخلوقة حسب النعمة والجود والصلاح.

١٠٤– وإذا فحصنا عن تدبير تجسد ابن الله، وجدنا أن المعرفة التي وضع قواعدها هي معرفةٌ نابعةٌ من الحياة ومن الشركة؛ لأن التعليم الذي أعلنه الرب من على الجبل أكمل التعليم الذي أُعلن على «جبل حوريب»، أي الكلمات

(١) قضية حسب الأصل Ⲇⲟⲅⲙⲁ.

(٢) أي يحول الإنسان إلى شيء.

العشر (الوصايا العشر)؛ لأن رقم ١٠ هو أول حرف في اسم ربنا[1] وأكمل الرب الناموس القديم عندما تحدَّث إلينا كأشخاص لا كأشياء؛ لأن الشخص يعرف أن الزنا يبدأ في القلب وبالشهوة التي تأتي إلى القلب من العينين.

١٠٥- وعندما جدد الرب معرفتنا بالله، فقد أعلن التوحيد الصحيح، أي توحيد الشركة الذي يجمع، وتوحيد المحبة الذي يحفظ تمايز الله عن الخليقة رغم وجودها وشركتها في الله؛ لأننا «به نوجد ونحيا ونتحرك» (أع ١٧: ٢٨)، ولكن وجودنا من الجود الإلهي، وحياتنا من النعمة الإلهية وحركتنا من المحبة وإلى المحبة وبالمحبة؛ لأننا لا نتحرك كما تتحرك الكائنات غير العاقلة، ولكن نتحرك جسدانياً (بيولوجياً) ونتحرك روحياً في الإنسان الباطن (١ بط ٣: ٤)، ولذلك فالجود الإلهي الذي أنعم علينا بالوجود، أنعم علينا بالنطق وبالنعمة الإلهية ووَهَبنا حياةً كصورة الله ومثاله، وبالمحبة الإلهية وَهَبنا أن نكون مثل الابن الوحيد لكي يكون هو «بِكراً بين أخوةٍ كثيرين» (رو ٨: ٢٩).

ومن الجود الإلهي جاءت اللغة والمفردات. ومن النعمة جاءت المعرفة مع الحياة. ومن المحبة وُهبنا أن نسمو باللغة من المحسوس إلى غير المحسوس وأن نرتفع إلى ما هو فوق المنظور. لذلك السبب، مع بشارة الإنجيل، جاءت معرفتنا السامية العالية والسماوية لكلمة «واحد»، فلم تعُد هذه الكلمة عاطلة وخالية من المعاني الإيجابية السامية، بل تجلَّت كما تجلَّت كلمات أخرى مثل «الجسد»، وصارت علامة ورمز للنعمة «التي نحن فيها مقيمون» (رو ٥: ٢)؛ لأننا لم نعُد نتقن الشِّرك وتعدُد الآلهة، بل صرنا نبشر بالاتحاد والشركة؛ لأن الرب أعلن في صلاته الختامية قبل الآم الصليب أننا سنكون «واحداً» كما هو والآب واحد، وختم الإعلان بقوله «فينا»؛ لأننا لسنا واحداً بقوة إرادتنا، ولا نقدر بالصلوات والسهر والنسك كما يظن الغنوصيون أن نصل إلى الله وندخل مقادس الحياة الإلهية.

ليس كل ما يطلبه الإنسان يقدر عليه، وإن كان في خياله، فهو نوع من الأماني وليس من الممكنات. أمَّا الرب يسوع الكلمة المتجسد الذي أعطانا كل ما هو ممكن بالنسبة للطبيعة البشرية أن تقبله حسب حدود وغاية خلقها، فقد أعلن

---

(١) راجع القطعة الأولى من ثيؤطوكية الأحد في التسبحة السنوية: سبقت أن دلتنا على اليوطة ! اسم الخلاص الذي ليسوع المسيح.

لنا معنى كلمة «واحد» مؤكداً نعمة الاتحاد والشركة بحياةٍ ليست مثل حياة آدم الأول، لأن تجديد الإنسانية والكون هو «انتظار» (رو ٨: ٢٢ - ٢٤) الفداء كاملاً حيث يظهر الاتحاد في مجد المسيح؛ لأننا سنكون مثله.

تطابق المعاني على الكلمات

١٠٦– لعل خطية الغنوصيين، وجهل الموحدين يظهر بصورةٍ أكمل إذا تذكرنا أن الخطية شوَّهت الكلمات والمعاني، وفصلت بين المنظور وغير المنظور، وجعلت المحسوس والمرئي وما يخضع للمُخيِّلة أعظم وأهم وأصدق من غير المنظور وغير المحسوس، ولذلك السبب – مع غيره من أسباب أخرى – جاء ابن الله لكي يعلِّم الإنسانية كيف تطابق الكلماتُ المعاني، وكيف يحيا الإنسان حياةً حقيقيةً تجعله يدرك معاني الكلمات قبل أن ينطق بالكلمات. و لم تكن هذه شريعةٌ أو قانون، بل هي حرية المحبة التي تنادي الآب: أبَّا αββα.

تكلم الرب عن الحياة، وأعطى الحياة للموتى. علَّم المحبة ومات على الصليب. أعلن المغفرة وغفر للكل، حتى لصالبيه. **جعل الحياةَ والسلوك يحددان المعاني، ولذلك لم تكن أُبوة الله لنا كلمةً تقال، بل عطيةٍ تُوهَب.** لم تكن أُبوةً (مجردةً)، بل كانت إعلاناً بالكلمة؛ لأن الآب نادى من السماء وقال: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، فقد سُر بأن يجعله الوارث والبِكر وجامع الخليقة تحت رئاسته.

١٠٧– لم يُعطَ لنا التعليم الإلهي عن الثالوث ككلام يقال بلا معنىً، أو ككلماتٍ لها معانٍ في عقل الإنسان اخترعها دون أن يكونً لها مدلول حقيقي؛ **لأن الحقِيقة هي الثالوث، وكل ما لدينا من كلمات وأفعال يُراجَع على الثالوث؛ لأن معيار الحق – كما سبق وذكرنا – هو إعلان المحبة الإلهية التي ظهرت في تجسد الابن الوحيد وموته المحيي على الصليب وقيامته المجيدة وانسكاب الروح القدس. لأن الروح القدس الذي يسكن فينا يعلن لنا الحقائق والأساسات الثابتة الواحدة التي لا تتغير، وهي الحياة الأبدية التي هي شركتنا في الله الواحد في الثالوث.**

انظروا أيها الأخوة ماذا يقول الغنوصيون وأتباعهم؟ هؤلاء يدَّعون إن الإنسانَ خالدٌ بالطبيعة، وإن الحياة الأبدية في النفس أو الروح الإنسانية، وبذلك وقعوا في ثلاثة أخطاء، هي خطايا ثقيلة وصعبة لا غفران لها؛ لأنها بلا توبةٍ، هذه الأخطاء هي:

الخطأ الأول: هو تصوُّر هؤلاء أنه يوجد خلود بدون الله، أي بدون الشركة في الله.

الخطأ الثاني: هو انحراف هؤلاء عن الحق لأنهم يدَّعون إن الموت هو موت الجسد وحده، وإن النفسَ طاهرةٌ بالطبيعة لا تموت روحياً. في حين أن الموت الروحي ليس هو الانحلال الجسداني، بل هو انقطاعُ الحياةِ عن الإنسان وبقاء الإنسان في الموت إلى الأبد. **وهنا يجب علينا أن نذكر إن الأبدية لا تضاف إلى الموت، بل الموت هو رفض الإنسان للحياة، وهو رفضٌ يجعله يحيا حسب إرادة الله دون نعمة الشركة، فليس الموت مثل الحياة. ولا انعدام الشركة مثل الشركة. وكما أن الكائنات بما فيها الشيطان تحيا بقوة وإرادة الخالق وتبقى في الوجود حسب حدود الطبيعة التي خُلِقت بها، إلاَّ أن البقاء بإرادة الله ليس مثل البقاء بالإرادة وبنعمة الشركة.**

الخطأ الثالث: هو الوهم والظن الذي يجعل هؤلاء بلا إحساسٍ روحي، ويجردهم من معرفة الله؛ **لأن معرفة الله لا تأتي من تصوُّر وخيالٍ الإنسانً، بل بإشراق النور الإلهي، نور المعرفة الحقيقية التي تزرَعُ في قلب الإنسان الشوق والحنين الدائم لخالقه. هكذا يعمل الروح القدس "الرب المحيي" في كل الخليقة، يدفعها بحنانٍ وعطف نحو الآب حاملةً وعابرةً حدودها متجليةً بالكلمة (λογος) مانحاً الكلمةُ للكل استنارةً مع شوق المحبة لكي تمجد الآب وتدركه كخالقٍ صالحٍ أتى بها من العدم إلى الحياة.**

١٠٨- وردنا على الخطأ الأول سهلٌ وميسورٌ لمن لديه حسٍ روحي، لأننا لا نقدر أن نتصور بالمرة أنه يوجد خلود بدون الله، وإن الكون بما فيه قادرٌ على البقاء إلى الأبد بدون معونة وصلاح الله؛ لأن هذا الادعاء ينزع عن الكل صفة

"المخلوق"، ويحول الكل إلى إله أو آلهة أزلية مثل الله دائمة (واجبة الوجود). ولكن انحلال الخليقة وتغيرها ينزع عنها صفة الإلوهة ويؤكد أنها "مخلوقة" من العدم.

١٠٩– أمَّا الخطأ الثاني فهو يحتاج إلى جهدٍ لكي يدرك – من يريد الحق – إن خلود النفس الإنسانية هو مثل الادعاء الأول يؤكد إلوهية النفس الإنسانية. وفصل موت الجسد الطبيعي (البيولوجي) عن موت الروح الإنسانية، يؤكد جهل هؤلاء بحقيقة الموت وانحلال قوى النفس الروحية وانقسام القلب، وهو ما نراه في صراع الروح أو النفس مع شهواتها التي لا يمكن أن تتم إلاَّ بالجسد، ولذلك أطلق عليها الرسول الحكيم والمعلم الكامل "شهوات الجسد" (١بط ٢: ١١، ٢بط ٢: ١٨)، وهي كلها رغبات عقلية صادرة عن القلب كما قال ربنا يسوع المسيح الحق المتجسد "من القلب تخرج شرور..." (مر ٧: ٢٣)؛ **لأننا ندرك أن كل الخطايا لها صور عقلية كامنة في القلب لا يمكن أن تتم بدون الجسد، أي بكل أعضاء الجسد أو ببعضها،** ولذلك سماها الرسول بولس معلم التقوى "الخطية الكامنة في جسدي" (رو ٧: ١٧، ٢٠) مؤكداً وجودها الفعلي في فكر الإنسان الذي لا يملك أن يخطئ بدون الجسد مثل الطمع والحسد والزنا والتجديف والقتل والشرور الأخرى التي سماها الرسول "ثمار الجسد" أو "أعمال الجسد"، فالموت يبدأ أولاً بالروح وينتهي بالجسد. ومن ثمار وأعمال الجسد ندرك مقدار الانحلال الذي أصاب الطبيعة الإنسانية والذي يمكن أن يُجمع "يُلخَّص" في كلمةٍ واحدة "فقدان الحياة الحقيقية".

وإصابة الإنسانية بالموت جلبت شروراً أكثر؛ لأن الدفاع عن الحياة صار هو الأساس الذي يحرك شهوات وغرور الإنسان. وماذا يمكن للغنوصيين والموحِّدين أن يقولوا لأن الأمر لم يعُد مجرد أمرٍ "عارض" دخل على الطبيعة الإنسانية، **بل حدث تحولٌ من الوجود الحقيقي الذي هو الحياة إلى وجودٍ مزيَّف هو الموت، وهو ما يجعل الشريعةُ عاجزةٌ؛ لأن حفظ الوصايا لا يعيد الحياة، بل فقط يصد قوى الانحلال ولكنه لا يمنع الموت. وعندما دب الفساد في كيان الإنسان انقسمت الحياة الإنسانية إلى روحٍ وجسد، وساد الحضارةَ الإنسانيةَ رعبٌ من الموت الطبيعي، أي موت الجسدٍ، وظن الناس – بسبب الجهل – أن**

مشكلة الإنسان هي في خلود الجسد، وأنكروا بذلك سيادة الموت على الروح قبل سيادته على الجسد.

أيها الأحباء – يا ميراث رب الحياة، ربنا يسوع المسيح – ما هو موت الروح الإنسانية؟

أولاً: هو الإصابة بالعمى الروحي، أي جهل الإنسان بخالقه. كيف فقد الإنسان معرفته بالله الحقيقي وعبد الأوثان وسجد لها؟ هذا هو أحد جوانب الموت.

ثانياً: انقسام الكيان الإنساني إلى جسدٍ وروح؛ لأننا لم نعُد كياناً واحداً، بل بسبب الخطية فقدنا تلك الوحدة، وصار موت الجسد ظاهراً وموت الروح مستتراً.

ثالثاً: انعدام انسجام وتناسق القوى الروحية، وهو ما نراه في صراع الفكر مع الإرادة ومع رغباتٍ مستترةٍ كامنةٍ في القلب غير النقي، وصراع الخيال في حالات الخوف والمحاربات الروحية مع القلب والإرادة.

وبعدُ، ماذا يمكن أن يقال سوى إننا لا نملك أن نعود إلى حياةٍ متناسقةٍ متناغمةٍ واحدةٍ إن لم يُسرع الرب ويعطي لنا نعمة الحياة.

١١٠– هل يعرف الإنسانُ اللهَ بالعقل وحده، أم بالشريعة والعقل معاً، أم أنه يحتاج إلى نور الروح القدس لكي يعرف خالقه؟

حاول الإنسان أن يعرف خالقه **بالعقل**، فوقع في ثلاثة أخطاءٍ:

أولاً: صوَّر الأوثان وعبدها.

ثانياً: أضاف إلى الله صفات بشرية محضة، وجعل الله إنساناً، فقط يملك كل صفات الإنسان بشكل غير محدد.

ثالثاً: جعل نفسه مصدر الحق، فأنكر أنه صورة الله ومثاله.

وعندما أراد أن يعرف الله **بالشريعة** عاد إلى صورته الإنسانية التي تَصَوَّر أنها

الله، وجعل الله مقيداً بأحكام الشريعة مثل قضاة الأرض والحكام والملوك، ونفى عنه الصلاح وأنكر عليه عطية الشركة، وقيده بكل قيود الشريعة، وأنكر عليه بذلك المحبة التي هي سبب خلقنا.

١١١- نحن لا ننكر دور المعرفة في حياتنا الروحية، **ولكن المعرفةَ الطبيعية غير المستنيرة بالروح القدس هي إحاطةُ الإنسان بكيانه ومعرفته بذاته، وتحوُّل هذه المعرفة إلى وثنيةٍ حقيقية كامنةٍ في الوجدان راسخةٍ في الإدراك حتى أنها لا تظهر لمن سقط فيها؛** لأنها جزء من قلبه الذاتي (الشخصي) لا يمكن فصلها عنه.

١١٢- وإذا عدنا إلى خطايا الغنوصيين والموحِّدين وجدناهم قد تصوَّروا الله كواحدٍ فقط لكي يفلتوا من شَرَك وفخ الوثنية، وهذا جيد ولكنه علاجٌ ناقصٌ؛ لأن الواحد لا يكون واحداً بدون أن يشرك الآخرين في عطاياه ومحبته؛ **لأن عدم الشركة تغلق الوحدانية على الواحد، وتصبح أنانية كاملة تحطم ما هو صالح. نحن لا نستطيع أن نتكلم عن وحدانية حقيقية بدون شركة؛** لأن الله يشركنا في كل ما خلق، ولا يمنع عنا أن يكون لنا اتصال وشركة به، أي بكيانه وحياته الإلهية؛ لأننا ندرك من تأمل حياتنا نحن إن أعز ما نملك هو شركتنا مع الآخرين، وإن محبتنا لكل المخلوقات لا تكمل بدون محبة البشر، أي محبة مَن هو مساوٍ لنا؛ لأن ذلك يعطي لنا السلام والفرح ويكمل وجودنا.

أمَّا محبة كل المخلوقات بدون محبتنا لمن هو مثلنا، فهي محبة احتواها الخوف من العطاء وسادت عليها الأنانية، وصارت فريسةً لكل الخطايا الأخرى؛ لأن من يحب من هو أقل منه، إنما يحب من أجل تحقيق سيادة وسلطان. أمَّا مَن يحب مَن هو مساوٍ له، فهو يحب محبة كاملة فيها شركة حقيقية لأنه لا يخاف العطاء، ولا يتوجس من الشركة، ولا يهاب أن يفتح قلبه ويشرك المساوي، أو المساويين له في كل ما يحب.

ولذلك ندرك أن الواحد الذي يتحدث عنه الغنوصيون والموحِّدون هو واحدٌ ناقصٌ؛ لأنه بلا شركة في كيانه ولا يشرك الآخرين في حياته. هذا النقص ظاهرٌ على مستوى البشر نفسه؛ لأن من يعطي المال وسائر الممتلكات، ويمنح الآخرين

كل شيء ما عدا شركة وألفة ومحبة شخصيته، هو متعالٍ وخائف من العطاء لا يدرك أن عطاء الذات هو إعلانُ صورةٍ، وإعلانٌ للمحبة الشخصية.

وعلى هذا الأساس يظهر لنا واضحاً أن الإنسان فَقَدَ إدراكه لحقيقة المحبة الإلهية عندما تصوَّر إن الله الواحد يعطي — فقط - الماء والهواء وغيرها لكي تدوم حياتنا الطبيعية (البيولوجية) دون أن يعطي لنا شركة فيه.

والتوحيد الذي يحرم الله من الشركة، أي ينكر أن تكون لله شركة، هو توحيدٌ ناقص؛ لأن عدم وجود الشركة في الجوهر الإلهي ينفي وجودها في الخليقة نفسها؛ لأن ما هو غير موجود في الله لا يمكن أن يكون موجوداً في الخليقة نفسها. ونحن لا نستطيع أن نتصور أن الخليقة المؤسسة على الشركة تحتوي على مبدأ لا وجود له في الله لأننا بهذا ننكر صراحةً أن الله هو خالق كل الأشياء.

١١٣– أمَّا إذا كانت الشركة كائنة على مستوى الخليقة، فهي من وضع الله نفسه، وهو مؤسسها. وهنا يجب علينا أن نميِّز بين ما هو مخلوق والخالق؛ لأن ما هو مخلوق يحيا حسب حدود خلقه وحسب العطية أو العطايا التي تجعله متناغماً ومتمايزاً عن غيره، وإن كان في شركة.

ولكي يكون الانسجام حقيقياً وصحيحاً وغير مزيفٍ، أصبح من الضروري لنا أن ندرك أن تصميم الخليقة وترتيب قيامها (بقائها) هو بالإرادة الإلهية وحسب تدبير خلقها، وهي لا يمكن أن تتناغم مع الخالق إذا كانت غيره في كل شيء، متناقضةً معه في كل شيء، لكن إذا كانت غيره في أشياء مثل الوجود غير المشروط والحرية والقدرات الإلهية، بل والمحبة، ومثله في أشياء محدودة بالطبيعة التي أُعطيت لها مثل البقاء (الوجود) وهو وجود مشروط لأنه يعتمد على الإرادة الإلهية، ومثل الإدراك والفهم والنطق وهو أيضاً محدود بقدرات الطبيعة المخلوقة، ومثل المحبة التي تتحرك في حرية وتعرف العطاء وتقبل الشركة، بل وتبذل الحياة، وإلاَّ كيف نفهم بذل الأمهات والآباء والمعلمين والفلاحين والصناع وغيرهم؟ **ولذلك نحن لا نؤمن بوجود هوةٍ سحيقةٍ تفصل بين الخالق والمخلوق، وإنما**

نؤمن بأن اختلاف الخالق والمخلوق لا ينفي الشركة، بل يؤكدها لأن انعدام الصلة ينفي صلاح الله كخالقٍ. ونقول: كان من الأفضل لله ألا يخلق مطلقاً من أن يخلق وبعد ذلك يترك الخليقة في جهلٍ وتحيا بعيداً عنه بلا غايةٍ لخلقها. ولكن، ولأن الله خلقنا، فقد أعطانا الصورة الإلهية لكي ندرك من ترتيب خلق طبعنا الإنساني أننا نحمل بعض ملامح الذات الإلهية. وهكذا خلقنا لكي نعرفه ونحبه ونرتفع إلى جمال الشركة بقوة الهبة والنعمة التي أُعطيت لنا.

١١٤– ويفصلنا عن خطايا وأخطاء الغنوصيين، تجسد ابن الله الكلمة (Λογος) الذي وحَّد في أُقنومه الخالق والمخلوق، وبذلك أسس اللاهوت (Θεολογια) الحقيقي الذي يحفظ لنا كل أسرار اللاهوت.

وتجسد ابن الله هو اتحاد الخالق والمخلوق. وموته المحيي على الصليب هو إبادة كل عوائق الاتحاد. وقيامته المجيدة هي أساس الشركة الأبدية. وصعوده إلى السموات هو إعلان المصير الأبدي السمائي. وانسكاب الروح القدس وسكناه فينا هو أساس الشركة، شركة حسب النعمة، وحسب المحبة الإلهية الغالبة.

١١٥– يبدأ اللاهوت الحقيقي بضبط معاني الكلمات على الأساس الذي أسسه رب المجد نفسه. وأول ما هو ظاهرٌ في هذا الأساس هو تجسده. ضَبَطَ الربُ لنا معنى كلمة «**آب**»، فصار معناها الأصل أو المصدر أو الينبوع "**Πⲁϫⲏ**". لأن ولادة الابن الأزلية من الله جعلته الأصل أو الينبوع، ولكن الوحي فضَّل كلمة "آب"؛ لأنها قريبة من الحس الإنساني والخبرة الإنسانية؛ لأن لنا أولاداً حسب الجسد وأولاداً حسب الروح. وولادة هؤلاء من الجسد ليست مثل ولادة أولئك من الروح. وحتى الأمهات يعرفون الأُبوةَ؛ لأن لكل أُم أب. والولادة الجسدانية من الأب والأُم ليست مثل الولادة الروحية التي لا دخلٍ للجسد فيها؛ لأننا نلد أولاداً روحيين إذ نقدِّم أنفسنا ذبائح حية للروح القدس، ولذلك طلب الرسول أن تكون هذه الذبائح مقدَّمة لله الآب في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس، ووصفها بأنها ذبائح روحية أو عقلية مؤكداً أن شركتنا في سر المسيح تجعلنا نحن مثل الآب نلد الأولاد الروحيين في مخاضٍ طويل قال عنه الرسول "يا أولادي

الذين أتمخض بهم إلى أن يتصور المسيح من جديد في قلوبهم" (غل ٤: ١٩).

وحفظ لنا الرب كلمة "**الابن**" وضبط معناها الروحي السليم حتى في ميلاده من العذراء بدون زرع رجل، بل بالروح القدس مؤكداً تفوُّق ما هو سماوي حتى أنه يستوعب ما هو أرضي ويمجده ويحفظه ويحوله إلى السمائيات. وهكذا كانت كل صلوات الابن ليست **لله**، بل **للآب** ونادراً ما نطق الرب في صلاته باسم "الله"، بل دائماً باسم الآب حتى في البستان ناداه "أبَّا" (مر ١٤: ٣٦). وهكذا لم نضبط نحن معاني كلمتي "**الآب والابن**" حسب ذكاء وحكمة العالم، بل حسب حكمة الإنجيل وحسب إعلان الرب المتجسد.

وضبط الرب لنا اسم ومعنى اسم الأُقنوم الثالث، فقد عرفناه باسم "**روح الآب**"، روح الله، ولكن صار اسمه في التدبير "**الروح القدس**"؛ لأن سكنى الرب فينا هي للتقديس، وهي ليست مجرد اسم، بل اسم له معنى عظيم وهو تقديس الخطاة والنجسين. وجاء ضبط اسم الروح القدس بمسحة الرب في الأردن؛ لأن الروح حلَّ عليه وقدَّسه فصار "المسيح الرب" مُعلِناً بداية مسحتنا نحن فيه، لأننا لا نمسح بسبب برنا، ولكن لأنه أنعم علينا بما لا نستحقه، أي سكناه فينا.

التجسد وسُكنى الروح القدس فينا يضبط معاني الكلمات التي نستخدمها في اللاهوت[1]

١١٦– ضَبَطَ التجسد معنى كلمتي الآب والابن، وحفظ للأُقنوم الثالث صفته الإلهية الخاصة، وهي التقديس. وأضاف «القدوس» إلى الروح أو روح الرب لكي يؤكد العطية، ويبقى علينا أن نتحقق من ثلاثة أمور جوهرية:

أولاً: اللاهوت الحقيقي هو اللاهوت الذي يبين تواضع الله ومحبته للخطاة، ولذلك لا يجب علينا أن نصِف الله بأي شيء له علاقة بالكبرياء، لأن الكبرياء هي زيف ووهم يقع فيه الذين يتصورون الله كما يتصورون البشر. نحن نسقط في الكبرياء لأننا نشتاق إلى الرفعة والعظمة، ولا نقبل الرفعة والعظمة التي أعطاها الله لنا، بل تلك التي نخلقها لأنفسنا، فكيف يمكن أن نصف الله بأنه متكبر وهو لا يحتاج إلى شيء، ولا يسعى إلى عظمةٍ مهما كان نوعها؛ لأن العظمة الحقيقية هي من الله مانح كل رتبة حدود عظمتها، ولا توجد عظمة يشتاق إليها الله ويطلبها.

لقد كان تواضع الابن وتجسده إعلاناً بتحول اللغة الإنسانية المولودة من الخبرة الجسدانية إلى لغةٍ جديدةٍ، ولذلك أخبرنا عن المؤمنين وعن الآيات التي سوف تتبع المؤمنين الذين سيتكلمون بألسنةٍ جديدةٍ (راجع مر ١٦: ١٧)، أي بلسان المحبة، لسان اللاهوت الحقيقي الذي يخبر بعظمة التواضع الإلهي وليس بالعظمة الكاذبة التي يبحث عنها الإنسان الضال في متاهات الخطية ودروبها المتشعبة.

---

(١) عنوان أصلي غير مضاف من الناشر.

لسانُ المحبة يسبح بالبذل وبالشركة؛ لأنه يمجد التواضع. أمَّا لسان القوة فهو يمجد السيطرة والقهر لأنه تعلَّم ذلك من الشيطان.

لسانُ اللاهوت الحقيقي يجد الحق في قلب المحبة؛ لأن عطاء المحبة يكشف عن الصلاح، والصلاح ليس فيه عجرفة أو سيطرة أو حتى بحثٌ عن الاستحقاق. لماذا هذا حق؟ لأن الحق هو عدل، والعدل هو مد يد الخلاص لمن سقط، ورفع الذليل، وتحرير المستعبد، وشفاء المرضى، وإشراق نور كلمة الله الباذلة التي تطرد ظلام الخطية والجهل.

١١٧- ثانيا:

هكذا أعلن التجسدُ الثالوث، الآب يرسل الابن الكلمة، والابن يعطي الروح القدس من عند الآب، وأعلن الروح القدس الثالوث؛ لأنه يعطي لنا البنوة التي رُفِعَت من مكانها الطبيعي ومن ناموس الولادة إلى مكانها الأبدي، وهي شركة الابن في الآب والروح القدس.

وعندما يعلن لنا الروح القدس هذه الشركة لنا نتعلم أول درجات المحبة الثالوثية، **وهي المحبة التي تعطي** ليس الأمور الزائدة والغريبة المؤقتة، بل **الشركة في الحياة**. هنا يقف الفكر في ذهولٍ؛ **لأننا إذا اشتركنا في خيرات الأرض صرنا أرضيين، أمَّا إذا اشتركنا في خيرات السماء نصبح سمائيين. وإذا أخذنا خيرات الأرض في الحياة الآتية لن نتعلم شيئاً عن صلاح الله ومحبته؛ لأننا أخذنا كل شيء ما عدا الشركة في محبته. وهكذا أغلقت علينا العطايا الأرضية كل سبل الشركة في الله.**

لأننا عندما نسمع البعض يقولون إنهم لا يُشركون بالله، نقول لهم هذا حق. ولكن نحن نشترك في الله، **وحقاً صار الشِّركُ في المحبة الإلهية توحيداً حقيقياً**. ولذلك سمعنا واحداً من الغنوصيين يقول «المجد لي». وقال الأب ديونيسيوس هذه عبارة صحيحة وإيمان صحيح؛ لأن المجد الإلهي أُعطي حسب إعلان يسوع المسيح وهو ما أعلنه الرب نفسه لنا «ليكون لهم

المجد»، أي ذات مجد الابن الوحيد، وهو المجد المعلن في زمان التدبير، والذي سوف يعلن في كمال التدبير، أي يوم القيامة المجيدة الذي لأجله نقبل كل آلام الزمان الحاضر مع الاضطهادات والأخطار والموت حسب الجسد، الذي قبله الشهداء الظافرون.

١١٨- ثالثاً:

وما سبق وقلناه وما نؤكده هنا هو أن الثالوث معلنٌ فينا ولنا وبنا:

- معلنٌ فينا؛ لأن رأس الخليقة الجديدة هو يسوع المسيح ابن الآب.
- ومعلنٌ لنا؛ لأنه الميراث الأبدي الذي نطلبه في شركة ومحبة الثالوث.
- ومعلنٌ بنا؛ لأن شهادتنا للثالوث هي شهادة حياة.

وما يجب أن نؤكده مرةً أخرى: إن الإعلانَ ثابتٌ من حياة الرب يسوع المسيح التي هي مفتاح الأسفار، ولا جدوى بالمرة من أي جدال عن صيغة الجمع في سفر الخليقة (التكوين) هل هي خاصة بحديث الله مع الملائكة، أو مع نفسه حسب التفسير اليهودي الشائع؟ **لأن مفتاح تفسير الأسفار ليس البحث عن المعنى في النص وحده، بل البحث عن المعاني في الإعلانات الإلهية، وأول وآخر هذه الإعلانات هو إعلان تجسد الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح.**

الأسماء والكلمات ومعانيها حسب السرائر الكنسية

١١٩- في سر المعمودية الإلهي نأخذ التبني. وفي سر مسحة الميرون نأخذ سكنى الروح القدس. في سر الشكر نتحد بالرب يسوع اتحاداً أبدياً لا ينفصل ولا يقوى عليه الموت. نحن لا نبحث هنا في أسماء السرائر الكنسية، ولكن في النعمة التي تُعطى في كل سر، وهي نعمة من الثالوث القدوس لها فروع ثابتة، واصلها واحد مثل الشجرة ولكنها ليست مغروسة في الأرض، بل في السماء.

نحن ننال التبني بسبب اتحاد اللاهوت، لاهوت الابن بنا، أي بالناسوت؛ لأن الناسوت ليس من صفاته ولا حسب طبيعته قادر على أن ينال التبني، ولكنه يشترك في بنوة الابن شركة نعمة؛ لأن الشركة حسب النعمة ليست مثل الشركة حسب الجوهر. فالأولى هبة أو عطية لا وجود لها في الطبيعة القابلة؛ لأن الطبيعة المخلوقة لا تملك ما هو في جوهر الله، بل هي تقف بين الوجود والعدم، وهي كائنة بقوة وإرادة الله وحسب عمله، وإذا نالت عطية من الله، فهي لا تفقد طبيعتها لأن العطية تُعطى لمن لا يملك، وتبقى عند من يحتاج، وتدوم حسب قصد الواهب وهو ما يمنع تحول الطبيعة المخلوقة إلى طبيعة الخالق لأن هذا ينفي صلاح الله ويهدم سبب الخلق من العدم، أي خلق طبيعة قابلة لأن تنال عطايا الله وتبقى قابلة لنوال هذه العطايا.

وتحول المخلوق إلى خالق ينفي تماماً صلاح الله؛ لأن مساواة الخالق والمخلوق يعطل صلاح الله نفسه؛ لأَن فيض الرحمة الإلهية وانسكاب العطايا الإلهية هو من أجل غنى الخليقة، ولكنها متى صارت مثل الله، فقدت الشركة لأن شركة النعمة ليست مساواة، بل هي تَبَنٍّ. وقد أراد الإنسان الأول الإلوهةَ بدون الشركة، فخطف لنفسه الموت وسقط. أمَّا النعمة فقد أعطت لنا الإلوهةَ التي

من الله والتي تحفظنا في الشركة، فهي نعمة التبني؛ لأن الشركة في الطبيعة الإلهية معلنةٌ لنا في كلمات الرب «أنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو ١٧: ٢٢). و«لقد رأينا مجده مجد الابن الوحيد» (يو ١: ١٤). **والمجد هو مجد الطبيعة ذات الغنى الطبيعي الذي يُعطى للطبيعة ذات الفقر الطبيعي**. لقد أعطانا الرب المجدَ الذي أخذه من الآب عندما تجسد، وهو فرعٌ من المجد الأبدي لا يختلف عن مصدره، ولكنه يختلف في القصد؛ لأنه يُعطى حسب «قصد اختيار الله» (رو ٩: ١١)، ولذلك قيل عن الرب إنه هو «البكر بين أخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩).

إن عمل اللاهوت واحد، وقصد العمل متنوع، وقد أدرك الرسول هذا، فقال إن المواهب متنوعة، ولكن الرب الواحد هو الذي يعطي المواهب المتنوعة (١كو ١٢: ٤ - ٥). هكذا حسب قصد الرب ودعوته: نحن «الأخوة»، وهو «البكر» «المتقدم»، والذي له «الرئاسة». ونحن لسنا أخوة حسب اللاهوت؛ لأننا لم نولد من جوهر الآب، ولكننا ولدنا منه وفيه وبالروح القدس حسب ميلاده في ملء الزمان (غلا ٤: ٤). وعندما ولدنا حسب ميلاده صرنا «الأخوة»، وصار هو «البكر»، **لكن كل هذا أساسه الثابت هو لاهوت الابن المتجسد، الذي عندما تجسَّد ثبَّت بتجسده اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأن الناسوت لا يملك القدرة على الاتحاد بالله، كما أنه يحتاج إلى نعمة وتنازل الله**. وهذا هو ما جاء به تجسد ابن الله الذي يتحد بنا في الأسرار الكنسية الخاصة بكل المؤمنين، أي أسرار الانضمام إلى الكنيسة جسد المسيح. وهنا يُعلَن الثالوث على هذا النحو:

أ- يجمع الابن الوحيد رأس الكنيسة جسده معاً؛ لكي يصبح كل عضو من أعضاء جسده عضواً متمايزاً ومتحداً مع غيره في شركة واحدة مصدرها وغايتها المسيح، وذلك عندما ينضم كل عضو إلى شركة جسد المسيح في أسرار الانضمام إلى الكنيسة: المعمودية — الميرون — الإفخارستيا.

في هذه السرائر ننال نعمةً واحدةً، وهي اتحادنا بالرب يسوع بواسطة الروح القدس حسب التعليم الرسولي «لأننا جميعنا بروحٍ واحدٍ (الروح القدس) أيضاً اعتمدنا إلى جسدٍ واحدٍ (الرب يسوع) يهوداً كنا أم

يونانيين، عبيداً أم أحرار، وجميعنا سُقينا روحاً واحداً (روح الشركة)» (١كور ١٢: ١٣). وبعد أن أكَّد الرسول تمايز كل عضو بواسطة الموهبة الروحية المعطاة في أسرار الانضمام إلى جسد الرب الكنيسة، وأكَّد عليها معلِّماً إيانا أن قوام وجوهر الشركة هو أن «تهتم الأعضاء اهتماماً واحداً بعضها لبعض»، وإن كان عضوٌ واحدٌ يتألم – حتى – من الشركة لأنها؛ تُنازِع انفراده وأنانيته، فإن جميع الأعضاء يتألم معه. وإن كان عضوٌ واحدٌ يُكرَّمُ من الروح القدس – وهي الكرامة التي نراها في الشركة — فجميع الأعضاء تفرح معه؛ لأن الكرامة تعود على جميع الأعضاء، وليست قاصرة على عضو واحد، وعند ذلك ختم الرسول كلمات التعليم الرسولي بعبارةٍ دقيقةٍ موجزة: «وأمَّا أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً» (١كور ١٢ - ٢٥: ٢٧). وختم الرسول التعليم مؤكِّداً أن التمايز هو أساس الوحدة، وإن كرامة ومجد الوحدة هي للكل، ولذلك السبب عندما نحتفل بأعياد الشهداء والقديسين، فإننا نحتفل بكرامة ومجد جسد المسيح الواحد.

ب– عندما ننال عطية التبني، فإننا نحيا معاً في شركة التبني، أي الكنيسة، جوهر واحد هو جسد المسيح الواحد، وهي عبارة مملؤة بالتقوى وبترياق لكل الخطايا، وترياق للداء القديم الخفي (الخوف من الموت)؛ لأننا كما قال الرسول: «أنتم جسد المسيح وأعضاؤه أفراداً»، فقد وضع أساس الشركة قبل التمايز؛ لأن الشركة هي التي تعلن التمايز، وهي هنا ليست – فقط – أيقونة ϩικων للثالوث، بل هي أيضاً مستمدة من الثالوث وصائرة إليه؛ لأنها منه.

وعندما يقول الوحي المقدس إن الإنسان خُلق ”على صورة الله ومثاله“ (تك ١: ٢٦)، فهو يؤكد لنا بكلمتي ”خُلق“ و ”صورة الله ومثاله“، أن هذا مستمدٌ وكائنٌ بقوة الثالوث القدوس؛ لأن هذا كان هو النعمة الأولى الخاصة بالخليقة الأولى. أمَّا الآن، فالنعمة التي أسسها آدم الأخير الرب من السماء (١كور ١٥: ٤٧)، ليست نعمة مخلوقة – جوهرها وعناصرها من الأرض – بل من اللاهوت؛ لأن آدم الأخير لم يكن في الفردوس القديم مثل آدم الأول، بل هو الأُقنوم الثاني في الفردوس الجديد الكنيسة، ولذلك

قال إنه هو "باب الخراف" (يو ١٠: ٧) مؤكداً لنا أنه هو مفتاح الشركة وأساسها، وأنه هو وحده الذي يمنحنا نعمة الدخول إلى الشركة.

نحن جسد المسيح بسبب شركتنا في ناسوته، وشركته هو في الناسوت، أي الطبيعة الإنسانية الواحدة الجديدة التي تجمع الكل؛ لأن علامة التجديد الأكيدة هي وجود الكنيسة التي لها الأساس الإلهي الثابت، وهو اللاهوت المتحد بالناسوت. وهي النعمة الأبدية التي أشارت إليها دعوة الإنسان الأول لكي يكون صورة الله ومثاله، وتمت بمجيء الابن الذي ثبَّت هذه النعمة مجدداً إياها فيه واهباً إياها لنا بالروح القدس. هكذا أيها الأخوة يُستعلن لنا الثالوث في سرائر الانضمام للجسد الواحد، الجسد الواحد الذي كُوِّن في المسيح، والذي يستمد وجوده وحياته من لاهوت الابن مثالاً للحياة التي ننالها منه؛ لأن فيه لنا حياة "المسيح فيكم رجاء المجد" (كو ١: ٢٧)، ونحن نمتلئ فيه، ونحيا فيه، وننال ذات الحياة التي نالها الناسوت؛ لأنه أي الرب يكوِّن جسده ويكوِّن أجسادنا وأرواحنا كما كوَّن جسده معطياً إيانا نفس الحياة؛ لأنه هو "حياتنا".

جـــ – كيف نحدد معاني الأسماء والكلمات التي تعبِّر عن صلتنا بالرب وشركتنا في حياته بالروح القدس؟

أولاً: نحن لا نتحدث عن الكلمات والأسماء، ثم بعد ذلك نبحث عن معانيها، بل لقد سُلِّم إلينا الإعلان عن الحياة الجديدة المكون من شقين: **الأول**، هو ما نمارسه الآن في الزمان الحاضر. **والثاني**، هو ما نمارسه الآن في الزمان الحاضر ويمتد إلى الأبدية. **الأول** معلنٌ في تجسد الرب وموته وقيامته. **والثاني** معلنٌ في عطية الحياة الجديدة التي أخذناها من الثالوث القدوس، والتي نراها معلنة في الابن ومعطاة بالروح القدس، وكمالها في الدهر الآتي. وهذا يعني أن الحياة الجديدة المعطاة لنا هنا في الزمان كاملة؛ لأن عطية الله بلا ندامة، ولكنها تُعطى كاملةً وتُكشَفُ في الدهر الآتي.

ثانياً: الشركة هي التي تحدد معاني الأسماء والكلمات؛ لأن الشركة أعظم من أن نعبِّر عنها بكلمةٍ واحدةٍ أو اسمٍ واحدٍ. والكلمات المستخدمة في

شرح الشركة والأسماء المتعددة تعود كلها إلى أصلٍ واحدٍ هو توحيد جوهر الثالوث؛ لأن التوحيد هو قاعدة التفسير والشرح، ولأن توحيد جوهر الثالوث هو التعليم الحقيقي الذي خلع كل تفاسير الهراطقة لسر التدبير الإلهي.

والتوحيد هو الذي أعلن لنا مساواة الابن للآب، وهو الذي أعلن لنا إلوهية الروح القدس؛ لأننا لا نستطيع أن نقلل من خطورة تعليم أريوس الذي قسَّم الثالوث إلى خالق ومخلوق، فأعاد إلى عقول تابعيه خرافات الوثنية، وأنكر تجسد الابن؛ لأنه فَصَل الآب عن الابن، فجعل توحيد الله قضية (Δογμα) بعيدة عن التاريخ كله، غائبة عن كل زمان البشر وحبسها في الماضي البعيد، وفَصَل بين الخلق والخلاص إذ جعل الآب خالقاً بعيداً عن الإعلان عن نفسه، وبذلك عطَّل توحيد جوهر اللاهوت؛ لأن تجسد الابن وانسكاب الروح القدس هو الذي حدد لنا توحيد الله، وهو الذي جعلنا نرى في إعلانات الخلاص عمل الله الواحد الذي لا ينقسم جوهره، ولا ينقص ولا يزيد، وعندما يعطي لنا شركة في حياته، فهو يدعونا إلى جمال التوحيد، حيث نرى في الله: الواحد والوحدة. الواحد الذي منه كل الأشياء، وهو مصدر الوحدة الذي يعلو جوهره على كل الكائنات المخلوقة، ويعلو بما يعلنه من وحدةٍ يدعو إليها الخليقة المنظورة وغير المنظورة؛ لكي تدوم في شركة معه، وتحيا فيه، الإله الواحد الذي أسس الوحدة بالوحدانية، وثبَّت الوحدانية بالشركة.

هذا هو الأساس الأُرثوذكسي لكل ما ينطق به أي لسان، وبأي لغة (حرفياً لسان) عن الله؛ لأن التوحيد الحقيقي هو تثليث الأقانيم، وتثليث الأقانيم هو توحيد حقيقي؛ لأن الله — كما سلَّم إلينا آباءُ الكنيسة — واحدٌ في ثالوث، وثالوثٍ في واحد، وهو ما نعلنه في تسابيح الكنيسة بعد عيد العنصرة، مؤكدين كمال إعلان الثالوث القدوس.

١٢٠– نحن لا نحدد معاني الكلمات أو الأسماء حسب استعمالها الشائع في لغة

أو لغات البشر؛ لأن كل كلماتنا وكل الأسماء التي نستخدمها لها أصلٌ ماديٌّ محدد، واستعمالٌ إنسانيٌّ خاص بالزمان الحاضر، أي إن كلماتنا كلها مهما كانت هي كلماتٌ إنسانيةٌ فقط، ولكي ترتفع إلى المستوى اللائق الذي يخلصها من حدود الزمان والمكان والاستعمال الحضاري المحدد بعادات وقواعد اللغة والحدود الأخرى، أي انطباق الكلمات على معانٍ حُددت حسب قواعد المنطق والفلسفة وحسب الاستعمال الشائع، فإننا نستخدم ثلاثة وسائل ضرورية:

أولاً: الصلاة، أو الخدمة.

ثانياً: الأسرار الكنسية.

ثالثاً: وضع الشركة كأساسٍ لا يمكن تغييره؛ لأن الشركة هي الكلمة الجامعة التي تضم المعاني الخاصة بالحياة الجديدة مثل التبني والنعمة والحياة الأبدية، والتي تحدد معانيها على أساس الشركة، كما أن الشركة هي أساس توحيدنا ذات الله أو جوهره.

أولاً: الصلاة أو الخدمة (الليتورجية)

عندما تدخل أي كلمة من كلماتنا في صلواتنا، فإمَّا أن تبقى حسب معناها الشائع، وإمَّا أن تنقلها الصلوات إلى مستوى الشركة.

فالموت كلمة شائعة تعبِّر عن نهاية الحياة بانفصال النفس عن الجسد، ولكن هذا المعنى الشائع يتطور إلى عدة معانٍ لا علاقة لها بهذا المعنى الشائع: مثل الموت الروحي وهو موت الخطية، ولكن الموت الروحي هو أيضاً الموت السري Ⲙⲉⲥⲧⲩⲕⲟⲥ أي موت المؤمن مع المسيح في سر المعمودية حسب التسليم الرسولي (رو ٦: ١ – ٨). والموت عن الشهوات في الحياة النسكية.

والذي قسَّم وفصَّل هذه المعاني ليست اللغة، ولا حتى الاختبار الإنساني وحده، وإنما هو إعلان الله في ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح؛ لأنه أباد الموت حسب معناه الشائع، أي انفصال النفس عن الجسد حسب وعده الإلهي لنا بالقيامة، ونقل الموت كقوة سلبية تهدم، إلى قوة سلبية إيجابية؛ لأن الرسول يقول:

«احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية» (رو ٦: ١١)، «ومع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢: ٢٠). هذا المعنى يُكتَشف في المسيح، ويصبح الموت هنا ليس قوة هدم تُخيف وتُرعب، بل قوة خلاص، ولذلك السبب نُوصف بأجمل الكلمات (لُبَّاس الصليب).

وفي الخدمة (الليتورجية) يوصَف الموت بأنه انتقالٌ وحياةٌ في كورة الأحياء إلى الأبد أورشليم السمائية. كما يوصَف بأنه نياحٌ؛ لأن الرب أباد الموت وهدمه وكسر أبواب الجحيم وأدان الدينونة.

وعندما ننادي الله بالآب، فإننا لا نقف عند هذا النداءِ وحده، بل ندعوه آب ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح؛ لأنه لا أُبوة بدون الابن. فالأُبوة بدون الابن ليست أُبوة حقيقية لأنها بدون بنوة حقيقية. وبسبب الصلاة يصبح نداء الله بالآب هو نداءِ الخليقة للخالق، لمن بيده كل الأشياء، ولذلك يُوصف الآب بأنه ضابط الكل، وهو مصدر كل صلاح ووجود وحياة.

وعندما ننادي الابن الوحيد، فإننا ندعوه إلهنا ومخلصنا وسيدنا كلنا، وبذلك لا نسقط في المعنى الحسي (البيولوجي). ومن الصعب على مَن لا يصلي صلواتنا أن يفهم معنى البنوة؛ لأن النداء ليس كلماتٍ تقال، بل هو الطبيعة الجديدة التي فينا ولنا، وهي فيه تنادي غارسها وخالقها وواهبها ربنا يسوع المسيح الذي له المجد دائماً.

ثانياً: الأسرار الكنسية

هي مجال Ⲥⲕⲟⲡⲟⲥ عمل الروح القدس في الكنيسة، حيث يعلن الروح القدس - في صلوات وطلبات الكنيسة - الطبيعة الجديدة والحياة الجديدة في يسوع المسيح رب ومخلص ورأس الجسد.

وأول ما نلاحظه هو الاعتراف الدائم بالضعف البشري وبالخطايا في كل الصلوات، لكي يفتح هذا الاعتراف باب التجديد، ثم إعلان الطبيعة الجديدة في المسيح، وهي ظَفَرُ الرب بالموت وبالهاوية، ومحبته الشديدة للجنس البشري

ودعوته لأن نكون مثله. هنا – بشكل خاص – يجب أن نميز بين الكلمات التي تعبِّر عن حالة الإنسان قبل النعمة، وتلك التي تؤكد ضعفه رغم النعمة، والكلمات التي تؤكد انتصار الإنسان في المسيح.

والإنسان الجديد في المسيح لا يحدد معاني الكلمات حسب الضعف الإنساني؛ لأن الضعف الإنساني ليس هو القاعدة التي تفسر الخلاص، بل المحبة الإلهية للآب والابن والروح القدس هي قاعدة التفسير. وبسبب المحبة صارت الكلمات مثل: النعمة، والقيامة، والخليقة الجديدة هي دائرة النعمة، ومركز هذه الدائرة هو الثالوث. وبسبب المحبة يتعذَّر علينا أن نعود إلى المعنى الشائع لأي كلمة؛ لأن التجديد شمل لغة الإنسان.

ويحوِّل المسيح في أُقنومه الطبيعة الإنسانية التي أخذها من والدة الإله التي حملت اللاهوت في أحشائها لكي يحول أيضاً اللغة الإنسانية ويضع – حتى – للمعنى الشائع معنىً جديداً، ولذلك كان التبني معروفاً في الحضارات وحسب عادات الشعوب، ولا يشترك الأب والأم مع الطفل المُتبنىَ في علاقةٍ حسية (بيولوجية)، بل تصبح العلاقة الروحية الجديدة هي أساس العلاقة. ومع أننا نرى أن الأب والأم والطفل هم من طبيعةٍ واحدة، إلاَّ أن الطبيعة الواحدة ليست هي أساس العلاقة الجديدة. أمَّا في التجديد، فإن طبيعة المسيح الجديدة كآدم الجديد والأخير هي أساس التجديد، هي الطبيعة الواحدة التي نشترك فيها، ولذلك السبب ذاته وصف الرسول الكنيسة بأنها: «جسد المسيح الواحد»، وتطلب الكنيسة هذه الوحدة في صلواتها، وتسعى إليها دائماً غالبةً الخطايا التي تهدد وحدتها، مؤمنةً بأن الوحدة عطيةُ الله الآب لنا في ابنه يسوع المسيح بعمل واقتدار روح الحياة الروح القدس.

ثالثاً: الشركة أساس لا يمكن تغييره – ماذا تعني كلمة (واحد) في مجال الأسرار؟

١٢١– نحن لا نملك بقدراتنا أن نكون واحداً إلاَّ بالقدر الذي نتحد فيه إرادياً بسبب محبتنا للآخرين. هذه الوحدة الطبيعية لا تسمو فوق الفروق، ويصبح التمايز وهو عطية الله الخاصة لكل إنسان هو مصدر الانقسام نفسه. ولكن لما جاء

ملء الزمان (غلا ٤: ٤) ودعانا الرب يسوع لأن نكون «واحداً» فيه ومع الآب وبالروح القدس (يو ١٧: ٢١ وما بعده)، صارت الوحدة هي غاية الحياة المسيحية، ولم تعد وحدة حسب مقاييس واحتياجات الطبيعة القديمة، بل حسب تدبير الابن الوحيد. لذلك أسس الرب هذه الوحدة فيه هو، وجعلها ثابتة لا تخضع لأهواء وفساد الحياة الجسدانية، بل كما نقول في الاعتراف: «لاهوته لم يفارق ناسوته لحظةً واحدةً ولا طرفةَ عينٍ» مؤكدين عدم انقسام الرب الواحد يسوع المسيح؛ لكي يؤكد ذلك عدم انقسام جسده، أي الكنيسة؛ لأن سر الوحدة يبدأ بخلع الطبيعة القديمة الخاصة بكل ضرورات الحياة الجسدانية. وهو خلعٌ يبدأ أولاً بغرس الحياة الجديدة في داخل الحياة القديمة لكي تنمو محولةً القديم إلى الجديد. والخلع هنا لا يتم حسب القوى الجسدانية، ولا بوسائل بشرية؛ لأن الطبيعة القديمة لا تقبل الموت، بل تراه الخصم العنيد. وتطلب الطبيعة القديمة الخلود بواسطة الوسائط المخلوقة ومن ذاتها، ولذلك تنتهي إلى الموت الجسداني والروحي معاً.

أمَّا الطبيعة الجديدة التي كُوِّنت أولاً في أحشاء والدة الإله، فهي آتية من الروح القدس، وبه مُسِحَت في الأردن. وباتحادها بالحياة التي لا تموت، قهرت الموت على الصليب، وأشرقت بنور عدم الفساد من القبر، ونالت مجد السماويات في الصعود، ولذلك هي الطبيعة التي لا تخطئ؛ لأن المولود من الآب قبل كل الدهور، والمولود في الزمان من والدة الإله حَفِظَ القداسة وهو في الجسد، ولم يطلب الخلود لأنه لم يعتبر مساواته للآب اختطافاً، وترك قوة الخلود وعدم الموت تبيد الموت. وترك قوة الحياة تقهر كل أشكال الانفصال، فنالت الطبيعة الإنسانية في المسيح الحياة الجديدة التي لا تعرف الانفصال؛ لأن اغتراب الإنسان عن الله قضى عليه التجسد. وقبول الصليب والطاعة حتى الموت، وحَّد المحبة الإلهية بالمحبة الإنسانية، فصارت محبة واحدة متجسدة، فوضع الرب بذلك أساس الكنيسة فيه أي وحدة اللاهوت بالناسوت، وحدة لا تقبل الانفصال، ولذلك دعى كل شخص لأن يكون عضواً في جسد الرب.

وحسب تدبير الحياة الجديدة، العضو ليس إنساناً ناقصاً، فهذا ينطبق على المعنى الشائع حسب الاحتياجات (البيولوجية) الإنسانية. **أمَّا العضو في الإنسان الجديد**

فهو وجود متمايز خاص، له دور خاص، له ذات الحياة الواحدة للجسد، وعطية خاصة تحدد دور العضو في الجسد الواحد. وحتى الذين بلا مواهب ظاهرة، لهم الوجود الخاص؛ لأن الرسول يقول إن الأعضاء التي بلا كرامة تنال كرامةً مضاعفة (١كور ١٢: ٢٣)؛ لأن الجسد واحد، والحياة واحدة، والمصير واحد، والمجد واحد، والقوة واحدة رغم تنوع المواهب الروحية حسب الشرح الرسولي.

الواحد – إذن – هو وحدة، والوحدة هي حياة واحدة تجمع أعضاء متمايزة مختلفة حسب العطايا، ولا يصبح الواحد هنا هو «واحد حسابي» أي رقم؛ لأن الأرقام لا تدخل في تدبير الحياة الجديدة، بل الأرقام خاصة بالجسد وبالأمور الظاهرة المرئية. وحتى عندما ترك الراعي الـــ ٩٩ وسعى وراء الواحد الضال، فهو لم يترك الـــ ٩٩ وتخلى عنهم، بل جاء بالواحد لا لكي يكمل العدد، بل لكي تكمل الشركة. وعلى الرغم من أننا نقول إن الرب يسوع «واحدٌ من اثنين»، إلاَّ أن الواحد هو اللاهوت والثاني هو الناسوت. واللاهوت واحد مع الآب والروح القدس، فهو واحدٌ في شركة. والناسوت واحدٌ معنا، فهو واحدٌ في جماعة الرب أو جسده الذي له أعضاء كثيرة، وهو واحد أيضاً في شركة الجسد الواحد.

١٢٢– والواحد في الثالوث هو واحدٌ متمايزٌ؛ لأنه الابن. والواحد في الكنيسة هو واحدٌ مختلف؛ لأنه الرأس والبدء والمتقدم والبكر والوسيط والمخلص والرب، وهذه كلها تحدد الواحد ليس حسب القيمة العددية، بل حسب النعمة المعطاة. وتحوُّل كلمة واحد إلى معنى دقيق يجب ألاَّ يكون غائباً عن أذهاننا، وهو المصدر الوحيد، والينبوع الوحيد، والحياة الحقيقية التي تُعَد كل أشكال الحياة – مهما كانت – ظلالاً لها.

١٢٣– والواحد الوحيد ربنا يسوع المسيح هو واحدٌ مع الآب، وواحدٌ معنا دون أن ينقسم، بل من أجل الانقسام جمع ووحد كل شيء تحت رأسه الواحد وتحت سيادته الواحدة. وهو «البكر بين أخوةٍ كثيرين»، لكن حسب توحيد جوهر اللاهوت ليس للابن أخٌ آخر حسب اللاهوت، بل هو وحيد الآب، ولكن حسب التدبير هو «بكرٌ بين أخوةٍ كثيرين»، ولذلك جمع الابن اللاهوت والناسوت ووحدهما في أُقنومه الإلهي لكي يجعله يؤكد توحيد جوهر اللاهوت؛

لأن وحدة اللاهوت بالناسوت هي وحدة ثابتة تعلن وحدانية جوهر الثالوث، ولا تُنـــزع هذه الوحدانية؛ لأن غاية الخلاص هي أن نكون «واحداً في المسيح» (غل ٣: ٢٨). هذه الغاية لا تعطى من أجل إلغاء وحدانية الجوهر، بل من أجل إعلانها؛ لأننا نجد المثال الأعظم والكامل للوحدة الحقيقية التي منها كل وحدة «كل أبوة وعشيرة في السموات وعلى الأرض» (أف ٣: ١٥) هي وحدة الثالوث، وهي التوحيد الذي ننادي به توحيداً كاملاً، ليس حسابياً، بل توحيد شركة وتوحيد حياة، توحيدٌ نتذوقه في الأسرار الكنسية؛ لأن الرب دعانا لأن نعتمد تاركين قوة وسيادة الحياة الطبيعية (البيولوجية) إلى قوة وسيادة النعمة التي تمسح خطايا الانقسام، وتغفر الخطايا لكي تحفظ الوحدة وتشفي الكراهية بالمحبة وتدوس الأنانية بالصليب أي بالبذل، وتعبر هوة الانفصال بقوة الروح القدس لكي تدخل حياة الدهر الآتي مقدسةً نقيةً منعطفةً نحو الذي أسس فيها ولها الوحدة، ويقودها نحو كمال وجودها أي ربنا يسوع المسيح واهب الروح الواحد روح الآب من عند الآب القدوس.

١٢٤- هكذا ندرك التوحيد ونحياه ونتمسك به؛ لأنه غاية الخلاص الذي لأجله وُهِبنا التبني وسُكنى الروح القدس والحياة الأبدية؛ لكي نذوق صلاح الله ومحبته. وهو توحيدٌ لا يمكن أن يكون صحيحاً بدون الثالوث القدوس؛ لأن نقل الإنسان من عبودية الطبيعة والموت والخطية لا يمكن أن يتم بواسطة إله واحد وأُقنوم واحد، بل بثالوث واحد وثلاثة أقانيم؛ لأن كل أُقنوم يعمل فينا حسب وحدة الجوهر، وحسب المحبة الإلهية الواحدة التي تعلن عن نفسها محبةً تُمارَس في الثالوث، وتُعلَنُ كعلاقة أمام الخليقة المتنوعة في السماء وعلى الأرض؛ لكي تنال بالإعلان هبة التشبه بالله الثالوث، وتذوق معاً المحبة الإلهية التي تحفظ حدود كل طبيعة وتمايُز كل شخص (أُقنوم) وترفع الكل إلى مجد شركة الطبيعة الإلهية لكي - بهذه الشركة - يُعلَن صلاح الله وتوحيد جوهره الإلهي.

١٢٥- وبدون الوحدة والشركة في الطبيعة الإلهية يصبح كل حديثٍ عن التوحيد هو إنكارٌ لفساد تعدد الآلهة، أي الاعتراف بالمرض دون تقديم الدواء؛ لأن الدواء ليس في صيغةٍ لفظيةٍ، بل في هبة الحياة التي تعطي لكل لفظٍ معناه

الصحيح. لأن المعنى يأتي من الممارسة ومن التذوق الذي يجعل الكلمات تنطبق على الخبرة، وتحددها الخبرة. فالتوحيد تحدده النعمة، واللفظ لا يحدد إلاَّ خطأ الإنسان وخطاياه. أمَّا المعرفة الجديدة التي جددها الرب بتجسده، فهي تجعل النعمة سابقة على اللفظ، بل وتحدد اللفظ؛ لأن إنجيل ربنا يسوع المسيح لم يكن كلام معرفةٍ، بل - كما قال الرسول — «برهان الروح والحق»، أي القوة التي تعمل فينا وتعلن الحياة لكي تختار الحياةُ اللفظَ المناسب وتحدده حسب العطية، وتثبِّت معناه حسب الاختبار.

لماذا نصير واحداً مع الرب؟

١٢٦– السؤال الذي يبدأ بـــ «كيف؟»، يتعطل، ويعطل الإدراك؛ لأن البحث عن المصدر والمسار والغاية هو بحثٌ خاص بالتحليل الفلسفي ولا يمُت للرؤيا. أمَّا السؤال الذي يبدأ بـــ «لماذا» فهو يبدأ بالغاية، ويكشف المصدر ويحدد المسار بدقةٍ.

لماذا نصير واحداً مع الرب يسوع؟ لأننا نعبر معه «وادي ظل الموت» بالصليب إلى مجد قيامته. وعندما نقول: «معه»، فإننا نشير إلى عبوره، وإلى مجده، وإلى قيامته تلك التي أُعطيت لنا من خلال شركتنا فيه، ومن خلال محبته للبشر. لذلك يدعونا الرب ليس لسماع كلمةٍ أو وصيةٍ فقط، بل إلى شركةٍ في حياته وموته وقيامته، شركة تفتح كلمة التعليم وكلمة الله الحية في الأسفار، شركة في كل ما جاء به من فوق من عند الآب، أي علاقته بالآب وشركته في حياة الآب، شركة في تواضع الروح القدس الذي يقبل أن يسكن في خطاة مثلنا، شركة في تجسده — نعم أيها الأحباء — لأننا إن لم نشترك في تجسده نموت. ونحن لسنا أرواح تتجسد، ولكن تجسده كان «إخلاءً للذات»، كان قبولاً لـــ «صورة العبد». وبالنسبة لنا «صورة العبد» حاضرةٌ فينا دائماً ولكنها تحتاج إلى تجديد، أي قبولنا «صورة الابن» لكي يكون هو «بكراً بين أخوةٍ كثيرين».

إن قبول تجسد الرب ليس هو مجرد الإقرار به، بل هو أيضاً قبولنا صورة العبد وقبول تحولنا إلى صورة الابن. وأيضاً قبولنا لمعمودية الرب هو قبولنا مسحة يسوع لكي نصير مسيحيين ⲭⲣⲓⲥⲧⲟⲓ ولكي يقودنا الروح القدس إلى البرية،

وإلى الحوار مع المتهودين الذين يحبون الشريعة أكثر من الله، وإلى الجلجثة، وإلى القبر، وإلى القيامة معه، قيامة النفس وهي القيامة الأولى، أمَّا قيامة الجسد فهي القيامة الأخيرة.

١٢٧– يعيد الربُ خلقتنا من جديد مكوِّناً فينا من خلال المحبة إرادةً جديدةً تُولد من الشوق، ومن رغبة كامنة سرية في النفس تدفع النفس نحو الالتصاق به؛ لأننا نحتاج إلى هذه القوة لاسيما في بداية حياتنا الروحية. ويعطي الرب لنا من خلال إعلانات مجد السماويات، الاستهانة بالموت وبالخسارة المادية وبالتعب الجسداني، وبآلام الزمان الحاضر؛ لأن القلب الذي يثبت في الأبديات هو القلب الذي يُغنِّي مع الرسول ويرتل دائماً «لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربحٌ» (فليبي ١: ١٢).

١٢٨– وخلقتنا الجديدة ضروريةٌ لنا؛ لأننا نولد ولادة جديدة في المسيح وبعرقه ودمه ومعاناته وموته وقيامته. هذه هي العطية العظمى؛ لأننا جئنا من العدم، ولا نملك في كياننا أي شيء يؤهلنا للحياة الأبدية. وحتى عندما خُلقنا على صورة الله ومثاله كانت خلقتنا الأولى كاملة في الشركة، ولكن الابتعاد عن الشركة جلب علينا الموت الروحي الذي جاء بعده الموت الجسداني، موتاً روحياً جعل قوى الروح تتصارع وساد العمى الروحي وفقدان الرؤيا والعجز عن الإحساس بالله بسبب الموت؛ لأن الموت الروحي هو «العمى» و«الجهل» الذي عبَّر عنه الإنسان في العصور السابقة باختراع الآلهة.

ولما جاء الرب يسوع المسيح أعاد تكوين الصورة الإلهية، العطية الأولى التي أُعطيت للإنسان، فقد جعلها تأخذ كيانها من جديد من خلال الاتحاد بلاهوته وتنال حياتها من الشركة والوحدة بأُقنومه الإلهي؛ **لأنه لذلك السبب خَلَقَ الإنسان على صورته وكمثاله لكي يؤهله للاتحاد به في زمان التجديد**. ولذلك نمت هذه الصورة بالميلاد البتولي حيث أخذت بدايتها من روح الحياة، أي الطفولة التي تعيش بالروح القدس مؤسسها وبالاتحاد بكلمة الله. وعندما قال الرب: «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات» (مت ١٨: ٣)،

فقد كان يؤكد أننا به، وفي سر المعمودية نؤهَّل من جديد لولادة جديدة، وهي طفولة حقيقية تحيا وتعيش وتتنفس الروح القدس «نسمة الحياة» التي أعطاها هو بعد قيامته قائلاً: «أقبلوا الروح القدس» (يو ٢٠: ٢٢)، ولذلك نفخ نسمة الحياة للباكورة من الخليقة الجديدة وردهم إلى الطفولة لكي ينالوا بعد ذلك القوة الروحية في يوم العنصرة.

ولما مُسِحَ الربُ في معموديته مُسِح لأجلنا، وصارت المسحة محفوظةً فيه لنا؛ لأننا نُمسح بذات الروح وننال نفس المسحة، وبالروح القدس تعود إلينا صورة الله، صورةً حيةً حسب الشركة في الروح القدس روح الحق، وليست صورةً مزيفةً حسب اختيار وظنون الإنسان.

وماذا نعني بـــ «صورةٍ حية»؟

نعني بذلك ثلاثة أشياء:

أولاً: صورةٌ تتكون بالنعمة وبالاتحاد، لا بالعزلة وحسب ظنون الإنسان وخيالات الخطية، ولذلك زرع الرب يسوع الصليب كشريعة وميزان وفاصلا بين الحق والكذب.

ثانياً: صورةٌ ليست بحسب إرادة الإنسان وحسب تقواه، بل حسب بر الابن الوحيد وعطية الحياة الكاملة التي أفاضها علينا بالروح القدس.

ثالثاً: صورةٌ تنمو كبذرة تحتوي كل كمال، ولكنها تنمو بالشركة في جسد المسيح الكنيسة، وتنمو بالتناغم بين إرادتنا وإرادة الثالوث حسب نعمة ربنا يسوع المسيح.

هكذا أعلن الرب هذه الصورة. فقد كان بلا خطية رغم أنه حمل خطايا العالم. وأعلن في تجاربه في البرية صورة الله الجديدة في الإنسان في تجاربه الثلاث:

- فقد رفض أن يحيا لذاته وبذاته، فأسس الشركة.
- ورفض أن يحيا بدون الآب، بل كان مع الآب واحداً، فأسس الوحدة.
- وأعلن أنه حبة الحنطة التي متى زُرِعَت في الأرض لا تبقى وحدها، فأعلن

بذلك النمو بالشركة. **ويبقى لدينا حدٌ يفصل بين وحدانية الرب وسموه وبيننا، وهو أنه لم يحيا حسب النعمة مثلنا، بل عاش حسب قدرته الإلهية وقوة أُقنومه الإلهي،** وهكذا أيضاً تحول الصليب إلى شركة «الحق الحق أقول لكم إن حبة الحنطة إن لم تقع في الأرض فهي تبقى وحدها، ولكن عندما تموت تأتي بثمر وافر» (يو ٢١: ٢٤)، فقد مات لأجلنا وعنا لكي يبيد الموت الروحي، أي العمى والجهل النابع من عزلة الخطية، ولكي يزرع الحياة الجديدة، حياة الشركة والوحدة التي لم تعد نظاماً أو شريعةً، بل شركة في حياته الإلهية المتجسدة، شركة خاصة وعلاقة ذاتية.

لقد جاء الرب وأنقذنا من الضلال بالتعليم، ومن الموت بالصليب، ومن العزلة بتجسده الإلهي، ومن الدينونة بقيامته، ومن الحياة الترابية بصعوده إلى السماء، وهكذا يجب أن نكون واحداً معه في التجديد، واحداً معه في ميلاده الذي به ننجو من الميلاد الزماني الطبيعي الذي هو من طبيعة الأجساد، ومن عزلة الخطية النابعة من الأنانية بحمل الصليب وبحلول الروح القدس فينا، ومن الموت الروحي أي العمى والجهل، بنور إعلان الآب، ومن الدينونة أي فشلنا في أن نكون صورة الله، بتجديد الصورة الإلهية. ومَن ذا الذي يستطيع أن ينال أيٌ من هذه بدون المسيح؟!!

لا خلاص بدون المسيح

١٢٩– يقول الرسول: «كيف ننجو إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره» (عب ٢: ٣). ولهذا السبب أقف في حيرةٍ ودهشة: مَن الذي يستطيع أن يخلق كيانه من جديد بقدراته؟ ومَن الذي يستطيع أن يكون صورة الله بدون معرفة، وبدون إعلان من الله خالقه؟ ومَن ذا الذي يستطيع أن يكون ابناً لله بدون نعمة التبني؟ **بدون المسيح نهلك؛ لأننا بدون المسيح نعود، أو بالحري نبقى على حالتنا الطبيعية بلا معرفة بالثالوث، وبلا شركة في الحياة الإلهية، وبلا خلاص؛ لأن الخلاص هو ردُ الحياة التي فقدناها بالموت، وهو المجد الذي نناله في المسيح؛ لأن الرب لم يُعِيدنا إلى ما كنا عليه، بل أعطانا حياةً جديدةً منه وفيه وبه وبعمل الروح القدس.**

١٣٠- لقد جاء الإعلان الجديد والأخير عن يسوع المسيح «المذخَّر فيه كل كنوز الحكمة والمعرفة» (كو ٢ :٣) لأن كل الكائنات تأخذ ثباتها في حدود طبيعتها المخلوقة في الكلمة ابن الله، وتبقى حرة مقيدة بحدود الطبيعة التي بسبب الحرية قادرة على أن تتعداها فتفقد بذلك حريتها، ومع ذلك عندما تكتشف ثباتها وتوَد العودة إليه، فإنها تنال نعمة بالتوبة؛ لأن التحول والتغيُّر الدائم ليس فقط صفة ملتصقة بالجسد، بل بالروح أيضاً؛ **لأن المخلوق متغيِّر، والتغيُّر هو عطية إلهية لكي ينمو الكائن حراً متجهاً نحو الكلمة نائلاً منه الكمال، أي الثبات الذي يريده الكلمة لكل مخلوق.**

كيف نستطيع أن ننمو نحو الكمال بدون الإيمان بالكلمة ابن الله؟! وإن سلكنا طريقاً غير طريق الكلمة أي تدبير التجديد الذي جاء به من عند الآب، فما هو التجديد الذي نستطيع أن نقدمه لغيرنا أو لأنفسنا؟!

التجديد هو تدبيرٌ حسب حكمة الله أولاً، وثانياً حسب النعمة، وثالثاً حسب غاية الخلق. فكيف نستطيع أن نحدد لله حكمته؟ وما هو مصدر النعمة التي لدينا؟ وما هي غاية الخلق التي نستطيع أن نحددها لأنفسنا بدون الله، أو غير تلك التي حددها الله؟

لقد وضعنا هذه الأسئلة أمام الذين يظنون أنهم حكماء، ويظنون أنه يوجد طريق للحياة غير طريق يسوع، وهؤلاء أولاً أنكروا الثالوث، وثانياً أنكروا أُلوهية الرب يسوع، وثالثاً أنكروا سُكنى روح الحياة الروح القدس المُعزِّي. هذا السقوط مصدره إنكار الثالوث، وهو إنكارٌ يؤدي إلى إنكار الرب والمخلص ربنا يسوع المسيح، وهو نفس الإنكار الذي يؤدي إلى إنكار سُكنى روح يسوع، الروح القدس الذي يبني فينا كل ما أعطاه الرب لنا والذي ندعوه في بداية الخدمة المقدسة: «سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية» التي يبني كيانها ربنا يسوع المسيح «من لحمه ومن عظامه» (أف ٥: ٣٠)؛ لأن الكنيسة هي عروس المسيح، ولذلك قال الرسول: «لا يبغض أحدٌ جسده بل يغذيه» لكي ينمو مرتفعاً نحو الكمال الذي أراده الرب يسوع.

النعمة أساس الخلاص

١٣١– عندما نقول أنه لا خلاص بدون المسيح، فإننا نؤكد أنه هو نفسه النعمة التي أنعم بها علينا الآب، حسب شهادة الإنجيلي «مملوء نعمةً» (يو ١: ١٤)، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو ١: ١٦)، «وهو الذي يملأ الكل» (أف ١: ٢٣)؛ لأن فيه حل «ملء اللاهوت جسدياً» (كو ٢: ٩)، لذلك علينا أن ننتبه إلى هذه الحقيقة؛ لأن الرب لم يدعونا إلى حياة القداسة وتركنا لجهدنا الذاتي، بل أعطانا نعمةً لكي نتبعه ونسير معه، وننال ذات المرتبة الإلهية التي له بالحق، والتي لنا بالنعمة، ولذلك قال الرسول إننا نصير «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط ١: ٤)؛ لأن الشركة هي شركة في بنوة الابن لكي نصير أخوةً له حسب الدعوة السماوية، وهي شركة في الميراث «الذي لا يفنى .... ولا يضمحل» (١بط ١: ٤)، والأهم من كل هذا هو أننا نذوق حلاوة المحبة الأزلية، وهي التي يسكبها الآب علينا بالروح القدس حسب كلمات وشهادة الرسول بولس «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس» (رو ٥: ٥).

وما هي تلك النعمة التي يقدمها لنا الغنوصيون؟ هم فقراء في كل شيء. نحن فقراء بحسب الطبيعة، ولكن «أغنياء بالله». هم فقراء لأنهم لا يملكون سوى حياتهم الإنسانية وبعض قصص عن تقدم روحي يعتمد على الخيال، وعندما يتحدثون عن «الفناء»، فهم يتحدثون عن الموت الروحي. أمَّا نحن فإننا نجحد ذواتنا بسبب شدة محبتنا للرب، وجحد الذات بدون المحبة هو ممارسة خاطئة تعود إلى أمراضٍ روحية حذَّرَنا منها الشيوخ، وهي معروفةٌ لنا. أمَّا عندنا فبرهان محبة الله هو تجسُّده وموته المحيي وقيامته وصعوده، وهي الإعلانات التي فتحت لنا طريق الخلاص وأعطتنا شركة في حياة الثالوث.

بدون الثالوث لا توجد نعمة

١٣٢– أحذِّركم أيها الأخوة من توحيدٍ مزيف ينشره البعض عن جهل غير عالمين إن التوحيد بدون الثالوث هو تعليمٌ عن اللهِ الذي لم يُعطِ نعمةً للبشر؛ لأن

النعمةَ – وهي الشركة في الطبيعة الإلهية – مستحيلةٌ في تعليم الموحّدين؛ لأن الله الواحد ليس فيه شركة ولا توجد فيه علاقة داخلية، أي في جوهره، ولا يعرف الشركة، ولا يمارسها. هو واحدٌ فقط: حياته وكيانه الإلهي مغلقان أمام الخليقة. لا تملك الخليقة أن تنال منه سوى الشريعة، وعندما قال الرسول بولس: «لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح» (١تيمو ٢: ٥)، فقد أعلن صراحةً عدم نفع التعليم عن الله الواحد بدون وسيط واحد؛ لأن الوسيط يجمع الاثنين معاً في كيانه، وهو الله والإنسان، ولذلك قال إن الوسيط هو «الإنسان يسوع المسيح» الذي بسبب شركته في إنسانيتنا صار الوسيط؛ لأن الله بلا وسيط إلهٌ فقط، ولكنه بوسيطٍ، إلهٌ متجسدٌ؛ لأن الإنسان وحده لا يملك حق الوساطة؛ لأن الوسيط فتح لنا باب الحياة وصار «البكر»، و«الأول»، و«رئيس الكهنة»، و«الذبيحة» الذي على مذبح الروح القدس قدَّم ذاته لنا وإلى الآب: لنا؛ لأننا نحتاج إلى حياته، وإلى الآب؛ لأنه قال بعد أن أكمل خدمة كهنوته بالموت والقيامة «ها أنا والأولاد الذين أعطاني إياهم الآب» (عب ٢: ١٣)، وهذه هي مسرة الآب «ابني الحبيب الذي به سررت» (مت ٣: ١٧).

١٣٣– من الآب أخذ الابن حياته، فهو حيٌّ بالآب. وعندما نأخذ عطية ونعمة البنوة يصبح المسيح حياتنا، ولذلك قال الرسول: «لأن حياتكم مستترة مع الله في المسيح» (كو ٣: ٣). فالرب يسوع حياتنا، والتبني لا وجود له إلاَّ من خلال أقانيم الثالوث.

وإذا تعذَّر علينا – بسبب ضيق اللغة الإنسانية التي لا تتسع لسر الله في المسيح يسوع ربنا – ألاَّ نجد في كلمة التبني والبنوة أي إشارة إلى الروح القدس، فإننا باستقامة الإيمان نقول **إن المصدر هو الآب الذي منه الابن والروح القدس، ومنه كل الأشياء، والإعلان من الابن الذي فيه كل الأشياء، والعطاء بالروح القدس الذي به كل عطايا الحياة الأبدية. ولذلك نحن نأخذ التبني من الآب بالابن في الروح القدس.** ومن يجد صعوبة في معرفة دور الروح القدس عليه أن يراجع طقس الانضمام إلى الكنيسة؛ لأن الروح القدس هو الوسيط والشفيع الذي ينقل أسرار الابن إلينا، ولأنه مسح يسوع لكي يكون «المسيح» ولكي بواسطة الالتصاق

والمسحة والشركة الحميمة بين الروح والابن قبل كل الدهور، تُعلَن لنا هذه العلاقة الأبدية في الزمان، أي زمان التدبير الإلهي لكي ندرك أن ما يحدث في التدبير هو سابق على كل الدهور، ومع أن الابن تجسد «في ملء الزمان» (غلا ٤: ٤)، فإن «ملء الزمان» هو زمان التجديد الذي فيه امتلأت كل الدهور بالنعمة وبالإعلانات التي رُتِّبَت على حياة رب المجد يسوع المسيح ربنا.

عندما ننال التبني فإننا ننال فيه ومعه حلول الروح القدس، ليس فقط لأن الروح في الآب وفي الابن، بل لأن الروح هو ختم «Coqpaγic» الثالوث، أي الملامح Χαρακτηρ [1] غير المنظورة للحياة الأبدية، وهي التقديس.

والتقديس هو الكمال الإلهي الذي يميِّز الله عن المخلوقات حيث لا يوجد «شبه» أو مماثلة أو مطابقة. ولذلك عندما نتقدس بالروح القدس لا نشترك مع الخليقة المنظورة أو غير المنظورة في أي «ملامح» «Χαρακτηρ» بل هي ملامح الابن المتجسد، ملامح الشكل المحيي[٢] الذي به سوف نستنير؛ لأن الحياة النورانية في كورة الأحياء إلى الأبد لا تأخذ قوتها من تراب الأرض، بل تقتات بالروح القدس، و«بالمن المخفي»، أي الخبز السماوي الذي ليس من هذه الخليقة المنظورة الأرضية؛ لأن ابن الله لم يتجسد لكي يبقى في الأرض، أرضياً، بل حوَّل في أُقنومه الإلهي ما هو أرضي إلى ما هو سماوي. فقد حوَّل الأصل الإنساني أي الولادة بتجسده، وحوَّلها عندما وُلِدَ بالروح القدس من العذراء القديسة مريم، وحوَّل العلاقة مع الله من الشريعة إلى روح الحياة بالمسحة الإلهية في معموديته، فَحَلَّ روح الحياة محل الشريعة الموسوية. وحوَّل الموت إلى حياةٍ بالصليب، وحوَّل القبر إلى انبعاثٍ لحياة عدم الفساد، وحوَّل المصير من البقاء على الأرض إلى الحياة السماوية في ملكوت السماوات. وبعدما أكمل كل هذا في كيانه الإلهي المتجسد، جلس عن يمين الآب وسكب روح الحياة لكي –

(١) وردت الكلمة في عبرانيين ١: ٣ وهي من أهم الكلمات اليونانية الخاصة بالوجود الإلهي. وفي اللغة اليونانية يوجد تداخل بين كلمتي «ملامح»، «ختم» ولذلك ترجمت الكلمة اليونانية (Χαρακτηρ) إلى ختم*stamp impress* (راجع المتنوعات للقديس أكليمنضوس ٧: ١٢). وأحيانا تستخدم بمعنى ''وجه'' ونحن نحمل ملامح المسيح كمؤمنين (القديس ميثوديوس *Sgmp.*٨). والمعمودية علامة *Mark*. ومن أهم مكونات هذه العلامة هي المحبة (ذهبي الفم عظة 6: 3 على رسالة تيطس).

(٢) راجع صلاة القسمة (لنضيء بشكلك المحيي).

به – يشركنا في التحول العظيم والسري الذي به ننتقل من الحياة الترابية إلى حياة سمائية. لقد تعلمنا كل هذا من الآباء الرسل القديسين ومعلمي الكنيسة، وحُفِظَ لنا في الليتورجية المقدسة.

وماذا يمكننا أن نضيف بعد هذا كله؛ لأننا إذا عُدنا إلى تحول الأصل الإنساني من الوالدين إلى الروح القدس وبسبب ولادة الرب من العذراء، وجدنا أن الثالوث هو مصدر النعمة؛ لأن الوسيط (الرب يسوع المسيح) هو ابن الله، ابن الآب الذي اتحد بطبعنا وحمل في كيانه الناسوت الذي وُلِدَ من الروح القدس لكي يؤسس بذلك ولادتنا وأصلنا الجديد.

وعندما صار الروح القدس، روح الحياة هو الوسيط بين الله والإنسان وحلَّت الحياة محل «خدمة الموت» (٢كور ٣: ٧) وصارت الشريعة في القلب وليس في الحجر (أرميا ٣١: ٣٣)، صار الروح القدس «يلقن» أسرار الابن للمؤمنين، ويقدم المؤمنين إلى الابن لكي يقدمهم إلى الآب، وهو ما تعجز عنه الشريعة الموسوية؛ لأن الشريعة هي «النواهي» وهي «المباحات» (المسموحات) وهي لا تقدمنا إلى الله، بل تعيدنا إلى ذواتنا. أمَّا الروح فهو يأخذ ملامح الابن المتجسد، أي تلك التي كُوِّنت في رأس الخليقة الجديدة آدم الأخير الرب من السماء (١ كور ١٥: ٤٧) ويعطيها لنا لكي ندخل إلى ميراثنا الجديد في الدهر الآتي.

لذلك مسح الروح القدس ربنا يسوع لكي ننال نحن فيه هذه المسحة، ولذلك يقول الرسول: «الذي يثبتنا معكم في المسيح — رأس الخليقة الجديد — وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وأعطانا عربون الروح في قلوبنا» (٢كور ١: ٣١ – ٣٢)، لأننا نثبت في المسيح أي الحياة الجديدة المحصورة بين الصليب والقيامة؛ لأننا مع المسيح صُلبنا ونتوقع «التبني فداء أجسادنا» (رو ٨: ٢٣).

١٣٤– هذه الملامح الجديدة ليست مِنَّا، ولا هي من الخليقة الأولى، بل هي من المسيح وفي المسيح بالروح القدس. نحن نحس هذه الحياة، وأحيانا في زيارات النعمة نكاد نلمسها، ولكننا نبقى محصورين في الصليب، أي صلب الأهواء والجسد إلى أن تحين «القيامة العامة» للأجساد؛ لأننا ذقنا قيامة الروح ونحيا فيها

وبها بقوة «الحي إلى الأبد» ربنا يسوع المسيح، ولذلك أعود فأكرر: إن هذه الملامح الجديدة هي التي تحوِّل الكلمات وتؤكد المعاني؛ لأن الكلمات تُستعمل حسب المحبة، ومعانيها يحددها تجسد ابن الله، وموته المحيي، وقيامته المجيدة، وشركتنا في قداسة الروح القدس.

١٣٥- فما هو معنى كلمة «الآب» حسب ملامح الخليقة الجديدة؟ الجواب هو في كلمات الرب المحيية في العظة على الجبل، وهي دعوتنا للتشبه بالآب السماوي، ليس حسب خيال وقدرات الإنسان، بل حسب الإعلان الذي جاء من الرب يسوع المسيح نفسه، ولذلك كل كلام عن الآب يقاس بدقةٍ على الآتي:

أ- علاقة الآب بالابن، أي العلاقة الأزلية السابقة لخلق الكون والإنسان بشكل خاص.

ب- تعليم الرب يسوع كما ورد في الأناجيل وكتابات الرسل والآباء معلمي الكنيسة الجامعة، فقد علمنا الرب يسوع المسيح عن الآب معلناً لنا أُبوته الحقيقية من خلال محبته للخطاة، وصلاحه الذاتي الذي يجعله يعطي كل شيء للبشر.

ج- عطية التبني التي لا وجود لها بدون أزلية الابن الوحيد الذي هو ابن الآب حسب الجوهر، ونحن أبناء الآب حسب النعمة المعلنة في الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح. لذلك نحن لا نتكلم حسبما نشاء، بل نتكلم بأسرار الثالوث كما أُعلنت لنا في مصادرها الأولى، وهي تعليم الرب في الأناجيل، وحدود الحق الإلهي الذي ثبتته المجامع المقدسة مثل المجمع العظيم في ٣٢٥م في مدينة نيقية، والمجمع العظيم في مدينة القسطنطينية ٣٨١م والمجمع الذي شجب نسطور في مدينة أفسس ٤٣١م لأنه أنكر اتحاد اللاهوت بالناسوت، فهدم في قلبه وفكره وحياته أساس شركتنا في الله.

١٣٦- ومن التعليم المقدس ندرك أن كل كلماتنا يجب أن تضبط بدقة على تدبير الخلاص، وإن تدبير الخلاص أساسه في وحدة جوهر الثالوث، وإن الثالوث مُعلن بالابن وبالروح القدس.

هذه هي نهاية الكتاب الأول

للمعلم الحكيم الأب صفرونيوس مدبر الرهبان بدير والدة الإله

نسخ الكتاب الشماس سلوانس من أسقيط القديس مكاريوس

وضبط معانيه وكلماته (راجع المخطوطة)

الأب ثيؤدوروس

الكتاب الثاني

الثالوث القدوس
وتدبير الخلاص

الثالوث القدوس وتدبير الخلاص[1]

١– التدبير هو رسمٌ إلهيٌ مُعلنٌ في الزمان وأساسه في الأزل. مُعطى لنا حسب النعمة، ولكن مصدره هو الثالوث. يوحِّد حسب الإعلان، ويترع الانقسام؛ لأنه شركة في الواحد في الثالوث. ينظِّم حياة ومصير الخليقة الجديدة، ويعطي لها في الزمان الحاضر «العربون»[2] إلى أن يأتي الدهر الجديد الذي لا تغرب فيه شمس الحياة بالموت، بل تُشرق دائماً بنور أزلي يَهَب الاستنارة من الآب بالابن في الروح القدس.

٢– نرى التدبير في رسمين (صورتين): الصورة الأولى، الخليقة التي ساد عليها الموت. والصورة الثانية، الخليقة الناهضة من أوجاع الموت والفساد إلى حياة «حرية مجد أولاد الله» (رو ٨: ٢١). وقد قدَّم الرسول لنا هاتين الصورتين في عبارة موجزة تحتاج إلى شرحٍ دقيق؛ لأنه يقول لنا: «لأننا نحن الذين في سكن إقامتنا ⲁⲛⲟⲛ ⲇⲉ ⲛⲏⲉⲧϣⲟⲡ ϧⲉⲛ ⲛⲁⲓ ⲙⲁⲛϣⲱⲡⲓ نئن مُثقَلين إذ لسنا نريد أن نخلعها، بل أن نلبس فوقها لكي يُبتَلع المائت من الحياة" (٢كور ٥: ٤).

فالخليقة الأولى أمامنا لا تحتاج إلى شرح أو تقديم، ولكنها مُثقَلة تحت رباطات الفساد وسلطان الموت الذي فيه وبه تنحلّ كل العناصر المنظورة، ونرى انحلالها بشكل ظاهر لا يحتاج إلى شرح المعلمين؛ لأن الموت الجسداني يسعى إلينا بصور مختلفة ومتنوعة، لا نملك نحن أن نلاشيها، بل بواسطة الأدوية والسلوك الحكيم الذي يجعل قوتها تحت سيطرة مؤقتة إلى أن يندفع الفساد ويُبطل حكمة الأطباء.

(١) عنوان أصلي، وربما من وضع الناسخ.

(٢) «الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا» (٢كور ١: ٢٢). «ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح» (٢كور ٥: ٥).»

كما يظهر لنا انحلال الخليقة الأولى بكل وضوح؛ لأن الذين سبقونا رقدوا في القبور وكل ما تركوه لنا لا يدوم، بل يفسد حسب فساد كل ما هو منظور.

٣- لكن يا إخوة، الانحلال الداخلي (الروحي) يقول عنه الرسول: «كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا» (أف ٢: ١)؛ لأن الموت الروحي صعب على غير الذين استناروا بنور الحياة أن يدركونه؛ لأن الميِّت لا يفهم ولا يحس ولا يقرر، بل هو تحت سلطان الأغلال.

أمَّا نحن الذين أدركتنا نعمة القيامة في المسيح في هذا الزمان، فإننا نئن مثقَلين كما قال الرسول؛ لأننا نرى مكان أو مسكن إقامتنا، وهو حقاً يهتز أمام الأمراض وضيقات الحياة الجسدانية، ولكن انحلال الكيان الإنساني هو انحلال داخلي في (الإنسان الباطن) حسب تعبير الرسول[1]، وهو انحلالٌ لا نراه بصورة كاملة؛ لأن العقل غير المستنير بالروح القدس هو عقل آدم الأول، وليس عقل إنسان القيامة. الإنسان الجديد المخلوق حسب الله، لا يُدرِك سبب الموت الروحي لأنه ميِّت.

أمَّا نحن الذين أدركتنا نعمة الحياة الأبدية في يسوع المسيح، فإننا نرى بكل يقين أن الموت الروحي يأتي أولاً في صورة مألوفة لنا وهي استقلال الإنسان، ورفض الشركة، وترك الصورة الإلهية والتمسك بالصورة الفاسدة، صورة آدم الأول، الصورة التي ترى أن الاعتداد بالكلام أو بوسائل أخرى هو قوة، وإن الشتائم والتجاديف حكمة ودفاع عن النفس، وإن الكبرياء والسرقة والزنى والقتل هي وسائل للحياة، ولا ترى فيها بالمرة أنها «تعدٍّ» كما قال الإنجيلي يوحنا الرسول إن «الخطية هي التعدِّي» (١ يو ٣: ٤)، أي الخروج على الحدود التي رُسِمَت للإنسان، وهي حدود الحياة بدون الله كخالق ومدبِّر للكل، وجلوس الإنسان على عرش الله حاكماً وقاضياً في أمور الكون حسب مقاييس وشريعة الخير والشر التي ارتضاها الإنسان لنفسه و لم يحددها من خلال الشركة.

لذلك السبب، أيها الإخوة، أرجوكم - في رب الحياة يسوع المسيح - أن تلاحظوا أن كل الخطايا والتعديات هي صورة الموت الروحي، وهي صورة لا

(١) «لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن» (أف ٣: ١٦).

يحاربها العالم، بل يعطي لها الشرعية ويدعِّمها بالقوة اللازمة؛ لأنها تخدم تطلعات الإنسان وشهواته الفاسدة.

وعندما نسأل الموحِّدين عن الخلاص من الموت الروحي، لا نسمع إجابة؛ لأن توحيد هؤلاء بلا تدبير، وهو توحيد يقبل حالة الإنسان الراهنة ويسقط في بئر الخطايا مُعلناً رحمة الله وغفرانه بلا تجديد أو تجلٍّ للحياة الإنسانية، وبذلك حَكم على نفسه على أنه ليس من الله، بل من المعرفة الطبيعية النابعة من الموت، التي ترى أن كل ما في الوجود خاضع للحياة الإنسانية، وسلطان شريعة الخير والشر كما حددها الإنسان، وليس كما حددها الإنسان مع الله من خلال الشركة؛ لأن المزمور الثامن يعلن في صراحةٍ تامة لا لبس فيها، أن الإنسان هو ملكٌ متوَّجٌ من الله على كل الخليقة لكي يسود على الكل من خلال الشركة لا من خلال الاستقلال أو الابتعاد عن الله[1].

لكن الموحِّدين يقعون في جهلٍ، هو جهل حقيقة الفساد الداخلي الذي يجعل الإنسان الخاضع للموت يموت كإلهٍ مزيَّفٍ قال عنه المزمور: «لا يعلمون ولا يفهمون وفي الظلمة يتمشُّون – مع قوات الظلمة – حتى أن كل أسس الأرض تتزعزع»؛ لأنهم يمدون أيديهم إلى ما هو أبعد من حدود خلقهم (راجع مز ٨٢: ٥)، ولذلك يقول المزمور: «أنا قلت أنكم آلهة (وهي الصورة الإلهية) وبنو العلي كلكم (دون تمييز بين جنس أو لغة أو شعب) لكن مثل الناس تموتون (لأن الموت يدركنا) وكأحد الرؤساء تسقطون (أي الشيطان)» (راجع مز ٨٢: ٦)، ولذلك يختم المزمور: «قم يا الله أحكم على الأرض (أي البشر الذين صاروا ترابيين) لأنك أنت يا الله ملك كل الخليقة» (راجع مز ٨٢: ٧).

٤– وقد ذكرنا من قبل إنَّ الله هو نور الحياة؛ لأن الخالق هو واهب كل الأشياء وجودها وحياتها. ولكن إنْ كان الإنسان هو نور الحياة، صارت الحياة مظلمةً.

أمَّا الآن وقد صارت عتمة وظلال في كورة مصر – التي قبلت بشارة الإنجيل

---

(١) «أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ!. مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ. إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا. فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ!. وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً. وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ».

من معلمنا مرقس البشير – فقد ساد الظلام في دوائر وبيوت الغنوصيين؛ لأنهم يدَّعون أن الخلاص هو بمعرفة الخير والشر، وعبادة الله على هذا الأساس.

أمَّا نحن، فإن الإنجيل – بشارة الحياة – يؤكد لنا أن معرفة الخير والشر مرَّت بمرحلة الطفولة التي ذكرها الرسول: «لَمَّا كنت طفلاً مثل طفلٍ كنت أفهم» (راجع ١كور ١٣: ١١)، وهي تحديد الخير والشر على أساس الشريعةٍ الموسوية، ولكن لما قال الرسول: «ولكن لما صرت رجلاً أبطلت ما للطفل»، فقد جاء الكمال بالمسيح، وهو لذلك يقول إنه يسعى من أجل الذي جاء الرب يسوع لأجله، أي الكمال، وهو الذي جعل معرفة الخير والشر من خلال معرفتنا بالثالوث القدوس؛ **لأننا لا نقبل الحلال والحرام كأساس للسلوك، بل ما هو من المحبة والشركة كأساس للسلوك**؛ لأنه لهذا وضع الرب يسوع الكنيسةَ في العالم، معطياً لها أن تكون أساس الخليقة الجديدة والبناء الروحي الكامل الذي فيه يجمع الكل معاً في وحدةٍ هي وحدة جسد المسيح، حسب كلمات التقوى: «وأنتم جسد المسيح وأعضاؤه كأفراد» (راجع ١كور ١٢: ١٢).

لندرك الذي لأجله أدركنا المسيح، وهو الوحدة، وهي لا يمكن أن تبنى على أساس التمييز بين الحلال والحرام، بل على أساس الحياة المشتركة؛ لأن تجنب الشر لا يخلق الوحدة، بل التآلف والاجتماع، هو بالثالوث القدوس الذي يجعلنا واحداً.

٥– هكذا نرى ثاؤريا التدبير:

– وحدة أساسها اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد.

– وشركة في الابن بسبب التجسد، والمسحة في الأردن، والصلب والقيامة، والجلوس عن يمين الآب، وحلول الروح القدس.

عندما نرى ثاؤريا التدبير، فإننا ندرك منها أساسات الشركة؛ لأن الرب يسوع المسيح «رئيس الحياة»، أي مصدرها الوحيد، الذي أظهر لنا الحياة الإنسانيةَ بتجسده، وأعلن مجد الحياة الإلهية في أُقنومه، وأعلن شركته في الآب والروح القدس بالسلوك أي بالعمل، وبالتعليم، وبالمعجزات.

كيف أعلن الرب تدبير الخلاص والشركة؟

٦- الخلاص هو شركتنا في الثالوث، وهي شركة لا وجود لها إلاَّ بتجسد الابن، الذي في تجسُّده جمعَ الصليب والقيامةَ معاً؛ لأنه - كشخص - أعلن لنا سلطانه على الموت بالصليب الذي هو علامة الانتصار، وقوته التي تجعل القيامة تسري في كياننا الميِّت، وتعيدنا إلى حياةٍ أبديةٍ بصورةٍ أكمل وأجمل وأعظم، وهي صورة المسيح الحي القائم من الأموات بمجد الآب وبقوة الروح القدس.

أعلن الربُ أساس الثاؤريا، ثاؤريا التدبير على ثلاث مراحل:

أولاً: بالميلاد من الروح القدس، ومن العذراء القديسة مريم، أي ثبات الاتحاد بين اللاهوت والناسوت بواسطة الروح القدس الذي قدَّم له الناسوت من والدة الإله.

ثانياً: بمسحة الروح القدس وبالصلب وبالقيامة حيث اشترك روح الحياة في غلبة الموت بالصليب، وفي هبة الحياة العديمة الفساد؛ لأن عطية الجسد والنفس الإنسانية بواسطة الروح القدس في التجسُّد، كمُلت بغلبة الموت والفساد.

ثالثاً: بالصعود ودخول السماء عينها، ولأن الروح مسح الابن المتجسِّد، أي اشترك معه في كل تدبير الخلاص معلناً لنا بعد ذلك شهادته عن تجسد الرب وموته المحيي وقيامته المقدسة.

الإعلانات الإلهية في تدبير التجسُّد

٧- عندما بشَّر الملاك والدة الإله بالحبَل الإلهي، كان أول الإعلانات هو حلول الروح القدس عليها لكي تلد ابن الله بعد أن تحبل به. هكذا أُعلنت لنا أول أعمال

«الرب المحيي» روح الآب. وهكذا أيضاً أُعلن لنا معنى «الباراكليت» المعزِّي؛ لأن عزاءِ الإنسانية هو أن تولد من جديد بميلاد لا يقوى عليه الموت. ميلادٌ لحياة جديدة، أُعلن لنا بما هو منظور، أي بالحبَل وتجسُّد ابن الله وولادته حسب القوانين الخاصة بالخليقة الأولى، أي تلك التي تحدَّث عنها سفر الخليقة الأول (التكوين)، والآن تُعلن في سفر الخليقة الجديدة (الرب يسوع) وأمه القديسة مريم التي حبلت بالروح القدس أي بواسطته. وبمجيء الخليقة إلى عصر جديد أو عهد جديد هو بميلاد الرب ميلاداً إنسانياً من بتولٍ لا تعرف رجلاً؛ لأن الإنسانية الأولى كما قال الرسول هي «الترابيون»[1] (١كور ١٥: ٤٨). أمّا الإنسانية الجديدة، فهي «الروحانيون» أي المولودون من الله (يو ١: ١٣ - ١٤) ميلاداً جديداً من الروح القدس[2].

٨- ماذا أُعلن لنا؟

أولاً: تجسُّد ابن الله.

ثانياً: عمل الروح القدس.

ثالثاً: ميلاد الخليقة الجديدة التي وُلِدَ رأسها في بيت لحم اليهودية.

ونحن لا نفصل بين تجسُّد ابن الله وعمل الروح القدس، وميلاد الخليقة الجديدة؛ لأننا ندرك أن ما جاء الرب يسوع لكي يبنيه - أي «البناء الجديد من الله»[3] (٢كور ٥: ١) — لا يقع خارج عمله، ولا هو بعيدٌ عن أُقنومه، بل يتم في داخل الإله المتجسِّد؛ لأنه يُكوِّن فيه الإنسانية الجديدة المخلوقة حسب الله، الإنسانية التي لا تموت.

لماذا تُخلق فيه (أي بتحوُّل الإنسانية التي أخذها من والدة الإله إلى إنسانية عديمة الموت، ولها شركة دائمة أبدية في الثالوث)؟ لأنه لا ضمان لأي إنسانية أن تحيا حياة المجد والقوة والأبدية إلاَّ إذا كانت فيه باتحادٍ لا يقبل الانفصال. هذا هو دواء السقوط الأول، أي سقوط آدم، وليس آدم فقط، بل ولكل سقوطٍ حتى

(١) «كما هو الترابي هكذا الترابيون أيضاً.وكما هو السماوي هكذا السماويون أيضاً».

(٢) «الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله».

(٣) «لأننا نعلم انه إن نقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدي».

للذين نالوا ختم البنوة وارتدُّوا عن الإيمان؛ فإنهم يعودون ليس فقط بسبب رحمة الله ومحبته للخطاة، بل لأن ميراثهم الأبدي «محفوظ» في المسيح يسوع ربنا.

نعم – أيها الأحباء – لقد وُلدنا **معه وفيه وبه. معه** أي في الزمان حسب النبوات. **وفيه** لأن إنسانيتنا فيه إلى الأبد. **وبه** لأنه هو الذي اختار أن يعطينا هذه الهبة والعطية الفائقة التي لا يعلو عليها أي عطية. ولأننا **معه**، فهو يخدم لنا المائدة السماوية. **وفيه** عندما يدعونا إلى الخدمة. **وبه** عندما نأخذه طعاماً سماوياً للقيامة وحياة المجد.

٩– نحن **فيه** بسبب تواضعه ومحبته، ونحن **فيه** لأن كل شيءٍ «**به**»، وعندما نقول «**به**» فهو المصدر أو الينبوع، وهو الوسيلة وهو الهدف، ولذلك السبب نقول: إن الرب يسوع المسيح هو حياتنا وقيامتنا كلنا.

نحن لا نسعى إلى هدفٍ يختلف عن الوسيلة، ولا إلى وسيلةٍ هي غير المصدر، بل الكل معاً هو شخص الرب يسوع المسيح الذي «منه وبه وفيه كل الأشياء» كما قال الرسول (رو ١١: ٣٦).

١٠– الإعلانات الإلهية حسب تجسُّد ابن الله هو جوهر الصلاة الشخصية، وصلوات الخِدم الكنسية (الليتورجيات، وقد وردت بصيغة الجمع في النص القبطي).

حسب تجسُّد ابن الله أُعلن لنا التبني، وأُعلن لنا أصل الحياة كأبناء الله، أي يسوع المسيح. **نحن نصلِّي فيه، ولذلك أضاف الآباء حسني العبادة إلى الصلاة الربانية «بالمسيح يسوع ربنا»**، وهي ما يرتِّل علناً في صلواتنا مؤكدين بذلك، ليس فقط امتلاء الكنيسة من الله، بل أيضاً امتلاء حياتنا من حياته. هو حياتنا، ولذلك نحن نصلِّي فيه كرأس الخليقة الجديدة. هو رجاء قبول صلواتنا، وهو صلواتنا نفسها.

١١– نحن نصلِّي صلاة يسوع «يا ربي يسوع المسيح ابن الله الحي ارحمني أنا الخاطئ»، وعبارات أخرى يختارها كل واحدٍ منا حسب احتياجه. **لكننا نصلِّي يسوع نفسه**، نصلِّي تجسُّده من والدة الإله، ونصلِّي ميلاده، ومعموديته، وتجاربه، وتعليمه، وموته المحيي، وقيامته المجيدة، وصعوده إلى السموات، ونصلِّي مجيئه الثاني. نحن نصلِّي يسوع في معجزاته، وعند تلاوة الأسفار المقدسة.

هو الإفخولوجيون[1] الحي الذي نحمله في داخلنا، والذي به وفيه ومعه نكتبه صلاةً أبديةً على قلوبنا بلا حروفٍ، وبلا كلماتٍ، بل بإعلانات الروح القدس الذي غرس حياته فينا؛ لأن الروح منحه الجسد والنفس الإنسانية لكي يمنحنا الإعلان الجديد بأننا سننال حياةً جديدةً سماويةً، حياةً إنسانيةً مشرقةً ومتألقةً بالروح القدس، أساسها في تجسُّد الابن، وقوتها في عمل الروح الذي غرسها ويسقيها؛ لأننا «اعتمدنا إلى جسدٍ واحدٍ، وشربنا من الروح القدس الواحد» (راجع ١كور ١٢: ١٢ - ١٣)؛ لأننا حسب إعلان ابن الله ننال حياةً فيه وبه ومعه: **فيه** أي بإنسانيتنا، و**به** لأنه الوسيط، و**معه** لأنه أدخلنا إلى شركته في الآب وفي الروح كوسيط ورأس جديد للإنسانية.

هذا هو أساس صلواتنا، أي يسوع نفسه. ولذلك كان الآباء الذين عاشوا بيننا والذين لا زالوا في رتبة المُعلِّمين يقولون لنا إن أردت أن تفهم الأسفار المقدسة كلها «صَلِّ يسوع»، أي ليكن هو صلاتك، أي ليكن هو الإفخولوجيون الحي الذي تحمله معك وفيك لكي تفتح به ختوم الأسفار ولا تسقط من الإيمان.

صَلِّ يسوع على هذا النحو:

- أعطني شركة في بنوتك يا ابن الله؛ لأنني بالطبيعة عبد، وحسب غنى نعمتك ابن.

- لقد وُلدتَ من أجلي أنا الخاطئ من والدة الإله.

- أعطني دائماً أن أكون معك وفيك وبك:

+ معك حسب كلمتك المحيية،

+ وفيك لأنني ملتصق بك حسب سر ميلادي الجديد،

+ وبك لأنك يا رب قوتي وحياتي.

- ليكن روحك القدوس في قلبي؛ لكي أُولد في كل كلمة وفعل وحركة؛ لكي أحيا بالروح وأتنفس «نسمة الحياة» التي أعطيتها لتلاميذك القديسين بعد قيامتك (يو ٢٠: ٢٢).

---

(١) الأفخولوجيون هو الكتاب الذي يحتوي على الصلوات الليتورجية، وهو ما يعرف عندنا بالخولاجي المقدس، والكاتب يقصد أن يكون يسوع نفسه هو كتاب صلواتنا.

وعلى هذا النحو صَلِّ الحبَل، والبشارة، والتجسُّد، والرعاة، والمجوس، وكل حياة الرب. صَلِّ تجاربه يوم الأربعاء، وصَلِّ موته المحيي يوم الجمعة، وصَلِّ قيامته يومي السبت والأحد، وصَلِّ تعليمه في باقي الأيام، وصَلِّ معجزاته في يوم الخميس لا سيما سر المائدة السماوية السرية.

ومن لديه حس روحي متقدِّم يرى كل ذلك في الثيؤطوكيات التي رتَّبتها الكنيسة الجامعة حيث أساس كل صلاة هو تجسُّد ابن الله الحي.

ما أُعلن عن الثالوث في تجسُّد ابن الله

١٢- قلنا سابقاً إننا نؤمن أن الآب أرسل ابنه، وهذا يعني أنه جاء بعطية التبني لنصير أبناء الله. فالتجسُّد هو أساس هذه العطية، ولذلك – حتى بعد القيامة – يقول المخلِّص والفادي: «أصعد إلى أبي وأبيكم» (يو ٢٠: ١٧)؛ لأن صعود المخلِّص أكَّد بنوتنا للآب؛ لأنه هو رأس البشرية الجديدة التي يحملها في أُقنومه الإلهي، والتي بعد أن أباد الموت وقوات الجحيم، نقل الإنسان إلى مجده الإلهي.

نحن لا نأخذ عطيةً من عطايا الله بواسطة عمل واحد من أعمال الابن، بل بشركتنا في الابن في تجسُّده، وكل حياته التي ملأها من خيرات وكنوز اللاهوت، ندخل إلى «النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رو ٥: ٢). لأن التجسُّد يجمع كل أعمال الرب، ولأن أعمال الرب تمت في تجسُّده، أي في جسده، الموت والقيامة وقبل ذلك مسحة الروح القدس.

ومع أننا نحتفل بأعياد الرب حسب ترتيب كل عيد (في السنة الطقسية) إلاَّ أننا يجب أن نتذكر أننا في كل عيد نتناول جسد الرب ودمه؛ لأن المسيح هو حياتنا، وهو الذي أعطانا شركةً فيه، ولذلك عندما نحتفل بمعمودية الرب ونقدِّس المياه، لا نقف عند معمودية الرب ونهمل موته المحيي؛ لأن الليتورجية لا تسمح لنا بهذا التقصير، بل تدعونا إلى أن نأخذ من ملئه حسب احتياجنا الروحي.

وحسب ترتيب الكنيسة نحتفل بموت الرب وقيامته في كل صلواتنا، أمَّا في يوم الجمعة، يوم تذكار صلب المخلِّص، فإننا نحتفل بموته المحيي عنَّا أولاً، وراحته

في القبر في سبت الراحة العظيم، وقيامته فجر الأحد ظافراً بالموت هادماً قوة الجحيم معلناً خلاصنا؛ لأننا في خميس الأسرار (خميس العهد) نقيم القداس ونقدِّم الذبيحة تقديماً كاملاً؛ لأنها من إرادة الرب حسب قول الرسول: «لأننا بهذه المشيئة مقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح» (عب ١٠: ١٠).

١٣– لقد أُعلن الثالوث – كمخلِّصٍ لنا – في تجسُّد الابن؛ لأن الروح القدس أعدَّ الجسد بعد أن قدَّس العذراء والدةً الإله. والآب أعلن محبته لنا بمجيء الابن. لقد جاء بالبنوة لكي ندخل شركة بنوته لكي نكون مثله، ولكي يكون لنا شركة في الآب الذي هو مصدر كل شيء. ونحن مثل الابن نتصل بالآب بواسطة الابن، فهو الصلة، وهو الرأس أي بدايتنا، كما أن الآب هو رأس الابن أي بدايته، أي أصله، فهو بلا بدء حسب الزمان، وله بدء ⲁⲣⲭⲏ في الآب الذي بلا بدء؛ لأن البدء ليس زمانياً؛ لأن اللاهوت بلا زمان، بل هو خالق الزمان. بدءٌ سبق كل بدء، ولذلك هو البدء، وكل ما عداه تابع له وخاضع لسلطانه، ولذلك يوصف الرب بأنه الألف A والياء Ω البداية والنهاية. لقد ردنا الابن بتجسُّده إلى بدء كل الكائنات العاقلة – أي البشر والملائكة – أي الآب، وجعل بدايتنا هو الله الآب نفسه، ولذلك وُلِدَ بدون زرع بشر حتى فيه تعود الطبيعة الإنسانية إلى أصلها ومصدر وجودها، أي الآب، وفيه نرتقي إلى الشركة في الثالوث.

معمودية الرب في الأردن

١٤– لقد اعتمد الرب لكي يعطي لنا مسحةً أفضل من مسحة ملوك وأنبياء بني إسرائيل، فقد انسكب عليه الروح القدس، أي على ناسوته. ونحن نقول: «عليه» مؤكِّدين وحدة الأُقنوم وعدم انفصال الطبيعتين؛ لأن ثبات الناسوت هو في اتحاده بابن الله الكلمة الأزلي المساوي للآب حسب الجوهر، والمساوي لنا حسب تدبير التجسُّد.

هكذا جمع الابن المتجسِّد في أُقنومه المساواة الأزلية حسب اللاهوت، والمساواة التدبيرية حسب تجسُّده؛ لكي يكون رأس الخليقة الجديدة جاذباً إياها إلى معرفة الآب ومعطياً لها كل القوى والنِّعَم التي تسمح لها بالشركة الأبدية، وذلك بمجيء الروح القدس المعزي وحلوله على الابن المتجسِّد مُعلناً لنا أن المسحة ليست قولاً ولا هي

كلمة تُقال رغم صدق كل أقوال الله، ولكنها عطية ظاهرة تُعطى من الآب بإعلان إلهي: «هذا هو ابني الحبيب الذي فيه مسرتي» (راجع مت ٣: ١٧) مؤكِّداً لنا أن كل ما سوف يعطيه الابن والروح هو مسرة واحدة للثالوث القدوس الواحد بالجوهر.

وعندما مُسِحَ بعد صعوده من الماء، فقد حدث أمران كلاهما فائق:

أولاً: رغم أن الابن واحد بالجوهر مع الآب والروح القدس، والروح القدس ليس غريباً عنه، بل هو واحدٌ معه في ذات الجوهر، كما أن الناسوت هو الذي كوَّنه الروح القدس في أحشاء البتول والدة الإله، إلاَّ أن الناسوت المتحد بأُقنوم الابن، والابن نفسه «رئيس الحياة» (أع ٣: ١٥) كان محتاجاً لأنْ يُعلِن المسحة لنا، فقد مُسِحَ «لأجلنا»، و«لأجلنا» أُعلنت فيه مسرة الآب بالإعلان السماوي، ومسرة الروح بالحلول عليه في شكل حمامة.

وعندما مُسِحَ صار «المسيح»، وصار لنا نحن – بسبب مسحته – ذلك الاسم «الممسوحين»، والذي صار بعد ذلك في إنطاكية «المسيحيين» (أع ١١: ٢٦).

كان الأنبياء يمسحون الملوك، مثلما مَسح صموئيل داوود (١صم ١٦: ١١ - ١٣)، ولكن الآن الذي يمسحنا ليس نبيٌّ، بل «رئيس الحياة»، وهو لا يمسحنا بأي مسحة، بل بمسحته من فوق من عند الآب مؤهِّلاً إيانا لأنْ نكون شركاء في مسحته. وهي المسحة التي نالت الثبات الأبدي بواسطته؛ لأن الروح صار يسكن فيه، ويحل عليه — كمسيح – بسببنا، مؤكِّداً لنا أننا سننال ذات القوة، وأننا سنعمل معه، ولذلكً قال: «الأعمال التي أعملها الآن ستعملونها وستعملون ما هو أعظم منها» (راجع يو ١٤: ١٢)، مؤكداً أن الملء سوف يكمُل بنا بواسطته، أي كمال عمل الله الذي سيقوم به الرسل والشهداء والمُعلمين نائلين شركة في أعمال الرب التي سوف تملأ المسكونة.

ثانياً: لقد فتح الرب بمسحته ينبوع الروح القدس للإنسانية. هو بذاته فتح لنا هذا الينبوع. ونحن لم نأخذ مواهب القوة التي أخذها شمشون؛ لأن القوة الجسدانية ليست هي المطلوبة في التجديد. لقد كانت — هذه القوة –

مطلوبة لمقاومة قوة الآلهة الوثنية، أي الشياطين. أمَّا الآن، وقد نقل الرب التجديد إلى قلب الإنسان، صار من الضروري أن تُنقل قوة الروح إلى الإنسان «الباطن» الجديد المخلوق حسب الله (أف ٤: ٢٤)، لذا أخذنا مواهب روحية لم تكن معروفة للأنبياء مثل طرد الشياطين. و لم تعد موهبة النبوة خاصة وقاصرة على أحداث المستقبل فقط، بل على خفايا وأسرار القلب، وهي أصعب بكثير؛ لأن قلب الإنسان أعمق من أعماق البحار، ومظلم لا يعرفه الإنسان نفسه بدون روح الحكمة وربنا يسوع المسيح الذي يسكن فينا معلناً لنا أسرار قلوبنا.

وحسب غنى الروح أخذنا مواهب الشفاء والتكلم بالألسنة الجديدة (مر ١٦: ٩) ووضع اليد لإقامة خدام الكلمة، ومواهب الكهنوت، وتقديس الخليقة: الماء، والخبز والخمر، والزيت المقدس، الميرون، وتقديس الأيقونات؛ لأننا بسبب معمودية الرب وتجلِّي الرب على جبل طابور، دخلنا تجديد الخليقة التي صارت تتجلَّى بالنور الإلهي.

وقد شرح الأب ديونيسيوس معلمنا الفاضل كل ذلك في كتابه الذي وضع فيه تسليم الآباء. ونكتفي بما ذكره معلمنا الفاضل، **وهو أن الروح القدس ظهر في الإعلانات الإلهية في شكل الخليقة المنظورة: ألسنة النار، الريح العاصف، الحمامة الوديعة معلناً لنا محبة الله للخليقة المنظورة غير العاقلة واشتراكها في التجديد؛ لأنها دُعيت إلى مجد ابن الله بعد أن خضعت للباطل** (رو ٨: ٨)، **ولذلك السبب عينه يقدِّس الروح القدس المياه في المعمودية وغسل الأرجل، والخبز والخمر في الإفخارستيا، وزيت طرد الشياطين والميرون المقدس في المعمودية، ومسحة المرضى؛ لأن كل الخليقة تسبِّح وتبارك وتشترك في خدمة إرادة وإعلانات خالقها الثالوث القدوس.**

١٥- لقد مُسِحنا في الرب، وهذا ما يؤكده القديس بولس الرسول: «الذي يثبِّتنا معكم في المسيح، وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وأعطانا عربون الروح في قلوبنا» (٢كور ١: ٢١- ٢٢).

ومتى مُسِحنا في المسيح؟ أليس عندما حَلَّ عليه الروح القدس في الأردن؟ نحن فيه منذ الأزل، حسب قول الرسول «اختارنا فيه قبل خلق العالم» (راجع أف ١: ٤)، ولكن ذلك الاختيار ظهر في الدهور، مُعلَناً في حياة الرب نفسه، لذلك جاء واعتمد ومُسِح لكي يؤسِّس معموديتنا ومسحتنا فيه، وهذا هو السبب في أننا لا نُعيد معمودية المرتدِّين؛ لأنهم اعتمدوا في الرب حسب التدبير، والرب اعتمد مرةً واحدة عَمَّدَ فيها كل الآتين إلى الإيمان فيه لكي ينال بعد معموديته كل واحد نصيبه حسب تدبير الله المُعلن في المسيح.

موت الرب المحيي على الصليب المُكرَّم

١٦- صُلِبَ الرب على الصليب ومات لأجلنا. لم يكن محتاجاً إلى الصليب ولا يقوى عليه الموت؛ لأنه أقام لعازر وغيره من الأموات، وهو جاء لكي يبيد الموت، لكنه طوعياً اختار أن يموت لكي يبيد الموت.

على الصليب تمت ثلاثة أمور خاصة بالتدبير وبالسرائر الكنسية:

أولاً: قَبِلَ الربُ الموتَ بإرادته الإلهية المتجسِّدة؛ لأن له إرادة واحدة من إرادتين. وبقبول الموت مات الناسوت موتاً حقيقياً، موت القدوس البرئ من العيب والنقي الذي بلا خطية.

وبقبوله الموت حراً، واجه الموتُ الحياةَ التي لا تموت، ففقد سلطانه وقوته. مات الناسوت وانفصلت النفس عن الجسد، وهو موت كل البشر، ولكن الجديد هنا هو أن النفس الإنسانية عندما تنفصل عن الجسد فهي تذهب إلى الجحيم، أمَّا نفس الرب المتحدة بلاهوته والتي تحمل الحياة الإنسانية كلها، فقد دخلت الجحيم بقوة اللاهوت، وهناك أسرت الكل وأبادت الجحيم وشتَّتت قوات الظلمة وأخرجت الراقدين على رجاء.

وهكذا، على الصليب أباد الربُ الموتَ وجرَّده من قوته لأنه قبله بإرادته الحرة، وبذلك فَقَدَ سلطانه على البشرية. نحن لا نعني الموت الجسداني (البيولوجي)، وإنما نعني الموت الروحي، وهو جهل الإنسان وعصيانه

وتثبيت الحياة وحصرها في كيانه ظناً منه أن هذا هو طريق الخلود، وطلب الخلود بكسر الوصايا؛ لأن الإنسان صار ناموس الخير والشر بدون الله. هكذا انحصر الإنسان في ذاته وخسر الحياة؛ لأن الكيان المخلوق من العدم لا يمنح الإنسان البقاء الأبدي، بل الذي يمنح الحياة الأبدية هو الرب يسوع المسيح.

ثانياً: إن انتصار الرب على الموت على الصليب هو سبب تكريم الصليب واعتباره «ختم» الرب يسوع الذي به نختم أعضاء الجسد بزيت المسحة (الميرون الإلهي المقدس)، وبه نختم القربان والكأس وكل ما هو متصل بخدمة (ليتورجية) السرائر الكنسية.

وعلة ذلك - كما ذكرنا الآن — هو انتصار الرب على الموت على الصليب. ولذلك، إذا عُدنا إلى مذبح ما قبل ذبيحة الابن[1]، أدركنا أن الآب لم يكن هو الكاهن؛ لأن رئاسة الكهنوت احتاجت إلى الطبيعة الإنسانية التي يخدم بها الإنسان خالقه، ولذلك خدم الرب ككاهن ذبيحة نفسه، أي ذبيحته المقدسة.

ولم تكن الخدمة قاصرة على الناسوت وحده؛ لأننا لا نؤمن بانفصال الطبيعتين، بل — كما تسلَّمنا من معلم السرائر الكنسية القديس ديونيسيوس الأريوباغي وغيره من الآباء — أن خدمة الرب يسوع هي خدمة إلهية إنسانية[2] لا ينفصل فيها اللاهوت عن الناسوت.

---

(١) يقصد مذبح العهد القديم.

(٢) من المصطلحات اللاهوتية الهامة التي تحتاج إلى دراسة موسعة التعبير اليوناني المعروف عند الآباء Θεανδρικος فقد ورد هذا التعبير في الرسالة الرابعة للأريوباغي (النص اليوناني مجلد ٣: عامود ١٠٧٢). وورد أيضاً عند القديس غريغوريوس النيسي في العظة ٣: ٨٠ على إنجيل يوحنا. وتوصف أعمال الرب يسوع بأنها Θεανδρικος أي أن شخص الرب يسوع يعمل أعماله الخاصة به على نحو إلهي — إنساني، ولذلك يوصف الرب يسوع بأنه Θεανδριτης وهذا يهدم كل الأفكار اللاهوتية الحديثة التي شاع بعضها في كتب معاصرة عن مفارقة اللاهوت للناسوت على الصليب أو في الجحيم، أو انفصال الآب عن الابن كما هو شائع لدى بعض شيع البروتستانت؛ لأن الرب قَبِلَ الموت بحريته وباختياره حسب نص يوحنا ١٠: ١٧ — ١٨ وبالتالي فقد قَبِلَه بسلطانه كما يقول الرب نفسه: «لي سلطان أن أضعها، وسلطانٌ أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٨) مؤكداً أن هذا بالذات هو محبة الآب له، وإن الآب - الذي يحبه عندما يضع نفسه - لن يكون الديان الذي يحاكم ويحاسب الحمل على خطايا العالم، بل الديان الذي يغفر خطايا العالم كله كما قال يوحنا المعمدان: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم»، أي لا يجعل الخطيةَ عائقاً وحاجزاً بين الله والإنسان.

وطالما أن أعمال الرب هي إلهية — إنسانية، فهو والآب إرادة واحدة، ولذلك فإن إرادة تقديم ذاته يعبِّر عنها الرب بقوله: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي» (يو ١٠: ١٧)، وهو ما يجعل الآب شريكاً في القربان أو الذبيحة. هذا يتطلب منا جهداً خاصاً لأن نترك طقوس العهد القديم التي — رغم أهميتها — لا تقدر أن تشرح لنا النور الكامل؛ لأن الظل لا يشرح النور، أي لا تشرح الذبائح موت الرب يسوع على الصليب المكرَّم.

و لم يكن اللاهوت أو الناسوت هو الذي صرخ: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟»؛ لأن الرب لا ينقسم إلى أُقنومين (شخصين) أحدهما يخاطب الآخر، وإنما كانت افتتاحية المزمور ٢٢ تؤكد على فم الرب أنه هو الذي سوف ينتصر ويقوم حسبما ورد في نهاية المزمور، وحسبما سجَّل النبي آلام الرب المحيية، ولذلك نطق هذه الكلمات مؤكداً آلام البار الذي – كما قال أشعياء – «لم يوجد في فمه غش»، وأيضاً «إذا ظُلِمَ لم يكن يهدد»، فكل أقوال الأنبياء تمت في صلب الرب، وكان الرب نفسه هو الذي يعلنها مؤكداً إن ما حدث له على الجلجثة سبق ورآه الأنبياء.

أمَّا آلام الأبرار، فهي حسب تدبير الله. فلقد صرخ الرب معلناً براءته مؤكداً لنا أنه لم يُصلب من أجل شرٍ، بل من أجل بشارة الحياة التي بدأ بها كرازته «توبوا لأن ملكوت السموات قد اقترب منكم» (راجع مر ١: ١٥). هكذا جاء مُلك الرب، ليس فقط بتجسُّده، بل بموته المحيي، فنال الرب – بسبب بره – الملك؛ لأنه عاش كإنسانٍ بار معلناً بر اللاهوت بالحياة التي عاشها؛ لأن كل أفعال الله في العهد القديم صارت معلَنَةً بشكلٍ أكمل في خدمة الرب وتعليمه وموته وقيامته.

وهكذا، بالفعل الإلهي الإنساني[1] كانت الإرادة الواحدة من الإرادتين هي التي نطقت بهذه الكلمات: «إلهي إلهي»؛ لأنه عندما أخلى ذاته وأخذ صورة العبد، عاش ملء الحياة الإنسانية التي أخضع لها إرادته الإلهية. كما عاش ملء حياته الإلهية التي اختبرتها إرادته الإنسانية، وهذا هو ما جعل له إرادة واحدة من إرادتين. وعندما خضع الرب لإرادته الإنسانية، وخضعت حياته وإرادته الإلهية لحياته الإنسانية، حياة واحدة إلهية إنسانية؛ أعلن لنا الاتحاد الكامل للرب الواحد من طبيعتين، مؤكداً وحدة الأُقنوم، الإله المتجسِّد.

ولكن على الصليب حدث ما هو فائق: فقد قَبِلَ الموت، والموت لا يخص اللاهوت؛ لأن اللاهوت لا يموت، ولكن القابل للموت هو الناسوت، ولمَّا

(١) أنظر المرجع السابق.

قَبِلَ الناسوتُ الموتَ - بسبب قبوله إرادة الرب الإلهية الإنسانية للموت- مات حقاً واختبر الموت، ولذلك تقول كلمات التقوى الأرثوذكسية: «يا مَن ذاق الموت»، فقد مات الرب حقاً دون أن يموت، مات حسب الناسوت وظل حياً حسب اللاهوت.

هذا هو الانفصال الحقيقي بين ما هو إلهي وما هو إنساني، ولكنه الآن يتم داخل الأُقنوم الواحد، إنه مثل موت عضو في الجسد ويقطع من أجل باقي الأعضاء، وبذلك يصير الألم أعظم. وكأن الذي عاش مجد الأردن وسمع صوت الآب ينطق بكلام بشري: «هذا هو ابني الحبيب»، وتجلّى على جبل طابور، وجاء بلعَازرٍ من الهاوية — وهو الوحيد الذي سجَّل الإنجيليون اسمه من بين الذين قاموا من الأموات؛ لأن ابن أرملة نايين وغيرهم لم تذكرهم الأناجيل الأربعة (لم تذكر أسمائهم)؛ لأن لعازر عاش في «بيت عنيا»، أي بيت الألم والمعاناة — أقام ابن بيت عنيا مؤكداً نهاية معاناة الموت بالنسبة لنا. ولذلك - حسب ترتيب الكنيسة - يسبق سبت لعازر أحد الشعانين وأحد القيامة، وقد تمت المعجزة في يوم السبت؛ لأنه راحة الإنسانية من عذاب الموت والانتظار في الهاوية.

ثالثاً: بقبول الرب الموت على الصليب، مات دون أن يموت. قَبِلَ الموت في الناسوت وذاقه بالجسد وأفرز ضده الحياة، فأسس السرائر الكنسية؛ لأن السرائر هي عطية حياة الرب لنا، تُعطى لنا نحن الترابيين، وتعطي حياةً في الموت الطبيعي (الجسداني أو البيولوجي) والموت الروحي، وهو جهل الإنسان ورفض إرادة الرب ووصاياه المحيية.

هذا يقابله الرب فينا كما قابل الموت على الصليب. إنه يأخذ موتَ كل شخص كموته هو على الصليب، ولكن الآن يقابل الرب موتنا بالقوة التي أُعلنت على الصليب المكرَّم، ويعطي الحياة في المعمودية، والمسحة في الميرون، ثم طعام الخلود في السر المجيد الفائق، سر الإفخارستيا. وعندما نكسر جسد الرب، نقول أيضاً إننا كسرنا الخبز؛ لأن الكسر هو رتبة

توزيع جسد الرب على المؤمنين. والكسر لا يعني تمزيق وفصل أعضاء الرب أو فصل الناسوت عن اللاهوت، **بل توزيع ميراث الحياة الأبدية للمؤمنين**. هكذا تمت مقابلة الحياة الغالبة بالموت الذي فينا، ولذلك كل مرة يعتمد فيها مؤمن، تكون هذه المعمودية شركة في موت الرب الذي ذاقه على الصليب، وهو موت الحياة القديمة وانتصار الحياة الجديدة الناهضة من أوجاع الموت «الذي أقامه الله ناقضا أوجاع الموت إذ لم يكن ممكنا أن يُمسك منه» (أع ٢: ٢٤).

أمَّا عن الموت الروحي، فقد تركت هذا الموضوع بالذات؛ لأنني كتبت مع الأب ديونيسيوس مقالة كاملة مودعة عند الأب الراهب أرسانيوس بدير الإخوة.

إعلان الثالوث على الصليب المكرَّم

١٧– عندما جاء الرب إلى آلامه الطوعية، قال – وهو قريبٌ من الجلجثة التي رآها قبل خلق الأزمنة – «يا أبتاه مجِّد اسمك، فجاء صوت الآب: مجَّدتُ وسوف أُمجِّد» (راجع يو ١٢: ٢٨). والذين كانوا حوله قالوا حدث رعدٌ، وآخرون قالوا كلَّمه ملاك، فقد كانت عتامة وظلمة الذين حوله تحول دون فهم الإعلان.

هكذا كان الصوت الإلهي مشيراً بعد ذلك إلى «الظلمة» التي جاءت في الساعة السادسة؛ لأن الرب يملك وحول عرشه «الظلمة»، ولذلك حدثت الزلازل كما حدث في إعلانات الله في العهد القديم، وتفتحت القبور وقام كثير من الراقدين حسب شهادة الإنجيلي متى ودخلوا المدينة المقدسة بعد قيامته؛ لأن الحياة أُعلنت وحجاب الهيكل انشق، وقدس الأقداس ظهر. فقد كان الآب — على الصليب — مع الابن المصلوب يكشف لنا بالرموز ما يحدث على الجلجثة؛ لأن «ملك الرب على خشبة» (مز ٩٥: ١٠ س) تعني أنه يملك الآن — لا سيما بعد انقشاع الظلمة — معلناً نور المحبة الإلهية للآب حسب قول رسول المسيح وشاهده: «لأن الله بيَّن لنا محبته، ولأننا خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥: ٨ ترجمة عن القبطية).

أعلن الآب محبته للابن المصلوب، وسكب ينبوع محبته الأزلية علناً على المعلَّق على الصليب، أي الطبيعة الإنسانية، ولذلك صرخ المخلِّص قائلاً: «يا أبتاه في يديك استودع روحي» (لو ٢٣: ٤٦) وهي عبارة المزمور ٣١ وبقية العبارة «فديتني يا إله الحق» (مز ٣١: ٥).

ويذكِّرنا الرسول بصراع الحياة مع الموت، والقداسة مع الخطية باعترافٍ حسنٍ، عندما يقول: «الذي في أيام جسده إذ قدَّم طلبات وتضرعات بصراخ شديدٍ ودموع للقادر أن يخلِّصه من الموت وسُمِعَ له من أجل تقواه، ورغم أنه الابنً إلاَّ أنه تعلَّم الطاعة مما تألم به، وإذ كمَّل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي، مدعواً من الله رئيس كهنةٍ على رتبة ملكي صادق» (عب ٥: ٧ – ٩).

وهكذا لم يكن إعلان محبة الله الآب لنا قاصراً على زلزال الجلجثة، وإنما أيضاً في صلاة الرب في جثيماني. وحسب التدبير، قدَّم الابن – له المجد – جسده ودمه في عُلِّية صهيون بحريته «وسلطانه وحده». ثم بعد ذلك ذهب إلى البستان لكي يصلِّي، فأسس بذلك تدبير القدَّاسات، الصلاة بعد تقديس الخبز والخمر واستدعاء الروح القدس الذي أعلنه لنا الإنجيلي يوحنا، ثم بعد ذلك ذهب إلى الجلجثة.

وحسب كلمات الرسول السابقة في عب ٥: ٧ – ٩ فإن الرب يسوع المسيح ابن الله الحي، بعد أن قدَّم جسده ودمه بحريته ومحبته للتلاميذ، سكب نفسه كرئيس كهنة، إذ هيَّأ ذبيحة حياته في البستان لكي تقبل نار الموت الروحية غير المنظورة ويُطفئها، وهنا تمَّ أمرٌ عجيب، فالطبيعة الإنسانية التي لا تقبل الموت ولا ترضى به، بل تقاومه – أي الطبيعة الآدمية الساقطة؛ لأن السقوط كان ولا زال سقوطاً من نعمة عدم الموت، أي نعمة الحياة الأبدية، وهي رغبة الإنسان في أن يكون إلهاً بدون الله، حياً إلى الأبد دون أن يكون له ينبوع حياة فيه – هذه الطبيعة قبلت الموت. وبالرغم من أن اتحادها بلاهوت الابن الكلمة يجعلها لا تقبل الموت، بل هي ضد الموت، قبلت الموت لأجلنا.

هذا هو السبب الذي دعا الرسول لأن يقول عنه إنه قدَّم صلوات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت، والموت هنا ليس موت الجسد وانفصال الروح عن

الجسد الذي يحدث لنا جميعاً بدون إرادتنا، ولا نقدر أن نقاومه مهما كانت قدرتنا، بل هو الموت الروحي.

ولعلكم تذكرون – أيها الأحباء – حديث الأب والمعلِّم الحكيم ديونيسيوس في الاجتماع الكبير بعد عيد القيامة، أنه قال لنا إن الموت الروحي هو:

أولاً: جهل الإنسان بخالقه.

ثانياً: الظَّن والوهم بأن الحياة التي فينا هي مِنَّا، ولذلك نتصرَّف كما لو كنَّا خالدين بالطبيعة.

ثالثاً: إننا صرنا لأنفسنا، وبدون الله، شريعة الخير والشر، ولذلك فقدنا التمييز بين الخير والشر.

رابعا: إننا حصرنا حياتنا في داخلنا وأغلقنا كل سُبُل الشركة مع الآخرين والكون، وقبل كل هؤلاء، الله نفسه الذي نقترب منه عندما نحتاجه.

خامساً: إننا بسبب الظن والوهم بأننا خالدون بالطبيعة ولا يقوى علينا الموت، أصبحنا نظن أن الخلود هو في بقاء الجسد.

لقد واجه الابن هذه الظنون جميعها، ولذلك قال الإنجيلي إنه ابتدأ بالدهشة والحزن؛ لأنه عاش بيننا شافياً وطبيباً وراعياً ومعلماً، وشفى أمراضنا وأقام الموتى، ولكنه الآن دخل قُدس الأقداس لكي يقدِّم – ككاهنٍ – ذبيحةَ جسده ودمه، و لم يكن قُدس الأقداس هو ذاك الذي شيَّده موسى وسليمان، بل «السماء عينها» التي لا تقبل اللحم والدم؛ لأنهما لا يملكان الحياة السماوية. وهو هنا يريد أن يدخل كآدم؛ لأنه يريد أن يأتي بالطبيعة التي أخذها منَّا، أي من العذراء والدة الإله إلى السماء نفسها، وهي فيه ومتَّحدةً به، ولكنها لا تقوى - رغم اتحادها - على الحياة السماوية، وهي - لذلك – تحتاج إلى أن تنال الانتصار على الموت.

وكما كان رئيس الكهنة يدخل قُدس الأقداس مرةً واحدةً في السنة، احتاج الرب أن يعبر حاجز الموت مرةً واحدةً لكي يكمِّل كل الأشياء بذبيحة نفسه. ولذلك اندهش من قساوة قلب الإنسان. كان قلبه ينبض بمحبة الآب، ولكن الموت يمنع المحبة؛ لأن الموت يحرِّك الطبيعة الإنسانية للدفاع عن نفسها. اندهش

من اغتراب وجهل الإنسان بخالقه، فهو يحب الآب، وهو، حسب محبته للآب كإنسان – وهي ذات المحبة الواحدة للأُقنوم الواحد، لأن المحبة لا تنقسم — جاء إلى آلام الموت، حسب كلمات التقوى في صلوات الأسبوع العظيم. **وألم الموت هو أن لا يكون مركز الحياة فينا**، وهو ما عبَّر عنه الرسول بولس في مناسبة خاصة بقوله: «إننا نئن مثقَلين، إذ لسنا نريد أن نخلعها، بل أن نلبس فوقها لكي يُبتلَع المائت من الحياة» (٢كور ٥: ٤)، وهكذا كانت آلام الموت هي الرغبة القوية المتأصِّلة في كل نفس إنسانية أن تلبس الحياة فوق الموت، لكي تبيد الحياةُ الموت، وهو غير ممكن؛ لأنَّ ما هو مائت يجب أن يموت لكي يقوم حياً.

وهكذا أيضاً انسكبت دموع الرب، وبصراخ وعرقٍ، حتى أنه سُمِعَ في السماء، وظهر له ملاكٌ من السماء لكي يقويه (لو ٢٢: ٤٣)، ولكنه لم يأخذ معونةً من الملائكة؛ لأن القوات السمائية مثلنا، ليس لها حياةً ذاتيةً، ومركز حياتها هو الله نفسه. وعبَرَ الربُ حاجز الموت في البستان، ثم عَبَرَه علانيةً على الصليب، وشتَّت قوات الجحيم، وأباد قوة الموت نهائياً من الجسد بالقيامة، لكن نفسه الإنسانية التي هي شفيعة نفوسنا وباكورة ثمار الحياة، دخلت بئر الخطية المظلم، ليس بئر أفعالنا النجسة، وإنما بئر جهل الإنسان بالله، وهو بئر الموت الروحي الذي أشار إليه الأب الحكيم ديونيسيوس، وهناك أشرقت الحياة من جديد، الحياة التي لم تعُد محصورةٌ في داخلها، متحصِّنةٌ بالوهم في الخلود.

١٨– صار رئيسُ كهنةٍ على رتبة ملكي صادق، أي بتقديم خبز الحياة وكأس الشكر. ولمَّا قدَّم جسده في العُلِّية بفرحٍ، كان التقديم بقوة الحياة، ولذلك السبب عندما قدَّم جسده علانيةً على الجلجثة، كان التقديم شفاعةً في الهالكين؛ لأن قوة الحياة واحدة، ولكنها تعمل – حسب التدبير – بفرح المحبة في الشركة مع التلاميذ الذين أحبَّهم وعرفهم، كما تعمل في ألم الموت عن العالم الغارق في عدم معرفة خالقه والمتحصِّن في حياةٍ لا تملك قدرةً على البقاء، بل هي مثل حبة حنطة زُرِعَت في الموت لا تملك أن تشرب من الماء أو تنبت، وأشار الرب إلى ذلك سرياً بقوله: «الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتُمت فهي تبقى وحدها، ولكن متى ماتت تأتي بثمر كثير» (يو ١٢: ٢٤).

وجاء الرب يسوع وزرع جسده في الأرض، أي فينا نحن، ومات لأجلنا، ولذلك لم تعُد حبة الحنطة وحدها؛ لأنه بتقديم جسده يجمع الكل معه كما جمعه، أي الكل فيه؛ لأن ما فيه، أي نحن يجب أن يكون معه، أي أن يكون له شركة.
لقد تألم كرئيس كهنةٍ؛ لأنه اجتاز حاجز الموت وعَبَرَه، وصار كاملاً حسب تعبير الرسول: «كمَّل ⲉⲧⲁϥ ϫⲱⲕ ⲉⲃⲟⲗ». لقد ''كمَّل'' الرب لأنه قَبِلَ الموت وغلبه وداسه تحت قدميه وصار قادراً على أن يعطي الحياة التي فيه، الحياة الغالبة الموت لكل الذين يقبلونه، أي يطيعونه؛ لأن قبول الرب هو طاعته.

١٩– صار الربُ يسوع هو الوسيط والشفيع؛ لأنه مساوٍ للآب في الجوهر ومولود من الآب قبل كل الدهور، فهو وحده القادر على أن يكون شفيعاً لدى الآب، والسبب واضحٌ لمن استنار، فقد صار شفيعاً لأنه يحملنا في داخله، وصار وسيطاً لأنه بسبب التجسد لم يعُد بين الله والبشر فجوة، بل وحدة تامة في الرب الواحد.

والرب لا يتوسل ولا يترجَّى، بل يقدِّم توسلاتنا للآب، أي تلك التي يضعها الروح القدس في قلوبنا، وعندما يقدِّمها، فهو يقدِّمها كاحتياجات جسده، أي أعضاء جسده؛ لأننا نحن «خاصته» (راجع يو ١٠: ١٤)، وخاصته كأعضاء جسده، لذا فإن صلواتنا وتوسلاتنا هي صلوات وتوسلات الابن رئيس الكنيسة رأس الجسد، رئيس الكهنة الذي قدَّمنا لله الآب.

لقد صارت صلواته صلواتنا، وصلواتنا صلواته، بمعنى أنها صلوات أعضاء جسده، وصرخات كل عضو فيه هي صرخته، ولذلك قال لشاول – الذي هو بولس: «لماذا تضطهدني؟» (أع ٩: ٤). ولأن الرسول قال عن الرب يسوع ابن الله: «سُرَّ أن يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً» (كولوسي ٢: ٩)، تحققنا أنه لا يوجد في الرب يسوع خارج وداخل، بل الكل **داخله** لأنه هو «الملء»، وكل حركة وفعل وإعلان هو من الداخل، من أُقنومه الإلهي الذي يملأ كل الخليقة، وإذا أُعلن بشكل منظور، أو بعملٍ قام به الابن، فهو ليس إعلاناً من خارج جوهر الأُقنوم في الثالوث. هكذا كل ما يحدث على مستوى ما هو منظور، هو معلنٌ في اللاهوت حسب استطاعته «أن يُخضع كل شيء تحت قدميه» (١كور ١٥: ٢٥ – ٢٧)، أي تحت سلطانه.

الليتورجية حسب ملء اللاهوت[1]

٢٠– كيف يجب أن نفهم شفاعة الرب يسوع حسب استقامة الإيمان (أرثوذكسية الإيمان)؟

أولاً: لا يجب أن تمنعنا سموم هرطقة أريوس من إدراك تواضع الرب يسوع وإخلاء ذاته حسب استقامة الإيمان.

ثانياً: ألاَّ تمنعنا دعوة الموحِّدين عن قبول تواضع محبة الله الآب المعلَنة في الابن بالروح القدس.

ثالثاً: ألاَّ نسمح لثمرة الخطية، أي الموت أن يحوِّل إيماننا عن إعلان محبة الله للخطاة؛ لأن الخطية تعيدنا إلى كياننا المحدود، حيث نلمس الموت ونهاية كل ما نعرف أو نحس أو نرى، وبذلك تغلق أمامنا رؤية الإيمان لما هو غير منظور (عب ١١: ١ – ٣).

٢١– يخدمنا الرب يسوع لأنه قوي، ولأنه ضابط الكل، وقادر على كل شيء. هو خالقنا وفادينا، ولذلك لا يهمل الخليقة ويتركها بدون رعاية. نحن نأخذ منه «موهبة النطق»، ومنه نأخذ الوجود والحياة، ولذلك هو يخدمنا لأنه إلهنا الذي منه وبه وله كل الأشياء حسب قدرته الفائقة التي لا تُحَدُّ ولا تُوصَف.

٢٢– وبسبب تجسُّد الابن من الروح القدس ومن والدة الإله، صار الروح القدس شريكاً في خدمة الابن. صار هو، أي الروح القدس، النعمة والقوة التي يمنحها الابن له المجد لنا؛ لأنه — أي الروح القدس – قادر على كل الأشياء، وضابط الكل مثل الابن، وحي ومحيي، ولأن الابن له المجد بتجسُّده من الروح القدس أعطانا أن نحيا معه بالروح القدس في شركة دائمة أبدية.

(١) عنوان أصلي.

وكما قلنا سابقاً إنه لا يوجد داخل وخارج في اللاهوت، بل كل ما هو منظور هو في اللاهوت، كل شيء «فيه خُلِقَ» كما يقول الرسول[1]، وهو لذلك يؤسس شركته فينا بسبب تجسُّده من داخل قوته ومن داخل حياته. **وهنا يجب أن نفهم أنه لا توجد مسافة تفصل الله عن الخليقة، بل إن حدود المخلوق هي جوهر أو طبيعة كل مخلوق المختلفة تماماً عن جوهر وطبيعة الخالق، والاختلاف هنا هو اختلافٌ لا يمكن القضاء عليه من جانبنا أو تعدِّيه، لكن بسبب تنازل الله إلينا وسُكناه فينا، يحفظ حدود طبعنا الإنساني حسب محبته، ويجعل قدرته الفائقة تحركنا وتقودنا برفقٍ نحو الشركة.**

هذا هو أساس الليتورجية حسب ملء اللاهوت؛ لأن غنى الله يُعطى للطبع المخلوق حسب صلاح الله المُعلن في يسوع المسيح، أي في تجسُّده. وحسب غنى وصلاح الله يعلن الابن، ويعطي من كيانه الإنساني الذي كوَّنه الروح القدس؛ لكي ننال - حسب غنى صلاحه - شركةً في الروح وفي الآب حسب علاقة الابن بالآب والروح القدس، شركة من داخل جوهر اللاهوت، تُعطى حسب صلاح الله وحسب حدود طبعنا المخلوق.

٢٣- وهكذا قلنا إننا خاصته، وإنه بسبب تجسُّده صارت صلواتنا صلاته، وصلاته صلواتنا؛ لأنه صار الابن البِكر «بين إخوةٍ كثيرين» (رو ٨: ٢٩). وشفاعة الرب يسوع ليست فقط في تقديم صلواتنا إلى الآب، بل في انتظاره الفائق أن يعطي لنا قامته وشكل جسد مجده[2].

ولأن هذا محفوظٌ في الرب يسوع، تصبح صلواتنا وتوسلاتنا — لا سيما تلك التي يغرسها الروح القدس — متجهةً نحو امتلاكنا لعطية حياة الابن، ربنا يسوع المسيح الذي يشتاق أن يعطي أكثر مما نظن أو نتصوَّر.

٢٤- يمنح الحلول المتبادل لأقانيم الثالوث، **حركة محبة داخلية مصدرها الآب،**

(١) «فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خلق» (كو ١: ١٦).

(٢) ''فإن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلّصا هو الرب يسوع المسيح الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء'' (فليبي ٣: ٢٠ -٢١).

دائرتها الابن، أي إعلانها، قوتها الروح القدس، مركزها الناسوت، أي الطبيعة الإنسانية التي أخذها الابن من والدة الإله، أي منّا.

تتحرك المحبة في داخل جوهر الثالوث مثل نبضة القلب من الآب، ترسل فيضان المحبة والشوق للابن المتجسِّد والممجَّد، لكي يعلنها الابن ويعطيها بالروح القدس للإنسانية.

هذا هو أساس الليتورجية حسب ملء اللاهوت. التي بها (أي الليتورجية) نمتلئ – كبشرٍ – من الله؛ لأننا عندما نعتمد باسم الثالوث، فحسب المنظور نغطس في مياه المعمودية، وحسب حركة المحبة الإلهية، يخلع الابن منّا — بقوة موته — الطبيعة القديمة، ويحررنا من الدينونة، ويغسلنا من دنس الخطية، وينقلنا إلى القيامة معطياً لنا بذرة القيامة في النفس لكي تنمو كاملةً في يوم الانعتاق من جسد الموت. ويتم كل هذا بقوة الروح القدس المعزِّي الذي ينقل من الابن ويعطي لنا أولاً من ميلاده من البتول ميلاداً لنا، أي بدايةً. ومن مسحته، مسحة الميرون الإلهي. ومن موته على الصليب المكرَّم قوة حياة وغلبة الخطية. ومن القيامة رؤية وإعلان السماويات ومجد الحياة الآتية لكي نتقوى على شدائد الحياة الأرضية.

هكذا، من الحياة الإلهية نأخذ من «ملء قامة المسيح»، ذلك الملء الذي أخذه الابن من الآب ومن الروح القدس لأجلنا، وحفظه في أُقنومه الإلهي لكي يكون ميراثاً لنا.

٢٥– في الإفخارستيا يتجلَّى الابن — رأس الكنيسة — بروح الآب القدوس. يتحرَّك نحونا عندما نطلبه، لا يترل كما تترل الأجسام، بل يتحرك مثل قلبٍ يسكب الحياة. نناديه، لا لكي يأتي، بل لكي نأتي نحن إليه. والنداء هو الكلمات المقدسة التي يضعها الروح القدس على لساننا[١]، وهي كلمات أُعطيت لآخرين قبلنا، ولكنها صارت كلماتنا؛ لأنها آتية من الالتصاق بالمسيح في سر المعمودية العظيم، ومن سر مسحة الميرون الإلهي، ومن كلمات الوحي. هذه معاً تخلِق، ليس من العدم، بل من صورة المسيح، من صورة التصاقه بنا، من محبته النارية للبشر، من قدرته على تجديد القديم وعتق الإنسان من الخطية والموت.

---

(١) راجع قداس مار مرقس حيث يطلب الأب الكاهن من الروح القدس أن يضع على لسانه أو في فمه «الكلمات المطهِّرة».

«يا الله العظيم الأبدي» تسبحة آتية من سر المعمودية.

«الذي جبل الإنسان على غير فساد» آتية من بشارة الإنجيل.

«والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس هدمته» آتية من الالتصاق بالرب بالروح القدس.

«بمسرتك يا الله أملأ قلوبنا من سلامك» آتية من الروح المعزِّي الذي أعطيته بعد قيامتك يا يسوع يا ذو الاسم المخلِّص الذي بكثرة محبته للبشر قَبِلَ الموت لأجلنا لكي نقبل نحن الحياة.

٢٦- لا أريد أن أكتب ما يجول في قلبي؛ لأن الروح القدس يعطي كل واحد حسب استطاعته وحسب قدرة ورؤية مَن يطلب. لا أريد أن أُقدِّم، ولو قبساً من نور الروح القدس الذي يملأ قلبي عندما أخدم السر الرهيب؛ لأن هذا يجب أن يكون سيرة كل واحد منَّا مع الروح، ليس عن بُخلٍ، ولا خوفاً من الكبرياء، ولكن لأن أسرار الروح تُعطى لكل واحدٍ منَّا حسب محبته، وهي ليست كلمات تُكتب، بل هي حركة المحبة والحياة التي تأتي من الروح القدس.

من الصلاة نتعلم أسرار الثالوث، وأقول لكم إن دعوة الموحِّدين سوف تجد الأذن المستعدة لأن تسمع كلاماً يقبله العقل ويسود عليه العقل، وهناك يموت الإيمان؛ لأن الله الخاضع للعقل هو صنمٌ جديدٌ، ولكن الله الذي يدعو العقل إلى رؤيةٍ أعظم من الكلمات والروح هو الإله الحي الحقيقي.

وعندما تتحول دعوتنا إلى كتابٍ نقرأه، نصبح عبيداً للحروف.

وعندما تصبح الكلمات هي العلامات الوحيدة الدالة على الله، يموت الله فينا عندما تموت الكلمات ومعانيها.

وعندما يصبح «السطر» هو ما يجب أن نحفظه، و»النص» هو ما يجب أن نتفوه به، ننكر الروح القدس، روح الأنبياء الذين لم يُدعونا إلى قبول كلمات ونصوص وكتب، بل إلى رؤية وإلى إعلان تؤكده الصلاة والشركة وحركة المحبة الإلهية في الثالوث القدوس.

٢٧- انظروا أيها الإخوة، إن الحديث عن الله هو إمَّا عنه مباشرةً، أي عن محبته وصلاحه، وإمَّا عن أعماله التي عملها مع غيرنا من البشر الذين سبقونا في الإيمان مثل البطاركة. والنوع الثاني يعطي لنا معرفة غير مباشرة بالله. أمَّا النوع الأول فهو يعطي لنا معرفة مباشرة بالله؛ لأن جوهره هو الشركة في الحياة الإلهية. لذلك السبب، إذا عُدنا إلى الليتورجية والحلول المتبادَل بين أقانيم الثالوث، **نجد أن الآبَ حالٌ في الابن منذ الأزل، ولكن الابن حلَّ في الآب بنوع خاص بعد تجسُّده، فقد جاء بالمحدود والترابي، أي الإنسان وجعله «واحداً مع لاهوته»، وجاء به إلى ذات الشركة الأزلية.**

انظروا أيها الأحبَّاء مقدار عظمة محبة الله لنا؛ لأننا الآن عندما نتوجَّه بالصلاة إلى الآب في الابن بالروح القدس، فإن صلواتنا يقدِّمها رأس الجسد، رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح. وعندما نصلِّي، يتجه الابن حاملاً إيانا فيه حالاً في الآب، وتصبح صلواتنا كما قال الرسول بولس «نَعَم»؛ لأنه في يسوع نجد كل «نَعَم». وأيضاً عندما يحملنا الابن في أُقنومه، فإنه يحملنا فيه في شركته مع الآب والروح القدس.

٢٨- لذلك السبب، في صلاة القسمة، نردد كلمات الإيمان، أي نقسِّم الجسد مُخبرين بحياة الرب وموته المحيي وعمله في الكنيسة وفي القديسين؛ لأننا في كل عيد من أعياد الرب نتناول جسده ودمه؛ لأن التناول يعني الاتحاد بما نؤمن، والإيمان بما نتَّحد به. وصلاة القسمة على الأخَّص، تؤكِّد لنا أننا نؤمن بأن الكلمة تُعلِنُ لنا السر، وأن السر يشرح معنى الكلمة، وكلاهما يقودان معاً - إلى المسيح — كل الذين يؤمنون إيماناً ثابتاً يحرِّكه الروح القدس ويقوده نحو معاينة الرب.

الخاتمة

عندما يصل الأب صفنيا عندكم بهذه الأوراق، أرجو أن تُقرأ في المجمع، وأن أسمع أخباركم وتقدُّمكم في الإيمان.

أعلنوا محبة المسيح للخارجين عنا، لا سيما الذين كانت لهم شركة معنا. لا شيء يطفئ نار العدو الشيطان سوى مطر المحبة، ولا شيء يعيد إلينا الذين تركونا سوى الوداعة التي يحل فيها روح يسوع المسيح المخلِّص، ويعطي لنا أن نعلنه بالأعمال والأقوال.

أخيراً صلّوا لأجلنا لكي نعبر بحر العالم الشديد، وأن يعطي لنا الرب معونةً عندما نواجه الموت الجسداني الذي نعانيه في حياتنا النُسكية بالصوم والاعتزال والصمت والالتصاق بالرب يسوع المسيح.

صفرونيوس يرسل لكم السلام
في ابن الآب رأس الكنيسة
ومخلِّص كل الذين يطلبونه

نسخ كتاب الأب صفرونيوس

الراهب الحقير ـ في رهبان دير والدة الإله – تيموثاوس،

وراجعه الأب صفرونيوس.

ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ

(سطر غائب في نهاية الصفحة)

الكتاب الثالث

مع رسالتين إلى :

الأب سلوانس والأب يوساب

وحدة جوهر الثالوث
هي توحيد المسيحية

١- عندما نقول إن جوهر الثالوث واحدٌ لا ينقسم ولا يتعدد، فإننا بذلك نؤكِّد وحدانية الله. وكلمة «واحد»، أو «الله الواحد» التي نعترف بها في الأمانة (قانون الإيمان) تعني وحدة جوهر الله؛ لأننا نقول: «نؤمن بإله واحد» مؤكِّدين وحدة الجوهر الإلهي. ونحن بذلك نعترف بأن الله ليس له آخر، ولا يوجد «مثله»، ولا يوجد له «شبيه»، أي لا يوجد آخر له ذات الجوهر الإلهي، أو جوهر يشبه جوهر الله خالق كل الأشياء.

٢- نحن نؤكِّد التوحيد – بدقةٍ تامة – بقولنا: الجوهر الإلهي الواحد. وبذات الدقة نقول: «الثالوث المساوي»، أي مساواة الأقانيم مساواة تامة وكاملة. هذه المساواة تعني أن جوهر اللاهوت واحد في كل أُقنوم، وهذا نفسه ينفي «التعدد»، و«الاختلاف»، و»التباين» بين أقانيم الجوهر الواحد؛ لأن المساواة التامة تجعلنا نعتقد أن كل أُقنوم له ذات الطبيعة الإلهية الخاصة والمشتركة التي لا اختلاف فيها.

٣- والمساواة تؤكد شركة أقانيم الثالوث في طبيعة إلهية واحدة، ومساواة تامة لشركة تامة بين أقانيم الثالوث.

وعندما نقول: «الشركة»، فإننا نؤكِّد أن كل ما للآب هو للابن والروح القدس. وكل ما هو للابن هو للآب والروح القدس. وكل ما هو للروح القدس هو للآب والابن، شركة كاملة تامة لا انقسام فيها.

الأُقنوم والجوهر، إعلانٌ عن التوحيد

٤- الأُقنوم هو تخصيص وتعيين في جوهر الله. وصعوبة إدراكنا لهذه الحقيقة مصدرها أننا نتكلم عن أمرٍ لا مثيل له في الطبيعة المخلوقة مهما كانت. ولعل

أقرب مثال على ذلك، هو أن نطلق اسم بطرس أو يوحنا على إنسانٍ معيَّن، نعرفه بأمرٍ خاصٍ به، فيصبح بطرس هو تخصيصٌ لكائن وشخص ينتمي إلى الطبيعة البشرية. هذا هو أقرب مثال، وهو لا ينطبق على اللاهوت لأسبابٍ معروفةٍ لكل مَن يدرك الفرق بين الخالق والمخلوق.

٥- ونحن لم نتأمَّل الطبيعة الإلهية ونخصص فيها الآب والابن حسب الخيال أو الإدراك البشري، وإنما جاء التخصيص من إعلان الخلاص في إنجيل ربنا يسوع المسيح. فقد ظهر لنا الابن الوحيد كلمة الله مدبِّر وسند الخليقة وصانعها وجابلها من العدم. ولمَّا تجسَّد وصار إنساناً وعاش بيننا، كان يخاطب الآب في الصلاة، ويعمل المعجزات باسم الآب، ويوجِّه أنظار التلاميذ إلى الآب، وبذلك أعلن لنا أُبوة الله الآب له، ودعانا إلى قبول هذه الأُبوة كنعمةٍ خاصةٍ ترفعنا من مستوى العبيد إلى مستوى ورتبة الأبناء.

٦- وعندما أعلن الابنُ أُبوة الله، فقد جاء الإعلان عندما تجسَّد مؤكِّدا أُبوة الآب لنا من خلال إعلان علاقته الخاصة بالآب، وذلك بالقيامة من الأموات: «وتعيَّن ابن الله بقوةٍ من جهة القيامة» (راجع رو ١: ٤). فقد أقام الآب ابنه من الأموات، وبذلك أعلن أنَّ علاقته بالآب هي علاقةُ ابنٍ؛ لأن الآب أقام ابنَهُ الذي هو «مسرته» و «ابن محبته» مُعلناً إلوهيته، التي سبق وأعلنها الابن في ذاته بالأقوال والأفعال معاً، أي المعجزات التي أظهرت سلطانه الإلهي على الحياة بكل صورها وحدودها، وعلى الموت إذ أقام الموتى، وعلى الأمراض التي شفاها، وعلى العالم الروحي العلوي بخدمة الملائكة له، والعالم الروحي السفلي إذ طرد الشياطين، وأعطى ذات السلطان للذين يؤمنون باسمه.

وثبَّتَ الابنُ - بالتعليم وبالمواهب - سُكنى الروح القدس فينا، إذ أعطاه لنا عطيةً أبديةً من عند الآب، فأعلن لنا بذلك أنه - وهو يعلن الآب - يؤكِّد تخصيصاً في الآب نفسه، أي الروح القدس المعزِّي الذي سوف يأتي من عند الآب باسم الابن، لكي يشهد للابن، ويضم إليه كل الذين يرغبون في الالتصاق بالابن رباً ومخلصاً ووسيطاً واحداً بين الله والناس.

٧- هكذا ثبَّتَ الابن بتجسُّده وبإعلان علاقته بالآب، وجوداً خاصاً للآب وله وللروح القدس، فأكَّد بذلك تمايزاً في جوهر الله، وهو تمايز أُعطيَ لنا كإعلانٍ عن حقيقة الذات والحياة الإلهية، أي جوهر الله. ولذلك، ولنفس السبب – أي إعلان الخلاص وتأكيد دعوتنا للشركة والحياة الأبدية في الله – وَهَبَ لنا معرفة سر الحياة الإلهية، أي حياة الثالوث القدوس لكي يكون لنا «شركة مع الآب» ومع ابنه ربنا يسوع المسيح بعطية وهبة الروح القدس.

الصفة الأُقنومية ووحدة الجوهر

٨- وتأكيداً للخلاص، وبإعلانٍ عن حقيقة الذات الإلهية، وإننا نحن الترابيون مدعوون للحياة التي تعلو على كل صور وأشكال الحياة المخلوقة، أي حياة الثالوث، عرفنا الأُبوة والبنوة والتقديس، ليس كصفات مثل الرحمة والقداسة والعدل والصلاح، بل «أقانيم» ثلاثة متمايزة، ليس بصفةٍ مثل باقي الصفات الإلهية، بل بوجودٍ خاص[١] هو الوجود الأُقنومي[٢] الذي به وفيه تتحرك الحياة الإلهية حركة محبة داخلية حرة غير مقيدة، متَّجهة من الوحدة وإلى الوحدة، ومنها إلى خارج – إذا جاز لنا استخدام هذه الكلمة – الجوهر الإلهي، أي إلى الخليقة العلوية (الملائكة) والخليقة المتوسطة (البشر) والخليقة السفلية (الكائنات غير العاقلة)، حركة محبة واحدة تجمع الخليقة في أشكالها الثلاثة لكي تنال الصلاح والخيرات الإلهية.

٩- يختلف الله عن المخلوقات في أنه ليس طبيعةً تنمو، تُضاف إليها الصفات؛ لأننا نحن البشر نُخلق بطبيعةٍ إنسانيةٍ تكتسب صفاتها بالنمو والإدراك، بل ونرفض بعض هذه الصفات؛ لأننا نزيد أو ننقص، كلٌ حسب نموه.

لكن الله ليس كذلك بالمرة، فهو كاملٌ لا يضاف إليه ولا ينقص شيئاً، بل هو مصدر كمال كل الخليقة. لا يضاف إليه ولا ينقص شيئاً، بل كل الكائنات

---

(١) الوجود الخاص هو كلمة هيبوستاسيس، راجع: الأسقف يوحنا زيزيولاس، الوجود شركة – دراسة في الشخص والكنيسة - مركز دراسات الآباء، مايو ١٩٨٩م، الفصل الثاني: الأهمية الروحية لكلمة أُقنوم، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) الوجود الأُقنومي هو أيضاً وجود «تعين» في الذات الإلهية، وهو تعيين مصدره الآب؛ لأن الآب هو جوهر اللاهوت، المرجع السابق ص ١٩: ٢٠.

تأخذ منه الوجود والحياة والحركة، بل لا يبقى شيء في الوجود ليس له مكان أو بقاء حسب تدبير خلق العالم.

١٠– وهكذا نؤكِّد أن الأُبوة في الله ليست صفة تضاف إلى أُقنوم الآب؛ لأننا لا نولَد آباء، بل أبناء ونصبح آباءً بعد ذلك، أمَّا الله مصدر كل أُبوة (أف ٣: ١٤ – ١٥)، فهو أُقنوم الآب، وروحٌ بسيط يعطي ولا يقبل التركيب، ويعود إليه ما يعطيه حاملاً معه الخليقة مؤيداً إياها بالعطية، ممجِّداً إياها حسب التدبير.

فالآب هو أُقنوم الأُبوة، وما نقوله عن الآب نقوله عن الابن وعن الروح القدس؛ لأن الابن هو أُقنوم البنوة، والروح هو أُقنوم الانبثاق، أي التقديس.

١١– وعندما نؤكِّد أن الآب ليس أُقنوماً تضاف إليه صفة الأُبوة، بل هو الأُبوة الإلهية الأزلية، فإن هذا يؤثِّر بشكلٍ خاص على علاقتنا نحن البشر مع الله:

أولاً: لأننا لا نشترك في صفةٍ عامة مبهمة غامضة، بل نشترك في أُقنوم الابن الذي هو مصدر التبني بالآب وبالروح القدس؛ لأننا نأتي من الوجود الغامض، أي من العدم إلى الوجود الحقيقي، أي الوجود حسب صورة الله، أي الوجود السامي، وهو وجود التبني، وهو الوجود الذي نعلو فيه ونسمو نحو طبيعةٍ متأقنمةٍ يختفي فيها التركيب، أي يُفتدى، وهكذا نتحول من طبيعةٍ تكتسب صفاتها بالنمو حسب حدود طبعها المخلوق، إلى وجودٍ متأقنمٍ بالنعمة حيث الطبيعةُ فيه حرةٌ بالنعمة تنمو نحو ذاك الذي هو «حرٌ» ومصدر «الحرية»، الله، ناميةً نحو الوجود الحقيقي «صورة الله» المتألقة بالمجد في المسيح، وهو الوجود الذي خُلِقَ للشركة في الطبيعة الإلهية التي لا تركيب فيها؛ لأن ذلك الوجود الحقيقي، أي «صورة الله» حيث الصفات المُكتسبَة من خلقنا على صورة الله تفتدى وتثبت في المسيح بنعمة حلول الروح القدس، فتصبح الطبيعة الجديدة فينا ليست طبيعة فقط يخضع لها الأُقنوم، بل طبيعة متأقنمة حرة كائنة حسب المسيح كاملة «بلا عيبٍ ولا دنس»، صورة كاملة لِمَن هو كامل، صورة مجيدة في الدهر الآتي نراها الآن في مرحلة الطفولة، وتصل إلى البلوغ في الدهر الآتي.

ثانياً: نحن نرى هذا حسب ترتيب الليتورجية؛ لأننا نبدأ بخلق العالم، ونصل إلى كمال التدبير، وذلك عندما نشترك في سر ميلاد الرب من والدة الإله، وموته المحيي لأجلنا على الصليب، وقيامته من الأموات، ومجيئه الثاني، ثم نقدِّم القربان وذبيحة الخلاص التي تجمع كل تدبير الله الثالوث. لأننا في سر المعمودية نصطبغ بصورة الدهر الآتي كبذرة شجرة تنمو كاملة في الدهر الآتي حسب ترتيب الليتورجية الذي يبدأ بالخلق ويكمل يوم الدينونة، يوم الانعتاق. وفي سر الصبغة نولد ونوهَب نعمة الالتصاق بالمسيح منعطفين نحو ذاك الذي هو «الملء»، أي الذي أعطى للطبيعة الإنسانية أن تتأقنم فيه بالاتحاد، أي الطبيعة التي أخذها من البتول لكي تمتلئ من ملء اللاهوت، أي أن تصبح فيه كاملة بالكمال الذي كان في تدبير الله الأزلي السابق على خلق العالم لكي تصبح بداية الخليقة الجديدة وينبوع حياة جديدة متأقنمة بالاتحاد بأُقنوم الابن، مملؤة من كل صلاح وخير؛ لكي – بالالتصاق بالرب – نصبح «روحاً واحداً» حسب عبارة الرسول (١كور ١٢: ١٣)، ومهما زاد عدد المؤمنين، يأخذ الكل من الملء؛ لأن الخليقة الجديدة لا تُستهلك، بل هي غالبة الموت والفساد في المسيح؛ لأننا «بتوسط» الناسوت، أي ناسوت الرب المتَّحد بلاهوته، ناسوت «الإنسان الواحد» (رو ٥: ١٥) الذي منه الكل، ننال من الرأس الواحد، آدم الجديد، كل ما ناله الناسوت في الرب بسبب اتحاده بأُقنوم الابن الرب يسوع المسيح الابن الوحيد.

هذا يعني أن الطبيعة الجديدة، أي طبيعة المسيح المتأقنمة بالاتحاد تصبح ليس فقط، المثال الذي ننمو منعطفين نحوه بسبب الالتصاق به في المعمودية، بل تصبح الحياة الجديدة فينا التي نأخذها كنعمةٍ ثابتةٍ أبدية.

ولا تصبح الطبيعة الجديدة مجرد طبيعة تُخضِعُ الشخص (الأُقنوم)، بل طبيعة حرة متأقنمة فينا بالنعمة، وهي لا تُضاف إلى الطبيعة القديمة، بل بقوة الصليب تصلب الطبيعة القديمة؛ لكي — بالصليب — تتأقنم، وتأخذ الطبيعة الجديدة من الرب ممجدةً فيه حسب قياس مجده الذي رأيناه في القيامة والصعود.

١٢– وحسب ترتيب سر الشكر، نحن لا نتَّحد اتحاداً جسدياً فقط بالرب، بل اتحاداً روحياً أيضاً؛ لأن الرب تجسَّد وأعلن «إنسانيته» لنا، أي أعلن الإنسان الجديد الذي فيه «حلَّ كل ملء اللاهوت جسدياً» (كو ٢: ٩). **ولذلك – وحسب الترتيب – نحن نأخذ الجسد والدم؛ لأن بداية الخلاص أُعلنت في الجسد والدم كوسيط الإعلان عن الشركة في اللاهوت، في الحياة الواحدة للرب الواحد، تلك الحياة غير المنقسمة إلى لاهوت وناسوت؛ لأن الرب هو «حياتنا» التي لا تنقسم إلى وجود خاص لنا، ووجود خاص به، فهو الرأس ونحن أعضاء الجسد الواحد الذي لا ينقسم؛ لأن المسيحَ واحدٌ، ومع ذلك يبقى لنا الوجود المميَّز الذي لا يذوب بسبب الاتحاد، ولا ينعدم بسبب القيامة، ولا يختلط بسبب التمايز وخصوصية كل عضو في جسد الرب.**

١٣– وبممارسة هذا السر، وتوزيع جسد الرب كل يوم أحد – على الأقل – نأخذ، ليس «حصةً» أو «جزءاً» من جسد الرب، بل «الميراث» الكامل، المسيح كله، لاهوتاً وناسوتاً، وننمو نحوه به وفيه، ليس كطبيعةٍ تضاف إليها صفات، بل ننمو كأقانيم بشرية تأخذ الطبيعة المتأقنمة غير الخاضعة للفساد والانقسام.

وعندما نشترك في جسد الرب ودمه، نأخذه لكي نتأقنم به؛ لأن صراعنا الروحي هو ألاَّ نصبح طبائع متباينة في الكنيسة، بل «أعضاء»، والعضو له وجود خاص متمايز بما يناله من عطية كعين أو أذن أو يد أو قدم، فيصبح الطبيعة الجديدة التي تتأقنم بالنعمة.

١٤– لقد دمَّر الشرُّ حرية الاختيار في الإنسان، وأخضع الأُقنوم إلى طبيعة مستعبدة، وصار فهم حدود الطبيعة المستعبدة للخطية وفساد الموت، هو أحد مصادر المعرفة، بل هو أحد مصادر الوثنية.

أمَّا في المسيح، فإن التقديس هو الذي يجعل الشخص (الأُقنوم) يستوعب الطبيعة، ليس كطبيعة، بل كحياة تُصلَب لكي – بالروح القدس – تُعان وتنال الحياة الجديدة في أُقنوم الابن الوحيد متجهةً – بجحد الذات القديمة، أي الوعي والإدراك للحياة الإنسانية المستعبدة – إلى قبول المسيح الأُقنوم مُعلِن الخلاص للعالم.

١٥– كذلك دمَّر الشرُ وحدة كيان الإنسان. ودخل – مع الشر – الموتُ؛ لأنه بالخطية دخل الموت إلى العالم، فصار الجسد أداة إشباع الرغبات، فصار لنا الظن والوهم بأن لنا «وجوداً ذاتياً» مستقلاً عن الله؛ لأننا انفصلنا عن كياننا الحقيقي، أي صورة الله بالموت.

ودخول الداءُ الخفيُّ (الموت) في فكر الإنسان وحياته، هو دخولٌ جلب معه ثلاثة أشياء:

أولاً: معرفة خاصة مصدرها، ليس الشركة مع الله وفي الله، بل معرفة ذاتية مقيدة باللذة، يسوقها الموتُ نحو إشباع الرغبات بحثاً عن خلودٍ وبقاءٍ يظن فيه الإنسان أنه الوجود الحقيقي.

ثانياً: الاتكال التام على الجسد واعتباره الوجود الحقيقي، أي الوجود المنظور. هذا جلب معه الفوضى في حقل المعرفة، وجعل المنظور أكثر أهمية، بل هو اليقين.

ثالثاً: ضربَ الموتُ المخيِّلةَ، وجعل الإنسان يظن إن ما يتصوَّره ويعطي له شكلاً منظوراً ويخلق له قواماً مادياً يتلاءم مع إحساس الإنسان بأن الجسد وما يخلقه من معرفة ذاتية، هو الصحيح والحقيقي؛ لأنه ملموس وقابل للتحديد.

وبينما المرئي معروفٌ وظاهرٌ للحواس، صار غيرُ المرئي مجهولاً وبعيداً عن الحواس؛ لأن المعرفة صارت تعتمد على الحواس الخمس أكثر من اعتمادها على الحواس الداخلية. هنا – بشكلٍ خاص – أصبح الحق منظوراً ومحسوساً، بينما الحق الأبدي غير المدركَ بالحواس الخمس، صار – بسبب انهيار وحدة كيان الإنسان وسيادة الموت عليه – يستَدِل العقلُ عليه بالمقارنات، ويحسَّه بروحه، وهو الخدمة الإلهية الأولى للروح القدس الذي يقدِّم عطية الحس والإدراك عندما يشرق في قلب الإنسان، معلناً الله من خلال الخليقة المنظورة، داعياً الإنسان لأن يطلب النور الإلهي من خلال الشوق والعطش إلى غير المحدود الذي يزرعه الروح القدس في القلب ويعطيه لكل إنسان يشتاق إلى معرفة الله.

١٦–عندما تجسَّد الرب فتحَ حواس الروح الإنسانية بالتعليم. وصار تجسُّدَه الإعلان المنظور الذي لا يحتاج إلى «معرفةٍ استدلالية»، بل إلى معايشة وشركة تفتح حواس الروح الإنسانية وتعيد للإنسان المعرفة بالأمور الإلهية السابقة على سقوط آدم؛ لأن التجسُّد أدخل غير المنظور – بشكل منظور – في حياة الإنسان الروحية. ولذلك قيل إن الربَ «جعل الاثنين واحداً»، أي الأمور غير المنظورة التي توصف بـــ «السماء» والأمور المنظورة التي توصف بـــ «الأرض»، وصار الكل فيه واحداً تحت «رأسٍ واحدٍ»، فرَدَّ للإنسان المعرفةَ الصحيحةَ التي تجعله يبدأ بالإيمان بالمنظور، لكي يجد فيه – من خلال وحدته بغير المنظور – الطريق السليم الذي يؤدِّي إلى معرفة الله.

بعد تجسُّد الرب، لم تعُد المعرفة الإنسانية – التي تعتمد على الإيمان بالمسيح إلهاً متجسِّداً – معرفةً قياسيةً تعتمد على الاستدلال والاستنتاج، بل معرفة إشراقية تعتمد على الإلهام المباشر الذي يعطيه الروح القدس للقلب. والسبب في ذلك هو أننا – بتجسُّد الرب – ننال معونةً من مسحة الروح القدس التي تعلن لنا يسوع ابن الله المتجسِّد، وترد بداية المعرفة الإنسانية إلى الإيمان؛ لأننا بالإيمان نعبر هوة الوثنية ببشارة الإنجيل، كما نعبر هوة جهل الإنسان بالله بالإعلان عن تجسُّد الرب الذي قلع من قلب الإنسان كل صور البغضة والكراهية والغضب التي اختزنها الإنسان في قلبه عن الله متصوراً أنه قاسٍ لا يرحم، وجبار متسلط ومُهلك، وهي صور الشيطان التي غرسها الشيطان في إدراك الإنسان مصوِّراً له الذات الإلهية بنفس صورته الشيطانية الفاسدة لكي يدمِّر ما تبقى من الشركة.

لكن الرب فدانا بالضعف والألم معلناً بذلك تواضع محبته، وشاركنا في آلام الحياة، بل والموت «ونزل إلى الجحيم بواسطة الصليب»، فصار مع الموتى دون أن يكون أسيراً، وصار مع الأحياء دون أن خاطئاً معلناً لنا إرادته الإلهية ومحبته الأزلية رغم خطايانا، لأننا لم نطلبه، بل هو جاء إلينا وطلبنا، فصار بذلك الراعي الصالح الذي يفتِّش عن الخراف الضالة «ويطلب ما قد هلك».

الشركة الإلهية في الجوهر الواحد[1]

١٧– لا ينبغي أن نهمل كلمة «الشركة في الجوهر الإلهي الواحد»؛ لأن الكلمة تدل على حقيقة المحبة الإلهية، وعلى المصدر الواحد غير المنقسم للنعمة الإلهية.

١٨– نحن نأخذ نعمة التبني عندما نشترك في بنوة الابن، وهو ما يجعلنا نشترك في العلاقة الذاتية الأُقنومية بين الابن والآب؛ لأن بنوة الابن ليست صفة تفصل أُقنوم الابن عن أُقنوم الآب، بل هي ذات علاقة الابن بالآب، وهي العلاقة الأزلية التي تخصُّ الثالوث. وعندما نشترك في بنوة الابن، فإننا نستقر في «حضن الآب» (يو ١ :١٨) وعندما نستقر في «حضن الآب»، فإننا نقيم في هذه النعمة حسب بشارة الإنجيل «النعمة التي أنتم مقيمون فيها» (رو ٥: ٢) أي ثابتون فيها بقوة وعطية الروح القدس الذي من عند الآب ينبثق (يو ١٥: ٢٦).

١٩– نحن نحتاج إلى معونة الروح القدس في كل ما يخصُّ علاقتنا بالابن المتجسِّد حتى لا نعود إلى الوثنية، أي إلى العلاقة الخاصة بين الفرد والصنم (الوثن)، وهي العلاقة الثنائية المغلقة التي تعيد الإنسان إلى صورته الساقطة عندما يتصوَّر الله على صورته الإنسانية الفاسدة.

ولذلك السبب نفسه – وحتى لا نتصوَّر الرب كما نتصوَّر البشر، وحتى لا تسود العلاقة الثنائية وتصبح هي قاعدة الشركة، وحتى لا يتحول الرب يسوع إلى وثن نتصوَّره على صورة فساد طبعنا – أعطانا الرب يسوع الروح القدس المعزِّي والمُعلِّم والمرشد والهادي والمخلِّص والمقدِّس، حتى لا نظن أنه بسبب شركة الرب يسوع في إنسانيتنا وشركتنا في بنوته الأزلية، وهي شركة نعمة، أننا نأتي إلى هذه الشركة كشيء طبيعي يخصُّنا ويخضع لإرادتنا ويقع تحت سلطاننا، بل هو هبة وعطية

(١) عنوان أصلي.

لا نسود عليها، بل تحوِّل كياننا الإنساني وتحوِّل معرفتنا؛ لأن غاية إعلان الثالوث هو أن نشترك في الحياة الإلهية التي هي شركة أزلية، وأن نشترك — كنعمة — نحن «الزمانيون» فيما هو أزلي، لكي نصبح «أبديين» — بالنعمة – في يسوع المسيح.

٢٠– ويُعلَنُ الثالوث لنا، كثالوث، وكوجودٍ حقيقي في الذات الإلهية؛ لكي بالإعلان عن الثالوث تتحرر معرفتنا – بالثالوث كشركة — من العلاقة الثنائية القابعة في قلب الإنسان بسبب السقوط، وبسبب «تخمُّر» الوثنية الدائم في الفكر الإنساني الذي تتسلط عليه الأنانية، والتي تجعل كل فرد يتصوَّر أنه هو وحده الحائز على كل شيء في الله، ويتصوَّر أن الباقين من البشر غارقون في الظلام، بينما هو وحده الحائز على النور الإلهي.

وعندما نُخضِع علاقتنا بالثالوث لأُقنوم واحد أو أُقنومين معاً، ونفقد رؤية الثالوث، فإننا نعود إلى الوثنية التي كانتً ولا تزال علاقة ثنائية بلا شركة بين الفرد والوثن، مهما كانت أعداد الأوثان؛ لأن كل وثن هو صورة إنسانية لا تزيد مهما تعددت الأوثان؛ لأن الصورة الإنسانية الواحدة هي صورة الإنسان الساقط والفاسد الذي لا يعرف الشركة والمُستعبد للأنانية.

الشركة بين اثنين لا تكفي

٢١– والشركة بين البشر إذا تجمَّدت عند الشركة الثنائية، وأُغلقَت بثنائية المحبة بين المُحب والمحبوب، وصار المُحب والمحبوب كلاهما معاً في شركة ثنائيةٍ تجعل المُحب والمحبوب واحداً، وأنكرت الشركة الثنائية وجود باقي البشر، هددت – هذه الشركة – المحبةَ نفسها؛ لأنها تصبح عندئذٍ ثنائية الفرد الذي يرى ذاته في مرآة، ولا يرى في المرآة إلاَّ نفسه. والمرآة هنا هيٍ إمَّا الذات الإلهية، أو الإنسان الآخر المحبوب التي يتصوَّره الإنسانُ المُحبُ كذات واحدةٍ بلا شركة لا تعرف المحبةَ – كصفةٍ أو كحياةٍ حقيقيةٍ – إلاَّ عندما يقدِّم لها الإنسان العبادة، فتصبح العبادة هي المناسبة التي يعرف فيها الإنسانُ اللهَ الواحد والمحبة؛ لأن المحبة معدومة من ذات الإنسان ومن ذات الله، ولا تنشأ إلاَّ بعلاقة الإنسان مع الله وهي العلاقة الثنائية المغلقة.

بينما – حسب إعلان الثالوث – سبقت المحبة الإلهية خلق العالم كله، وخلق الإنسان، بل هي سبب خلق العالم والإنسان، وهي سبب الإعلان عن الخلاص، ولذلك فهي سابقة على كل شيء، ومنها كل ما هو كائن؛ لأن «الله محبة» (١يو ٤: ٨، ١٦) كما قال الإنجيلي.

٢٢– لا نستطيع أن نعود إلى العلاقة الثنائية بين الإنسان والوثن إذا آمنَّا بالثالوث؛ لأننا – بالإيمان بالثالوث – ندخل شركة محبة الثلاثة، وهي شركة لا يمكن أن تُغلق فيها العلاقة على اثنين؛ لأنها شركة بنوة تستدعي، ليس فقط إيماننا بالآب، بل استقرارنا وثباتنا فيه. وتستدعي أيضاً عطية الروح القدس؛ لأننا بالروح القدس نأتي إلى الابن، وبالابن نأتي إلى الآب. ومن الآب قَبِلنا الابن «هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا» (مت ١٧: ٥ – مر ٩: ٧ – لو ٩: ٣٥). ومن الابن قبلنا الروح القدس، وعندما نقبل الآب نقبل الابن، وعندما نقبل الابن نقبل الروح القدس، وعندما نقبل الآب نقبل الابن والروح القدس. وهكذا نرى أن وحدة جوهر الثالوث، هي بسبب شركة الحياة الواحدة لأقانيم جوهر اللاهوت.

٢٣– عندما نتكلم عن الشركة، فإننا نتكلم عن علاقة الأقانيم. فالشركة في الثالوث ليست علاقة خارجية، بل هي حركة المحبة للثالوث: محبة الآب والابن والروح القدس. وبسبب تمايز الأقانيم نستطيع أن نقول بحريةٍ – دون وقوع في تعدد الآلهة — إن الآب يحب الابن ويحب الروح القدس.

والمحبة الحقيقية تحفظ التمايز، بل يجب أن نقول بدقةٍ أكثر: إن التمايز هو سبب المحبة، فالمحبة لا تأتي من الخارج؛ لأن خارج جوهر الله لا توجد محبة، وما هو خارج جوهر الله هو العدم. ولأن المحبة هي حياة، والحياةُ حركة، فإن حركة الأقانيم هي حركة داخلية لا تأتي من الخارج، ولا تُفرض على الله؛ لأن كل حركة حياة هي هبة من الله حتى حركة وسجود القوات السماوية.

٢٤– وحسب ما نرى من تدبير الخلاص، جاء الابن إلينا متجسِّداً حسب مسرة الآب، وحسب الإرادة الواحدة للثالوث، وحسب المحبة الواحدة للثالوث. وعندما قال الإنجيلي: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يو ٣:

١٦)، فإنه كان يبشِّر بمحبةٍ واحدةٍ للثالوث؛ لأن الابن الذي قَبِلَ البذل والذبح على الصليب لم يكن مرغماً ولا تحت سلطان آخر، بل له سلطان المحبة الواحدة وقوتها، وهو سلطان الأقانيم وليس سلطان الطبيعة.

وعندما بذل الآبُ الابنَ، فإن البذل والذبح واحدٌ، فقد بذل الآب ابنه بالروح القدس الذي أتى وحلَّ عليه ومسحه في الأردن معلناً إياه ابناً وحيداً للآب، مقدِّماً إياه إلينا؛ لأننا - بالروح القدس — نقبل المسيح معترفين به حسب عمل الروح القدس في قلوبنا.

ومن تدبير الخلاص ندرك أن المحبة الواحدة تجعل الابن يقبل الذبح لأجلنا؛ لكي يأتي بنا من عصيان آدم إلى **رتبة التبني**، ولذلك السبب عينه تجسَّد **الابن**، و لم يتجسَّد الآب و لم يتجسَّد الروح القدس، بل تجسَّد الابن لكي يثبِّت - بواسطة تجسُّده - البقاء الأبدي حسب نعمة الإيمان لكل الذين يؤمنون به، نعمة التبني لأننا نقوم على صورة الابن وحسب مثاله أبناء بالنعمة ووارثين لكل حقوق التبني.

٢٥- الشركة بين اثنين شركةٌ مغلقةٌ — كما ذكرنا — سواء كان هذان الاثنان هما الفرد الواحد والله الواحد، أو كانا اثنين من البشر.

لكن حسب ما نرى ونلاحظ من الحياة نفسها، أن الشركة الثنائية تحتاج إلى الآخرين، وهنا تصبح — بشكلٍ خاص — علاقة احتياج، لا علاقة محبة، أي علاقة تأخذ ولا تعطي، وإن أعطت، فهي تعطي حسب الاحتياج. ولأن الاحتياج يؤكد الأنانية، طلب الرب مِنّا في الوصية أن نحب الأعداء، وألاَّ نرد من يريد أن يقترض مِنّا (مت ٥: ٤٢)؛ لأن الحاجة تفتقر دائماً إلى العطاء.

ولو تصوَّرنا إن الله هو أُقنومان فقط، لصار الله هو المثال للشركة الثنائية، ولَحَفِظَ ذلك المثال العلاقة المغلقة على اثنين. ولكن، ولأن الله ثالوث، صارت علاقة الثلاثة وشركة الثلاثة، ليست شركة مغلقة، بل شركة محبة ليس فيها احتياج للآخر أو للآخرين، بل انسكابٌ حُرٌّ.

نحن هنا لا نبرر عقيدة وتعليم (ديانة) المسيح؛ لأن الرسول قال إن الله هو الذي يبرر (رو ٣: ٣٠)، فالثالوث يبررنا من الوثنية، ومن المحبة الساقطة التي تقوم على الاحتياج؛ لأن الثالوث هو إعلانٌ عن شركة حياة مثلثة وواحدة، وهو لذلك ينكر «بر الإنسان» الذي يحب عن احتياج ويقيِّد محبته بالاحتياج.

نحن هنا نحسُّ بالمحبة الثالوثية التي تقدِّم لنا مثال العطاء في دائرة مفتوحة أمام الخليقة.

لقد قال لنا الأب ديونيسيوس: **إن الله خلع أمامنا حجاب جوهره، لا لكي نتفرَّس فيه، بل لكي نتعلم منه المحبة الكاملة التي لا تغلق دائرة الشركة. وأنا أُضيف إن هذا تم بتجسُّد الابن الذي أحب الآب أزلياً، وأحبه بشكلٍ خاص كمتجسِّدٍ، لكي يُدخِلُ الإنسانيةَ في شركة المحبة، ويعطي لنا فيه أنَّ ندخل ذات الشركة، ونتمتع بمحبة الآب الغنية بسبب اتحادنا بالرب يسوع وسُكنى الروح القدس، ولذلك نحن لا نأخذ محبةً ثنائيةً من الابن بالروح القدس، بل محبة ثالوثية من الآب بالابن في الروح القدس.** ومن الروح القدس بالابن نعود إلى الآب أصل كل العطايا وجوهر المحبة الإلهية التي قال عنها الإنجيلي: «الله محبة» (١يو ٤: ٨، ١٦).

ومن تدبير الخلاص نعرف أننا لا نحتاج إلى شرح الثالوث خارج تدبير الخلاص؛ لأن كل شرح لا يقدِّم لنا رسالة الخلاص هو شرحٌ غريبٌ عن الإنجيل؛ لأن الثالوث هو بشارة حياة وخلاص لكل الذين يطلبون الحياة والشركة في محبة الله.

نحن لا نحتاج إلى دفاع عقلي عن الثالوث؛ لأننا لا نملك أن نقدِّم أدلةً عقليةً عن الحياة الإلهية، ولكن عندما قبلنا بشارة الإنجيل بالخلاص والحياة والشركة، أدركنا صحة الإيمان من الممارسة، ومن قبول الأسرار الإلهية.

إعلانات تدبير الخلاص[١]

٢٦– هذه هي إعلانات التدبير التي تؤكد لنا وحدة جوهر الثالوث والمحبة الواحدة: التجسُّد الإلهي – المعمودية في الأردن – تجارب الرب في البرية – الصليب – القيامة من الأموات – الصعود – الجلوس عن يمين الآب – انسكاب الروح القدس في يوم العنصرة على الخليقة الجديدة الكنيسة الجامعة.

التجسُّد الإلهي إعلانٌ عن الثالوث

٢٧– قال معلمنا القديس أثناسيوس: «صار الكلمة جسداً، لكي يصير الجسد ناطقاً»[٢]. وقد نطق الجسد المتَّحد بلاهوت الكلمة:

أولاً: بمحبة البشر.

ثانياً: بالخلاص الأبدي.

ثالثاً: بإعلان عن الآب والروح القدس. وهو ما ظهر لنا في تجسُّد الابن ومعموديته في الأردن، وتجلِّي الرب على جبل طابور.

ونحن لا نفصل بين محبة البشر والخلاص والثالوث؛ لأن هذه معاً هي التعليم الواحد الأُرثوذكسي الذي «نفصِّله» حسب قدرتنا، ولكنه يبقى تعليماً واحداً لا يقسِّم الخلاص ومحبة وإعلان الثالوث إلى ثلاثة موضوعات منفصلة؛ لأن التقسيم يؤدِّي دائماً إلى جهلٍ بالوحدة والتناغم بين الأصل، وهو الثالوث، والعطية وهي الخلاص.

٢٨– أعلن التجسُّد محبة البشر؛ لأن التجسُّد لم يكن حادثاً عارضاً ومؤقتاً، بل هو اتحادٌ أبديٌ دائمٌ بين اللاهوت والناسوت.

(١) عنوان أصلي.

(٢) العبارة كما وردت عند القديس أثناسيوس هي: «في المسيح سُحيا جميعاً، ولم يعُد الجسدُ أرضيٌ، بل صار ناطقاً» ضد الأريوسيين ٣: ٣٣ – أي اشترك في قوة حياة اللوغوس، فصار حياً حسب اللوغوس وليس حسب الأرضيات.

٢٩- ثبَّت التجسُّد مكانة الإنسان وحظوته لدى الله؛ لأن اتحاد اللاهوت بالناسوت جعل نائب ورأس الإنسانية الجديدة متحداً بالآب وبالروح القدس، وحاملاً في شخصه (أُقنومه) كل ما يسمى بالطبيعة الإنسانية ما خلا الخطية.

٣٠- غيَّر التجسُّد علاقة الله بالإنسان، إذ صار الوسيط، هو رأس الإنسانية ربنا يسوع المسيح نفسه، وليس الشريعة أو الطقوس، بل الابن المتجسِّد رئيس كهنة الخيرات الآتية، والتي هي عطاياه لنا، والتي هي حياته وشركته في الآب وفي الروح القدس.

٣١- أعاد التجسُّد شرح الأسفار المقدسة على أساسٍ أبدي واضح، وهو يسوع المسيح «حجر الزاوية» ورأس كلٍ ما هو جديد، والذي صارت كل كلمات الأسفار المقدسة علامات ورموز لأُقنومه المتجسِّد.

٣٢- لم يعُد الخلاص ممارسات وطقوساً مثل طقوس وممارسات العهد القديم تجلب رضاء الله على البشر، بل صار الخلاص في الرب يسوع محفوظاً فيه؛ لأنه هو ضمان العهد الجديد الأبدي (عب ٧: ٢٢)، ومحفوظاً بقوة اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد يسوع المسيح، وحسب محبته وليس حسب قداسة وبر الإنسان؛ لأنه حيث كثُرت الخطية ازدادت النعمة بوفرة لا مثيل لها (راجع رو ٥: ٢٠) ويكفي أن نقف عند المذبح المقدس لكي نأخذ جسد الرب ودمه ونحيا به.

٣٣- من حياتنا في الجسد، ومن حياتنا الأرضية عموماً تعلَّمنا ضرورة الوزن — الحجم — الشكل — اللون — الرائحة — اللمس — التذوُّق.

وعندما تقدمنا في الحكمة، ونَمَت معرفتنا تعلَّمنا المنطق — الاستدلال — القياس.

وتفوقت المعرفة العقلية على المعرفة الحسية، بل صارت المعرفة الحسية تخضع لها، وصارت المعرفة الآتية من الحواس الخمس أقل من المعرفة العقلية التي تولد في قلب وعقل الإنسان.

فكيف صار «الجسد ناطقاً»، أي جسد الله الكلمة؟

نطق **أولاً** بالمحبة، إذ قَبِلَ شكل وصورة العبد.

نطق **ثانياً** بالحياة، وهي جوهر كل ما هو كائن. وهي - لذلك - سابقة

على المنطق والاستدلال والقياس. وقد نطق بالحياة، ليس فقط لأنه شفى مرضى كثيرين (لو ٤: ٤٠) بعضهم لم يكن له إيمان، ولم يطلب التوبة كشرط للغفران، بل غفر وشفى؛ لأن الحياة تسبق كل قواعد المنطق، ولذلك غفر لصالبيه.

والمحبة تسبق كل شيء، بل لا إيمان بلا محبة. والإيمان الذي يولد في الإنسان بدون محبة الرب يسوع هو إيمانٌ ناقصٌ معرَّضٌ دائماً للضعف؛ لأنه لم يأخذ قوة المحبة، لأن المحبة حياة.

نطق **ثالثاً** بالتجديد؛ لأنه جاء وجدَّد الجسد من الموت إلى الحياة الأبدية بالقيامة من الأموات بعدم فساد.

وهنا يجب أن نقول إن عبارة قانون الإيمان: «نزل من السماء» لا تشير فقط إلى تواضع الرب يسوع المسيح وتنازله، بل أيضاً تؤكِّد نزول كل ما هو سمائي لحياتنا الأرضية مثل عدم الفساد، وهي إحدى صفات السمائيين.

كيف نطق (علَّم) الجسد عن الثالوث؟

٣٤- يا كلمة الله الكائن في الحضن الأبوي كل حين، يا مَن تنازلت إلى عالمنا المائت الذي أخضعه آدم الأول للفساد والموت وجلب ظلمة الدينونة وبه سقطنا في الحفرة، فنزلت أنت إلينا في صورتنا لكي تنقذ الصورة التي خلقتها لمجدك.

يا ابن الله الحي، بدون تجسُّدك كانت معرفتنا بالآب قاصرة على أنه خالقٌ فقط. وقبل تجسُّدك رآك الآباءُ والأنبياءُ، الحكمةَ وملاك الرب[1] ولكن بعد تجسُّدك أدركنا أنك أنت الابن الأزلي، وأن الحكمة الأزلية هي حكمة المحبة، وأن القوة الإلهية هي قوة المحبة، وأن عدلك هو شفاء وتجديد ورد الضال وإحياء الموتى.

نطقت بحياتك، وحوَّلت حياتك إلى كلمات حية. لم تنطق كما ننطق، بل كنت الحياة ولا زلت ينبوع الحياة، ولذلك قلت: «الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣).

(١) ملاك الرب ليس هو أحد الملائكة، بل كلمة «ملاك» حسب الأصل العبراني تعني رسول أو نائب، ولذلك يقول القديس أثناسيوس: «إن المتكلم من القوات السمائية يكشف عن هويته عندما يقول: أنا ملاك الرب، ولكن عندما يقول: أنا الرب إلهك، فالكلام هو عن ظهور الابن بشكل سمائي قبل تجسُّده من والدة الإله» (راجع ضد الأريوسيين ٢: ٢٧).

وعندما أسست العهد الجديد لم تقدِّم لنا ثنائية الكلمة والروح، والكلمة والجسد والدم، بل صارت كلماتك دماً أي حياةً، وصار جسدُك كلمةً أي إعلاناً، وصار روحك عطيةً وحلولاً في قلوبنا الخاطئة، وصارت وليمة الشكر هي (المناسبة) والإعلان عن واحدية الكلمة والجسد والدم؛ لأننا نسمع صوتك الإلهي: «خذوا كلوا هذا هو جسدي»، وبكلمتك نقبل العطية لكي نصير شهادة المحبة والكلمة الصادقة، وقد أدرك الرسول واحدية الكلمة والجسد، فقال: «صادقةٌ هي الكلمة ومستحقةٌ كل قبول»، وسجَّل بعد ذلك الإعلان الأبدي عن الخلاص؛ لأن الكلمة القريبة من اللسان والتي في القلب هي: أن يسوع مات لأجلنا، وصار موته كلمةً، وصار الصليبُ حياةً. والاعتراف بالرب يسوع مصلوباً ليس هو اعتراف بكلمةٍ قيلت، بل بذبيحة قُدِّمت وقرباناً طهَّر النجسين.

٣٥- جاء التجسُّد بثلاث تغييرات جوهرية في لغة الإنسان:

أولاً: لم يعُد الإيمان محفوظاً في عباراتٍ، ولذلك كتب الرُسل الأناجيل الأربعة التي تُقرأ معاً من أجل قبول شهادة الشهود، وهم كُثر.

ثانياً: لم تعُد الكلمة هي معيار الحق وقاعدته، بل صار الحق معلَناً «بروح الحق» الذي ينطق بكلمة الحق وإليه تعود الكلمة وبه تُقبل، أي كلمة الروح القدس.

ثالثاً: لم يُعطَ الإعلان عن محبة الله في أقوال، بل أُعطيَ في تجسُّد ابن الله، وصار الجسد والحياة التي أُعلنت فيه «الذي رأيناه، الذي سمعناه، الذي لمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ لأن الحياة أُظهِرت» (١يو ١: ١ - ٣)، أي الحياة التي كانت عند الآب.

كيف أعلن التجسُّدُ الثالوثَ؟[١]

٣٦- نحن لا نتعلَّم شيئاً من الفضول. والسؤال: بـــ «كيف؟» يجب أن يأتي بعد السؤال: بـــ «لماذا؟»؛ لأننا كمخلوقين لا نملك - في كياننا القديم الذي من

(١) العنوان من وضع الناشر.

الخليقة الأولى، ولا في كياننا الجديد الذي يخرج من الخليقة الجديدة - أيةَ قدرة أو كلمةٍ أو معرفةٍ تجعلنا قادرين على الإجابة عن «سر الوجود» كله، وهو الله خالقنا ومصوِّرنا حسب إرادته.

ولأننا نعجز عن أن نعرف «كيف؟»، فإن الإعلان أجاب عن «لماذا؟». وفي تعليم الرب نفسه لا نجد الجواب عن «كيف؟»، بل عن «لماذا؟». فقد شرح لنا التدبير في العظة على الجبل وفي الأمثال، وهي أمثلة حلوة وحية للتعليم حسب الحياة التي تلد المعرفة الحية التي من تدبير الابن المتجسِّد؛ لأنه جاء لأجل خلاصنا «هذا الذي لأجل خلاصنا نزل من السماء» حسب كلمات الأمانة (قانون الإيمان).

٣٧- جاء الابن من عند الآب وتجسَّد من والدة الإله القديسة مريم. لم يكن له أبٌ حسب الجسد، ليس لأن الزواجَ شرٌ أو نجاسةٌ حسب تعليم الغنوصيين، بل لأنه أراد أن يرُدَّ الطبيعة الإنسانيةَ إلى الغاية الأعظم التي خُلِقَت لها، وهي عطية التبني، ولذلك السبب وحده لم يأتِ الرب لكي يحفظ ناموس الولادة الجسدية من الأب والأُم، بل لكي يؤسِّس سر التبني من الآب وبالروح القدس، ويحفظه فيه بثبات وقوة أُقنومه الإلهي، وأمانته التي لا تجعل للتحوُّل مكاناً في مقاصد الله الآب العليا، ولذلك قال الرسول: «عظيمٌ هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد» (١تيمو ٣: ١٦).

٣٨- إذا سألنا عن سبب ولادة الابن من الروح القدس، ومن العذراء القديسة مريم، وجدنا ثلاث حقائق هامة عن الثالوث:

أولاً: تأسيسُ بداية جديدة للجنس البشري الجديد الذي يأخذ بدايته، ليس من العدم والتراب كما حدث في الخليقة الأولى عندما أخذ الرب تراباً من الأرض، وخلق منه آدم وحواء بعد ذلك، بل من الروح القدس والماء، يأخذ بدايةً جديدةً تحتوي القديم وترفعه إلى فوق إلى حيث الحياة الكاملة، أي الحياة التي لا يسود عليها الموت والفساد.

لقد حلَّ الروح القدس محل العدم، ومحل آدم الأول عندما تجسَّد الرب؛ لأن خالق الكل عندما يتجسَّد لا يأخذ بداية «أيام جسده» (عب ٥: ٧) من

العدم ولا من آدم، بل من الروح القدس الرب المحيي، لكي - من بداية تكوين جنسنا - ندرك أن الخليقة الجديدة أساسها في الثالوث. ومن هذا الأساس نفسه نعلم أن بداية خلقتنا الجديدة هي من الله، وغايتها في الله، ولذلك قال الرسول: «مخلوقين لأعمالٍ صالحةٍ قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أف ٢: ١٠)، أي مسيرتنا معٌ الثالوث التي تبدأ بالولادة وتنتهي بميراث الملكوت.

ثانياً: عندما صارت بداية الجنس البشري الجديد في المسيح، وصارت بداية الطبيعة الجديدة بتجسُّد الابن من العذراء وبالروح القدس، صارت بداية كل الأشياء الجديدة من الروح القدس الذي أسس الطبيعة الجديدة في المسيح، ولذلك نحن نستدعي الروح القدس في كل خدمة (طقسية) وفي كل صلاة لكي ننال به البقاء في الحياة الجديدة.

ثالثاً: وبالروح القدس نرى شجرة الحياة التي أعاد الرب غرسها في بستان الكنيسة، تلك الشجرة الروحية التي تعطي ثمرة الحياة الأبدية، أي جسد الرب ودمه للحياة والشفاء والغفران والتجديد.

هذه الرؤية الروحية تنبع من روح الحق؛ لأن الشجرة تأخذ قوتها من الروح القدس الذي سبق وأعطى الإعلانات، ورتَّب الصلوات في الكنيسة الجامعة معلناً فيها حقيقة الشركة الأبدية الجديدة في الحياة التي لا تعرف الموت؛ لأن بالخطية معرفة الموت وبالروح القدس معرفة التقديس، ليست المعرفة التي تؤدِّي للتقديس، ولكن التقديس الذي يعطي ثمرة المعرفة الجديدة.

٣٩- لم يعلن التجسُّدُ الثالوثَ بشكلٍ مرئي محسوس، بل أعلن التجسُّدُ الثالوثَ بشكلٍ روحيٍّ يعالج خطية الإنسان، ويؤسِّسُ شركة الحياة، ويزرع شجرة الحياة التي تسبق شجرة المعرفة في الترتيب (الطقس) الذي يخصُّ الحياةَ الجديدةَ.

لقد جاء ابن الله وأعطانا معرفة الآب؛ لأن الله لم يوصَف باسم الآب في كتب الأنبياء إلاَّ نادراً. وكانت كلمات الأنبياء تعطي إشارةً إلى أن الآب هو خالق. هكذا جاء قول أشعياء: «يا ربُّ أنت أبونا. نحن الطين وأنت جابلنا وكلنا عمل

يديك» (أش ٦٤: ٨). وقبل ذلك بقليل يقول النبي عن الرب يسوع إن «سنة مفدِّي الرب قد أتت» (أش ٦٣: ٤)؛ لأن الرب قد صنع لنفسه اسماً أبدياً بالخلاص الذي أعلنه عند البحر الأحمر والقوات الفائقة في البرية «هكذا قُدْتَ شعبك لتصنع لنفسك اسمَ مجدٍ» (أش ٦٣: ١٤)، وهكذا ضمَّ النبي اسم الأُبوة إلى اسم المخلِّص حينما أعلن مجيء الرب ليفدي الذين هم في حاجةٍ إلى الخلاص «أنت يا رب أبونا، وليُّنا (مخلصنا)، منذ الأبد اسمك» (أش ٦٣: ١٦).

لكن – بالتجسُّد – صار الله مُعلناً آبُ ربنا يسوع المسيح. آبُ الابن الذي عاش بيننا، والذي علَّمنا صلاة البنين «أبانا الذي في السموات»، والذي قال: «أبي الذي هو أبيكم»؛ لأنه آدم الجديد، «وإلهي الذي هو إلهكم»؛ لأننا ذرية آدم الجديد الذي صارت له الإلوهة مُعلَنَةً حسب الشركة، وليس فقط حسب سيادة الله كخالق.

٤٠– لم تعُد الأُبوةُ اسماً يُقَال، أو اسماً تؤكِّده أحداث الخلاص، بل اسماً أُقنومياً لشركةٍ جديدةٍ وعهدٍ جديدٍ أبدي، حيث نأخذ ميراثنا الأبدي في الثالوث بواسطة ابن اللهٍ الذي «أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له»، فصارت الشركة التي نعترف بها؛ لأنه أخذ منَّا لكي يعطي الذي له، أخذ منَّا الناسوت وأعطانا حياته، أي إلوهيته التي ملأت الجسد وأعطت لنا نحن الترابيون الحياة الجديدة التي لا تعرف الموت، ولذلك قال الرب عن شركتنا في جسده ودمه إن الذي يشترك «لن يرى الموت» (يو ٨: ٥١)، ولن يموت بل يحيا إلى الأبد (راجع يو ٦: ٥١، ٥٨).

٤١– هكذا أُعلن الثالوث لنا: شركةٌ، وعطيةُ حياةٍ تفتح «الذهن» (لو ٢٤: ٤٥) لفهم أسرار الله.

نبدأ بالنعمة، أي نعمة الاستنارة.

وهنا يصبح كل جدلٍ عن طبيعة الله عبثاً لا يؤدِّي إلى شيء، ولكن التعليم الذي يمهِّد للاستنارة هو التعليم الذي لا يناقِش أفكار الجحود وإنكار الثالوث، بل هو الذي يقدِّم العطية ويشرح الممارسة تاركاً للروح القدس خدمة الاستنارة.

التجسُّد وشركة الإنسانية في الابن المتجسِّد

٤٢– أخذ الرب جسداً مثل أجسادنا، ونفساً إنسانيةً مثل نفوسنا. اتحد بكل طبيعة الإنسان «ما خلا الخطية وحدها» حسب اعتراف الكنيسة الجامعة الرسولية.

وعندما نقول «ما خلا الخطية وحدها»، فإننا نميِّزُ بين الطبيعة الإنسانية التي شوهتها الخطية وجعلت تمايز الأشخاص يمر من خلال السقوط، وبين الطبيعة الإنسانية كما خلقها الله، والتي تحفظ التمايز بين الأشخاص كعلامة تؤكِّد ضرورة الوحدة بين المتمايزين، حيث التمايز ليس بسبب الاختلاف في الطبيعة، بل بسبب تنوع المواهب، وهو تنوُّعٍ لا يمس كيان الإنسان، بل يحدد دوره في الحياة كإنسان.

وتمايزٌ تحدده الخطية، ليس مثل التمايز الذي تحدده المحبة، ولذلك السبب جاء المعلِّم والرب المخلِّص وأعطى لنا علامات التمايز الحقيقي، ونقض بذلك علامات ورسومات (صور) التمايز الكاذب بتجسُّده:

أولاً: تمايز يُعطى من خلال الشركة، عندما يصبح التنوع والاختلاف من أساسات الشركة بسبب المحبة. وهو غير التمايز الذي تزرعه الكراهية والخوف وعدم الثقة والانفصال. إنه ليس تمايز انفصال، بل تمايز شركة، وهو الذي جعل الرب يقبل كل ما في الإنسان ما عدا الخطية؛ لأن الخطية تعطي تمايز الانفصال وتقتل الشركة.

ثانياً: تمايز يولَد من اعتبار الفروق، سببُ محبةٍ وانعطافٍ نحو الشركة، ليس عن احتياج ولا من أجل المودة والألفة؛ لأن الخطية تحدد المحبة كما قال الرب إن العشَّارين والخطاة يحبون بعضهم البعض (راجع مت ٥: ٤٦). والخطية هي احتياجٌ لما هو غريب وخارج عن حدود الطبيعة الإنسانية، أي «التعدِّي».

عندما تجسَّد الربُ حفظ حدود الطبيعة الإنسانية؛ لأنه جاء لكي يشفي لا لكي يُبيد. جاء لكي يجدد ويحيي ويحفظ للإنسان كيانه، ويحوِّل استقلال الإنسان إلى عطشٍ دائمٍ نحو خالقه، ويدعِّم هذا العطش بقوة الروح القدس

لكي ينطلق الإنسان نحوه منعطفاً بقوة المحبة التي يزرعها الروح القدس وتنسكب في قلوب المؤمنين الذين عندما تنضج محبتهم يصرخون مع الابن وفيه بقوة انعطاف الروح القدس نحو الآب والابن «أبًّا أيها الآب» (غلا ٤: ٤ - ٥).

تمايُز المحبة
بشارةُ حياة

٤٣– جاء الرب بتمايز المحبة، وهو تمايزٌ لا يخضع لناموس أو لشريعة، بل حتى عندما يقول الرسول: «إن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الموت» (رو ٨: ٢)، فإنه لا يعني وصايا، بل قوة الحياة التي هي صليب الرب يسوع، فهو ناموس أو شريعة الحياة.

وعندما يطلب الرب أن نجحد أنفسنا ويحمل كل منّا صليبه ونتبع الرب، فقد أكّد تمايزنا في حمل الصليب، وإن الصليب هو ناموس أو شريعة الحياة.

هذا ليس مثل وصايا موسى، بل هو طريق الحياة الذي لا ينفصل عن الرب يسوع؛ لأن الرب يقول: «يتبعني»، وأكّدها «كل يوم». وعندما نتبع الرب ندرك أننا لا نحمل صليبه، بل نحمل صليبنا الذي هو صليب الرب، أي بذل النفس وذبح النية وترك القنية، ولذلك كان فخر الآباء الذين سبقونا هو أنهم «لُبّاس الصليب».

هكذا يبدأ تمايُز المحبة بحمل الصليب والسير مع الرب كل يوم نحو الجلجثة والقبر والقيامة، وهو الحبل المثلث الذي لا ينقطع (أمثال ٤: ١٢)[١].

نحن نرفض الحياة الترابية، أي الطبيعة التي تأخذ قوتها وكيانها من «أركان العالم»[٢].

ففي الصليب أباد الرب الموت، فحرر الإنسانية من الخضوع للداء القديم أي الخوف من الموت. وفي القبر أعطى «النياح» أي الراحة من أتعاب العالم. وفي

(١) «وإن غلب أحد على الواحد يقف مقابله الاثنان والخيط المثلوث لا ينقطع سريعاً» (أم ٤: ١٢).

(٢) «إذاً إن كنتم قد متم مع المسيح عن أركان العالم، فلماذا كأنكم عائشون في العالم تفرض عليكم فرائض» (كولوسي ٢: ٢٠).
أركان العالم حسب الأصل القبطي — اليوناني هي: ⲛⲓⲥ̀ⲧⲟⲓⲭⲓⲟⲛ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲕⲟⲥⲙⲟⲥ وهي المواد الأولية التي تكوّن الطبائع المخلوقة مثل الماء والنباتات ... إلخ. وعبودية الإنسان لأركان العالم تعني الطبيعة المستعبدة للنظام الكوني.

القيامة أعطى المجد الأبدي وحياة عدم الفساد.

هنا لم تكن الطبيعةُ الإنسانيةُ مرغمةً أو مستعبَدةً أو خاضعةً بدون تمييز، بل كما يقول الرسول: «من أجل السرور الموضوع أمامه مضى إلى الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (راجع عب ١٢: ٢).

لقد ميَّز الرب بين المجد الحقيقي في شركة الطاعة، وبين المجد المزيَّف في استقلال الإنسان ورفضه للشركة؛ لأن الطاعة التي تولَد في الشركة وفي المحبة ليست مثل طاعة العبيد. وعندما قال الرسول إن الرب «أخذ صورة العبد» (فليبي ٢: ٧)، فهو لم يكن يعلن لنا أنه أخذ طبيعةً مستعبدةً للخوف والكراهية والرفض والعصيان، أي الطبيعة التي تحيا بدون شركة مع الله؛ لأنه جاء لكي ينقض هذه الطبيعة ويحررها، ولذلك أخذها كما هي وجعلها تنمو في النعمة والقامة عند الله والناس (راجع لو ٢: ٥٢) نمواً حسب المحبة – وعبارة حسب المحبة تعني أصلاً حسب الاتحاد بلاهوته – ليس قسراً أو عنوةً، بل عن محبةٍ حقيقيةٍ نَمت حسب قدرات الطبيعة وحدودها، وحسب الاتحاد وهو الأمر الخاص بالربِّ والذي يُنقل إلينا حسب النعمة؛ لأن قدراتنا وحدود الطبيعة الإنسانية فينا تبقى بلا تدمير، ولكنها تُعان بالاتحاد باللاهوت بالآب والابن والروح القدس، وترتفع بالنعمة إلى مجد الحياة الجديدة.

هذه هي شركتنا في لاهوت الابن، وهي شركة مؤسَّسة على النعمة والتمايُز التام الذي لا اختلاط فيه ولا امتزاج ولا تغيير.

هذه هي حدود «السر»، أي «سر المسيح والكنيسة»، أي اتحاد الرب بالمؤمنين. وهو سر تماسك وبقاء الكنيسة في العالم؛ لأنه بنيانٌ من الله لا يخضع لما نعرفه عن «أركان العالم». وهو «سرٌّ»؛ لأنه ليس شركةً حسب الطبيعة، بل شركة حسب النعمة، وهو لذلك لا يخضع لمقاييس الحياة الحسيِّة، أي ما نعرفه عن حياة العالم وعن أركان العالم.

كان الأب ديونيسيوس معنا عندما كُنَّا نبني الحائط الشرقي للدير، وكان شيخاً قد تقدَّم في الأيام ووقف يراقب الإخوة، وقال لهم: إن بناء الحائط مثل

بناء الكنيسة؛ لأن كل مِنَّا حجرٌ في بيت الرب، في هيكل الرب، ولكن كما قال الرسول: «حجارةٌ حيةٌ» (١بط ٢: ٥)، و«المونة» التي تسبب تماسك الحجارة هي الروح القدس؛ لأن الروح هو الذي يجمعنا معاً؛ لأنه يميِّز فينا شكل المسيح الحي الذي هو أساس البناء (أف ٢: ٢٠).

هكذا تصبح شركتنا في المسيح: شركةُ بذلٍ من الصليب، وشركةُ حياةٍ جديدةٍ من القيامة، وشركةُ نياحٍ بقوة غلبة الموت؛ لأن البذل صعبٌ، بل مستحيلٌ على الطبيعة القديمة التي لا تعطي إلاَّ لكي تأخذ، وعندما تأخذ، فإنها تسود وتملك. أمَّا الطبيعة الجديدة، فهي تعطي وتأخذ لكي تشترك وتشارك، إذ غاب عنها الموت الذي «دَحَرَهُ» الربُ و«أبادهُ»، فصارت غنيةً بالصلاح والجود، أي صلاح الرب وجُودِه.

٤٤– فما هو تمايز المحبة الذي تسلَّمناه حسب الإيمان الحي؟

هو تمايزٌ يحفظ الكيان الإنساني حسب حدود الطبيعة الجديدة. وها هي هذه الحدود الجديدة: يقول الرب يسوع: الذي يحبني أنا أحبه. كما يقول إنه هو والآب يأتيان لكي يقيما معه «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤: ٢٣)، فما هي إقامة الله فينا، وما هي إقامتنا في الله؟

يقيم الثالوث فينا بسبب تجسُّد الابن وانسكاب الروح القدس.

ونحن نقيم في الثالوث بسبب «الصبغة المقدسة»[1] وبسبب مسحة الميرون الإلهية، وبسبب التناول من «سر الأسرار» جسد الرب ودمه.

تأمَّلوا أيها الإخوة هذه الحقيقة: نحن نولَد في المعمودية ونصطبغ فيها لحياةٍ تغلب الأنانية. ونُمسَح بالروح القدس لحياةٍ تحت قيادة واستنارة الروح القدس الذي يضع فينا «فكر المسيح» (١كور ٢:١٦). وعندما نصل إلى هذه النعمة ننال جسد الرب ودمه؛ لأننا بالصبغة والاستنارة وقيادة الروح القدس نتعلم كيف نميِّز جسد الرب ودمه الذي يدخل إلينا وفينا وأبواب الحواس مغلقة، لكي يعطي السلام الأبدي

(١) «الصبغة» هي الترجمة العربية الدقيقة لكلمة معمودية، وهي تشرح لنا تغيير الطبيعة الذي لا يختلف عن تغيير اللون عندما نصبغ القماش.

للنفس، كما فعل بعد القيامة مع الرسل القديسين (راجع يو ٢٠: ١٩، ٢٦).

وهنا يجب أن نقف أمام هذه الحقيقة الفائقة: نحن نولَد، وعندما نصطبغ، تصبح كل مقاييس المعرفة هي مقاييس الرب، ونتعلم «هندسة الروح القدس»[١] أي بناء الرب يسوع الذي تعلنه بداية الليتورجية «سلاماً وبنياناً لكنيسة الله».

فكيف تُبنى الكنيسة؟

إنها تُبنى على أساسٍ واحد، وهو يسوع المسيح رب المجد، وتتماسك بقوة واحدة هي قوة الروح القدس. ولا يوجد أيُ فارق بالمرة بين الكلام عن قوة الرب يسوع وقوة الروح القدس وقوة الله الآب؛ لأن للثالوث «قوة واحدة»، لكن – بسبب وحدة جوهر الثالوث وبسبب الشركة – يصبح إدراك التمايز في العمل ليس مناسبةً لفصل وحدة جوهر الثالوث، بل لتأكيد الوحدة بسبب النعمة الواحدة التي توهَب من الأقانيم.

نحن نبني مع الرب لأننا «عاملون مع الرب» (٢كور ٦: ١)، ونحن «فلاحة الرب» (١كور ٣: ٩)، وهذا لا يشرح الأساس، بل يشرح الشركة في القوة الواحدة «السينرجيا» Synergia [٢] أي العمل الواحد الذي يجمعنا معاً.

نحن نُبنى بالمحبة وبالبذل وبالشركة؛ لأن الأساس الذي يجمعنا هو أساسٌ واحد، وهو يسوع المسيح مصدر المحبة القائمة من القبر، المحبة التي غلبت كل أشكال الانفصال. ومصدر البذل، أي قوة الصليب. ومصدر الشركة؛ لأنه يحيا في الشركة الأزلية لأقانيم الثالوث قبل تدبير الخلاص المُعلَن في الزمان الحاضر.

لذلك أُكرر أمامكم دائماً أنه لا توجد محبة خارج الثالوث. والتوحيدُ لا يُعلِن المحبة بكل أبعادها، أي الشركة. ولا توجد محبة باذلة بدون الصليب؛ لأن ابن الله الحي جاء لكي "يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يو ١١: ٥٢)، وهو لذلك يجمع الكل في شركةٍ بالبذل، ويسوق القطيع الواحد كراعٍ صالح محب نحو الآب

(١) حسب الأصل القبطي — اليوناني، الكلمة هي «تقنية» الفنان ⲦⲈⲔⲦⲰⲚ وهي كلمة شائعة في كل الكتابات النسكية.

(٢) أي اتحاد الإرادة والقوة مع إرادة الرب. استُخدمت هذه الكلمة بوفرة في الكتابات النسكية، وأصل الكلمة هو «ενεργεια» أي قوة أو طاقة وتستعمل لوصف عمل كلمة الله وعمل الروح القدس، فاعلية الأسرار مثل المعمودية والميرون والإفخارستيا، راجع:
G. Lampe, A Patristic Greek Lexicon, pp 470 – 473.

لكي ينال القطيع – بالابن – محبة الآب والروح القدس؛ لأننا فيه، أي في المسيح قد انسكبت محبة الله بالروح القدس في قلوبنا (رو ٥: ٥) أي بذات الروح الذي مسح يسوع في الأردن وأعلنه "المسيح"، لكي يكون لنا شركةٌ بالمسحة في محبته للآب ومحبته لنا التي أظهرها نحو ضعفنا، إذ قَبِلَ أن يكون واحد منَّا، وبِكراً في كل شيء: في الولادة حسب الروح، وفي المسحة بالروح، والقيامة بالروح القدس الذي أقامه من الأموات، وقبل ذلك في تقديم ذبيحة محبته بالروح القدس (عب ٩: ١٣).

أعود وأُكرر الكلام ولا أتعب من التكرار: لا توجد فضائل أو حسنات أو أعمال صالحة مقبولة لدى الله خارج الشركة في الثالوث؛ لأن الصدق والأمانة والجود والإحسان وكل ما يمكن أن يوصف بأنه صالح لا أساس له في حياتنا، أي لا أساس إلهي له بدون الروح القدس؛ لأن مَن يُظهِر التواضع لكي ينال مديح الناس هو شيطان خفي، ومَن يعطي الفقير لكي ينال مكافأة من الله لا يعرف المحبة، ومَن يُظهِر الجود والصلاح نحو عدوه — وهو أمرٌ نادر الحدوث — من أجل كَسبه، لا بسبب فيض المحبة الإلهية، هو غريبٌ عن الله، وقد تغرَّب عنه بالأعمال الصالحة.

ومَن هو أمينٌ في القول والفعل لأنه يريد أن يتجنب شرور الكذب، هو محبٌ لذاته، وقد أفرط في محبة ذاته.

هذه الأمور لا يجب أن تخفَ عليكم؛ لأن التقوى بدون الإيمان لا أساس لها في الله، بل أساسها في الذات، وهي من الذات وتعود إلى الذات.

٤٥– ها أنا أُعيد عليكم ما سبق وقلناه من قبل في اجتماع عيد تجسُّد ابن الله (عيد الميلاد)، وقد قرأ علينا الأب ديونيسيوس رسالة الأب زكريا ومعها فصول كاملة من كتاب تجسُّد الكلمة للعظيم في القديسين معلمنا أثناسيوس الرسولي، وفصول من كتاب الروح القدس لأبينا المُعلِّم بنيامين. ومن هذه الكتب تعلَّمنا أن الفضائل هي ثمرة الاتحاد بالله في الابن وبواسطة الروح القدس.

لا يستطيع مخلوقٌ — مهما كان — أن يخلق كيانه، ويحوِّل ذاته من الفساد إلى

عدمِ الفساد، ومن الموت إلى الحياة؛ لأن ذلك يعني أن الإنسانَ خالقٌ؛ لأنه يملك حياةً غير حياته، وهذا غير صحيح ويكذِّبه التاريخ والواقع نفسه؛ لأن التاريخ مملوء بالعبادات الوثنية، وبعاداتٍ شريرةٍ وسيئة لا مجال لها هنا حتى لا يتدنس الفكر.

٤٦- نحن نرى الموتَ والحياةَ في صراع. وعندما نقول إن الرذائل هي طريق الموت، فذلك لأن كل الرذائل تعمل معاً على الإبقاء على الذات بعيداً عن الله، وتحصرُ نشاطَ الإرادةِ والفكر في إرضاء الأهواء.

هذه هي صورة آدم الأول، صورة العزلة والاستقلال بالذات، ورفض شركة المحبة، وقبول صور المحبة التي تقوِّي الشهوات وإرضاء الذات، أي محبة الخطاة لكل من يشترك معهم في خطاياهم حتى تبرز الكبرياء وتحطِّم هذه الشركة.

٤٧- ولكن صورة الإنسان الحقيقية هي تلك التي جاء بها الرب يسوع المسيح، آدم الجديد أو الأخير. هذه هي الصورة الكاملة للاتحاد بين اللاهوت والناسوت.

وحسب التسليم الكامل والصحيح، الرب يسوع مساوٍ لنا حسب الناسوت، ومساوٍ للآب والروح حسب اللاهوت. هذا يحصر شركتنا في الطبيعة الإلهية في التدبير، أي في مجال الخلاص؛ لأن الطبائع المتَّحدة والتي لها جوهر واحد، تشترك في كل صفات الجوهر، وهو ما يجعلنا – حسب التدبير – مساوين للابن المتجسد، أي بشريته التي أخذها منَّا بواسطة والدة الإله.

هنا يكمن سر التدبير؛ لأن هذه البشرية الجديدة ليست من العدم، ولا هي قائمة بذاتها، وليس لها وجود ذاتي مستقل عن الله، بل هي بشرية الابن الوحيد المتَّحدة بلاهوته، والتي بسبب الاتحاد تأقنمت وصارت واحداً مع اللاهوت، وصارت بذلك آدم الجديد أو الثاني "الرب من السماء" حسب كلمات التقوى لمعلمنا بولس الرسول. لكن "الرب من السماء" أسس السمائيين الذين لا تذوب طبيعتهم الإنسانية؛ لأن ذوبان الناسوت في اللاهوت هو تجديف أوطاخي، وهو ضد تجسُّد الابن الوحيد.

٤٨- فما هي حدود شركتنا في الابن المتجسِّد، والذي هو الآن ممجد، والذي

سيأتي لكي يغيِّر جسد تواضعنا لكي يكون على صورة جسد مجده (فيليبي ٣: ٢١)؟

هذه الحدود نراها في تجسُّد الابن نفسه. فقد حرر الناسوت من الموت، وحفظه من الفساد، وأقامه في مجد، وأدخله إلى مقادس السماء. هذه هي حدود ظاهرة بوضوح، فما حدث لناسوت الرب سوف يحدث لنا: قيامة بلا فساد؛ لأنه انتصر على الموت، حياة أبدية لا نأخذها من عناصر مخلوقة؛ لأن الماء والهواء وغيرها من المخلوقات يقول عنها الرسول بطرس ''سوف تحترق'' (٢بط ٣: ١٠).

وانحلال العناصر – حسب التدبير – لكي يظهر مجد الإنسان في يسوع المسيح؛ لأننا لن نحيا بقدرات الطبائع المخلوقة التي تعطي حياةً للجسد الترابي من طعام وشراب ... إلخ بل سوف نحيا حسب حياة مجد الرب يسوع المسيح الذي هو الآن في السماء لا يأكل ولا يشرب، بل ممجد بمجد إلوهيته الذي سوف يكون لنا عندما نقوم في اليوم الأخير.

٤٩– يقاوم الموحِّدون الشركة في الطبيعة الإلهية؛ لأن الله الواحد عندهم بلا شركة. فهو واحد لا يعرف الشركة في كيانه، إذ هو مثلنا تماماً، فردٌ أي في شكل وصورة الإنسان الذي بلا محبة، وتسوده الكبرياء، فيترل إلى ما هو أدنى منه مثل البشر الذين يحبُّون الحيوانات، وأحياناً يعاملون البشر مثلهم في كبرياء تقتل كل مستويات الشركة. ولذلك لا يجب أن نقع في بئر هذه الوثنية غير المعلَنة، عندما يصبح الله مثلنا تماماً.

٥٠– ومع أننا نشترك جميعاً في طبيعة واحدة هي الطبيعة الإنسانية التي تجمع الكل، إلاَّ أننا مع ذلك نجد أن الميول والسلوك والفضائل والرذائل والمحبة والكراهية، كل هذه معاً، مع سائر ما يكتسبه الإنسان من معرفة، لا تحقق الشركة رغم وحدة الطبيعة.

ومع أن السقوط جعل الطبيعة تسود على الشخص، وجعل حدود الطبيعة عبودية قاهرة لا يعرف الشخص أن يتخطاها، إلاَّ أن الخطية تجعلنا ''نتعدَّى'' حدود طبعنا، وتجعل الشخص الساقط يُطوِّر قانون العبودية من أجل خدمة شهواته، وعندما يريد أن يتحرر منها يجد أن طريق الحرية شاقٌ وصعب، ويحتاج

إلى عرق جثسيماني ودم الجلجثة.

هكذا، شركتنا في الطبيعة الإنسانية محصورةٌ بين الخطية والنعمة، السقوط والقداسة، العداوة والمحبة، وبين كل ما خلقه كل واحدٍ منَّا لنفسه من عادات وأفكار وتصوُّرات ومشاعر. فالشركة ليست مثل سريان الماء في قناة، تتم رغماً عن الإرادة، أو تتخطى حدود الطبيعة، أو تقهر الإنسان.

أنظروا إلى ما حدث من انقسامات ومصالحات عندنا، كيف عجزت الطبيعة الواحدة الإنسانية عن أن تجعلنا نعيش في وئام ومحبة؛ لأن هذا لا يتم حسب قوانين الطبيعة، بل حسب نمو الشخص وسيادته على الطبيعة.

فما هي شركتنا في الله حسب المسيح يسوع ربنا؟

شركتنا في الله حسب المسيح يسوع ربنا

٥١- إذا قبلنا التعليم الأرثوذكسي بأن الطبيعة المخلوقة لا تملك كيانها، وأن حرية الاختيار فيها خاضعة للطبيعة في حالة آدم بعد السقوط، ونابعة من تجلِّي الشخص في يسوع المسيح، أدركنا أنه توجد حدودٌ ثلاثة لا يمكن أن تتلاشى:

أولاً: إن ما هو مخلوق لا يتحول إلى خالق مهما كان مجد النعمة.

ثانياً: إن ما هو مخلوق ليس له حياة في ذاته، بل الحياة، وقبل ذلك الوجود والحركة هما من الله. ولذلك، عندما يميِّز الآباء بين الوجود والحياة، فهم يريدون منَّا أن ندرك أن الوجود بلا حياة هو جائز؛ لأن الهالكين إذ تركوا الله احتفظوا بنعمة الوجود وفقدوا نعمة الحياة الأبدية. ولأننا جميعاً ليس لنا مصدر ذاتي للوجود والحياة، ومصدر حياتنا هو الله، أصبح من الصعب علينا - مهما كانت كرامة ومجد الشركة في الثالوث - أن يكون لنا حياة ذاتية نابعة منَّا.

ثالثاً: لقد أخذ الابن - له المجد - الطبيعة الإنسانية التي هي ليست طبيعته، أخذ ما ليس له، وهو الناسوت، وهو ما يخصّنا حسب قول الرسول: إذ اشترك

الأولاد في اللحم والدم اشترك هو فيهما أيضاً[1]، وهكذا باللحم والدم أباد سلطان الموت، وحرر الذين لهم اللحم والدم من العبودية للشيطان.

ولَّما قَبِلَ الابنُ الطبيعةَ الإنسانيةَ التي ليست له، حفِظَ هذه الطبيعة: النفس، والإرادة، والجسد، والعقل وقوته، والذاكرة، وكل ما له.

٥٢- يجب أن نعود إلى المسيح نفسه، فهو «ملء القامة» (أف ٤: ١٣) وفيه حلَّ كل ملء اللاهوت جسدياً (كولوسي ٢: ٩)، والرب يسوع المسيح واحد من اثنين، وهو ليس خالق وخالق، ولا هو خالق ومخلوق رغم أن الوصف طبيعي وصحيح؛ لأن اللاهوت خالق والناسوت مخلوق.

لكن اثنينية الخالق والمخلوق لم يقبلها الآباء، بل علَّموا بأرثوذكسية صريحة وواضحة:

لاهوت مساوٍ للآب

ناسوت مساوٍ لنا حسب التدبير (راجع ثيؤطوكية الأحد).

ولم ينـــزع التجسُّد صفات الناسوت، أو يحول الناسوت إلى لاهوت، أو اللاهوت إلى ناسوت، ولكن ما يجب أن ننتبه إليه هو أن تعبير الرب الواحد من اثنين هو دعوة إلى فحص سر الوحدة، وليس إلى الوقوف عند الفوارق الكبرى بين الخالق والمخلوق؛ لأنه حيث لا يوجد انفصال ولا تحوُّل ولا امتزاج، بات من الحتمي أن نفهم أن الخالق والمخلوق في الرب الواحد قد اتحدا، وتمجد الناسوت بكل غنى اللاهوت دون أن يفقد خواصه أو طبيعته؛ لأن اللاهوت يعطي دون أن يفقد، بل بالعطاء تزيد الشركة. أمَّا الناسوت فهو إن أعطى نَقُصَ؛ لأنه مخلوق من العدم، والعطاء قد يجلب عليه الموت؛ لأن من يعطي حياته، يقدمها «قرباناً»، وهو تقديم محبة.

٥٣- لكن الرب الواحد لم يعبر فقط حاجز الموت، بل أباده على الصليب، وحرر الطبيعة الإنسانيةَ فيه من سلطان الفساد والموت، وبذلك صار اتحاد اللاهوت بالناسوت كاملاً بالموت والقيامة، ليس لأنه كان ناقصاً، بل كان كاملاً وأُعلن كماله بعبور مانع الموت الذي جاءت به الخطية.

---

(١) «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (عب ٢: ١٤).

ولمَّا عبَرَ الربُ هذا المانع وقام من القبر في اليوم الثالث، جعل الاتحاد هو المثال الكامل والقياس الذي لا يخطئ للشركة في الطبيعة الإلهية؛ **لأن هذه هي شركة حياة وليس اتحاداً أعمى للطبائع مثل اتحاد المعادن الذي يفقد فيه كل عنصر أحد خصائصه لكي يكوِّن «السبيكة»، بل هو اتحاد أقانيم (أشخاص) نأتي إليه بملء حريتنا**، وعلى هذا الأساس نضع المبادئ العشرة الخاصة بالشركة حسب تسليم الإيمان الأرثوذكسي:

[١] اتحادُ حياة، ولذلك هو اتحاد محبة، واتحاد المحبة هو اتحادٌ حرٌ لا يفرض فيه نوع معيَّنٍ أو صورة من الاتحاد، بل تنمو الطبيعة الإنسانية متجهةً بعطاء الرب ونعمته نحو «ملء قامة المسيح».

[٢] الاتحاد الحر يعني أن يحفظ كل أُقنوم خصائص طبيعته، ولا يُفني اللاهوت الناسوت، بل يحفظ اللاهوت الناسوت.

[٣] صورة الاتحاد الكاملة هي الرب نفسه، وما ليس في الرب ولا منه هو غير مقبول؛ لأنه ظَلَّ الإله المتجسِّد بعد قيامته وصعوده، وسيأتي إلينا في اليوم الأخير متجسِّداً على سحاب السماء.

[٤] عندما مُسِحَ الرب في الأردن بعد خروجه من الماء، أعلن الآب بنوته لنا، ليس لأن البنوة لم تكن موجودة وأُعطيت بالروح القدس كما يدَّعي الهراطقة، بل كان الابن منذ الأزل، ولكنه الآن بعد خروجه من الماء يُعلَن وهو في الجسد «الابن الحبيب» الذي جاء بالتبني.

ولذلك، الاتحاد بالابن الوحيد الرب يسوع المسيح، وبلوغ الشركة هو بالروح القدس بالمسحة التي قال عنها الرسول إن الله الآب سوف يثبتنا بالمسحة[1] ولذلك لا تقاس الشركة بما نأخذه من التجسُّد والصليب والقيامة فقط، بل بمسحة الروح القدس. ولذلك، فالشركة هي شركة بلا حدود مرسومة جسدانية، بل هي شركة نعمة وافرة.

[٥] كان الميلاد الأزلي قبل كل الدهور هو أساس تجسُّد رب المجد، ولذلك بعد ثلاثين عاماً من تجسده أُعلنت بنوته لنا، هكذا بعد كمال الحياة المسيحية

(١) «ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله» (٢كور ١: ٢١).

هنا على الأرض، تُعلَن بنوتنا في السماء في اليوم الأخير عندما يُفتدى الجسد فداءً كاملاً في يوم الدينونة بالقيامة، عند ذلك نعرف حقاً كمال شركتنا في المسيح.

[٦] أعلن الصليب حقيقة الشركة؛ **لأننا عندما نقول إن الرب حمل خطايانا في جسده على الخشبة، فإننا نقول صراحةً إن الشركة في الطبيعة الإلهية هي شركة خطاة في قداسة الله**، ولذلك السبب نعلم علم اليقين أننا نحن الذين صُلبنا معه نموت معه ونُصلب معه كل يوم؛ لكي يختم الصليب فداء حياتنا ولكي يبيد منَّا قوة الموت والفساد؛ لأنها ليست فقط تُباد من الطبيعة، بل وتُباد من الفكر والإرادة والقلب وحتى اللغة تتحرر من قوة الموت والخطية لكي تسبِّح الرب بلسان الفداء، أي التسبيح الحر غير المقيَّد بالخوف من الدينونة، إذ لا شيء من الدينونة الآن على الذين في المسيح يسوع، والرسول يقصد كل جوانب الدينونة.

[٧] ونحن نحمل ختم القيامة غير منظور فينا بسبب بقاء الناسوت في العالم (الكون) الذي استُعبِد للفساد (رو ٨: ٢٠) ولكن ذلك الختم هو قوة حياة الرب فينا التي تدفعنا نحو حياة عدم الموت وإلى رفض كل ما يعطِّل اتحادنا به. وختم القيامة - أي قوة الرب التي طُبِعَت فينا - هو الذي يجعلنا نفضِّل الموت على ترك وصايا الرب، ويجعل التصاقنا بالرب أبدياً؛ لأنه ينال قوة حياة الرب يسوع ومسحة الروح القدس ومسرة وعطاء الله الآب.

[٨] عندما يقول الرسول بولس: لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز[١] فإنه يعلن بذلك دوام الشركة في جسد الرب ودمه، ودوام انسكاب حياته فينا، ليس لأن هذه الحياة تُعطى كقطرات المطر، بل هي محبة طوفانية[٢] بلا حدود، ولكن الاقتراب منها لنا نحن الضعفاء هو الذي يجعل هذا الاقتراب ضرورياً من آن لآخر؛ لأننا نحن نتغذَّى بجسد الرب ودمه، ليس بسبب ضعف محبة

---

(١) «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١كور ١١: ٢٦).

(٢) مشتقة من كلمة طوفان، أو موجة قوية. راجع القداس الغريغوري ⲛⲁϣ̀ϯϣⲓ ⲉ̀ⲡⲓⲡⲉⲗⲁⲅⲟⲥ وليس شيء من النطق يستطيع أن يحد لجة محبتك للبشر.

الرب أو عجز قوته، بل بسبب ضعفنا نحن واغترابنا عن النعمة بسبب الحياة الجسدانية التي تقطع الاتصال بالثالوث ولا تقطع الشركة.

[٩] الشركة ثابتة – كما ذكرنا قبلاً – في اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد يسوع المسيح آدم الثاني رأس الخليقة الجديدة التي أرادها الله الآب وثبَّت قيامها بالروح القدس، ولذلك السبب عينه نحن شركاء الروح بسبب ثبات مسحة الرب، ونحن شركاء المسيح بسبب ثبات اتحاد اللاهوت بالناسوت، ونحن شركاء الطبيعة الإلهية بسبب إرادة الله الآب ومسرته.

[١٠] نحن شركاء الطبيعة الإلهية بسبب محبة الثالوث لنا. ومحبة الثالوث مُعلَنَةٌ ليس بالأقوال فقط، بل بإعلانات إلهية مثل تجسُّد الرب وموته المحيي وقيامته، وهو الإعلان المثلث الذي يعلن إرادة الله الآب، ومحبة وانسكاب الروح القدس، وتواضع الابن وقوة التصاقه بنا. محبة لا تعرف التردد، وتواضع لا يرذل الخطاة والضعفاء، ولذلك نحن نطلب هذه المحبة بالتعليم بالكلمة، وبالشركة في الأسرار لا سيما سر الشكر بانسكاب الروح المعزِّي الذي يُعطى في الأسرار؛ لأنه «روح الابن» كما هو «روح الآب» منبثق من الآب لكي يستقر فينا بواسطة خدمة الابن الكهنوتية الدائمة إلى الأبد.

هذه هي أساسات الإيمان التي تعطي لنا الحياة الأبدية، وشركة في حياة الثالوث القدوس.

رفض الإيمان بالمسيح يعطِّل الاعتراف بالتوحيد

٥٤– تعالوا أيها الإخوة معنا لكي نقول مع أشعياء النبي: «هلم نتحاجج يقول الرب ....» (أش ١: ١٨). لنضع أمام الكل حجة وبرهان إيماننا بالمسيح الذي يقودنا إلى التوحيد؛ لأن التوحيد عند غالبية الموحِّدين هو رأيٌ واعتقادٌ صحيح صادرٌ عن وعي بخالق واحد.

هذا هو الحد الأول والأخير للتوحيد، أي أنه اعتراف موجَّه ضد جهل الإنسان بخالقه، ولكنه لا يحتوي على أية إشارة ولو ضمنية إلى شركة أو إعلان يسبق

هذه الشركة. وهو عكس ما ورد في الأسفار، فقد أعلن الله عن نفسه في العهد القديم بظهورات ورؤى، وأعلن عن نفسه في ابنه حسب كلمات الرسول بولس «بأنواع وطرق متنوعة»، ثم «كلَّمنا في ابنه» (عب ١: ١ - ٢)، ولم يتوقف الرسول عند إعلان الله عن ذاته في الابن، بل حدد قوة الإعلان بأنه، أي الابن:

- رسم جوهره وخالق كل الأشياء.
- صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا.

لأن العلاقة بين الخالق والمخلوق لا تقف عند حد الخلق، بل هي علاقة الخالق والمخلِّص بالخطاة. ولذلك السبب، عندما استقر التوحيد في عبادة بني إسرائيل، وبشكل خاص في صلوات المزامير التي احتوت الإعلانات الإلهية عن الله وعن استعلان قوة الله للخلاص، وبعد أن استقرت في حياة الشعب وخلال مئات من السنين، جاء الابن وتجسَّد من دم ولحم هذا الشعب بالذات لكي يفتح كنوز الأنبياء وبركة إبراهيم للشعوب الأخرى.

٥٥- اعلموا أيها الإخوة شركاء الرب أننا لا ننطق بعبارة الإيمان «نؤمن بإلهٍ واحد»؛ لأنها جاءت من السماء حروفاً وكلمات، بل جاءت من السماء مع الابن ومع الأنبياء، وأُعطيت بالروح القدس بإعلانات نبوية، ومن خلال اختبار وتذوُّق خلاص الله المعلن في يسوع المسيح ابن الآب حسب الجوهر، الذي جاء لكي نكون أبناء الآب حسب النعمة، وعند ذلك فقط يمكن أن نقول إن الله واحدٌ حسب القواعد (الأساسات) السبعة للتدبير الذي وُهِبَ لنا بواسطة مخلصنا الصالح يسوع المسيح له المجد، آمين.

وتوحيد الله حسب قواعد التدبير هو:

أولاً: توحيدٌ مصدر وينبوع النعمة التي توهَب بالآب في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس. نعمةٌ واحدة لها أعمال متفرقة مثل الغفران، الميلاد الجديد، التبنِّي، الحياة الأبدية، مواهب وقوَّات الروح القدس. ولكن كل هذه تعود إلى أصلٍ واحدٍ.

وكل هبة أو عطية، لا يمكن فصلها أو عزلها عن غيرها من العطايا الأخرى؛

لأن الغفران يؤهِّل للميلاد الجديد، والتبنِّي لميراث الملكوت، والميراث للحياة الأبدية، والتكلُّم بألسنة للتعليم، والتعليم لثبات القلب والاستنارة، والاستنارة لميراث الملكوت، ومعرفة الثالوث للثبات في المحبة، والمحبة هي نعمة التبنِّي، ونعمة التبنِّي هي من وفي الميلاد الثاني في المعمودية، والميلاد الجديد يستدعي غذاء الملكوت وطعام الخلود، أي سر الشكر، وسر الشكر لا يمكن فصله عن التوبة، والتوبة لا تنفصل عن سُكنى الروح القدس مطهِّر القلوب وشافي نيَّات القلب، وشفاء القلب يقود إلى الاستنارة والالتصاق بالمسيح المخلِّص، والالتصاق بالمسيح المخلِّص يعطي لنا شركةً فيه، والشركة فيه تعطي لنا شركةً في مسحته، والشركة في مسحته تعلن لنا الآب، وإعلان الآب هو في الابن، والابن الذي في الآب يعلن لنا ليس فقط أُبوة الآب وبنوَّته هو، بل أيضاً بنوَّتنا نحن، ونحن نقول بالروح القدس: «أبَّا أيها الآب»؛ لأننا أخذنا منه روح التبنِّي (غلا ٤: ٤).

ثانياً: توحيدٌ مصدره الحياة الواحدة الإنسانية المفتداة والتي نالت سُكنى الله وتألَّهت بسبب نعمة الحياة الأبدية.

كانت عثرة الإنسان الأول هي مصدر الفساد والموت وسيادة الشيطان، ومع فساد الطبيعة الإنسانية ظهر انفصال السماء عن الأرض، وانفصال الروح عن الجسد، أي الموت الطبيعي، وانفصال الذكر عن الأنثى، انفصال المنظور عن غير المنظور، انفصال الفكر عن الإرادة، انفصال الإرادة عن الفهم، انفصال الفهم عن حكمة الله، انفصال الحياة حسب الله عن الحياة حسب الجسد.

هذه بعض ملامح الانهيار الذي أصاب الكيان الإنساني وحطَّمه. واستعباد الإنسان للموت ليس هو موت الجسد الذي يخشاه غير الفاهمين، بل موت الروح — الذي تحدثنا عنه كثيراً في مناسبات كثيرة — وهو انعدام الحس الروحي وتفضيل ما هو محسوس وظاهر على ما هو روحي وغير ظاهر، وطلب ما هو مادي؛ لأن ما هو روحي غير معروف ويجهله الإنسان بسبب استعباده للفساد.

لكن الآن شكراً لربنا يسوع المسيح الذي وحَّد المنظور وغير المنظور، أي الناسوت باللاهوت، والسماء والأرض في الكنيسة المقدسة، جسده الذي يخدم سر الخلاص، والذي قدَّس الموت الطبيعي وجعله خادماً للخلاص، والذي وحَّد الذكر والأنثى في جسده، أي الكنيسة التي لا يوجد فيها ذكر ولا أنثى، بل خليقة جديدة؛ لأنه في المسيح يسوع ليس ذكر ولا أنثى.

وبالميلاد من فوق وحَّد قوى الروح والجسد حتى أننا نحن الذين لا نعرف كيف تتم هذه الوحدة، عندما تشرق فينا قوة القيامة، أي قوة الرب يسوع، تتجمع كل الحواس وترفع الجسد كله قربان محبةٍ لله الآب في خدمة ابنه يسوع المسيح بنار الروح القدس المطهِّرة والمقدِّسة.

استيقظوا أيها الإخوة؛ لأننا لا نعترف بإلهٍ واحد بنطق كلمات، وإنما نعترف بإلهٍ واحد بقوة الحياة الواحدة التي أُعطيت لنا في يسوع المسيح رب الحياة، وعند ذلك - لأن حياتنا هي المسيح وهو حياتنا — فإننا نعترف بتوحيد حياة لا تنفصل فيه الروح عن الجسد، ولا المنظور عن غير المنظور، توحيدٌ يعلنه وينطق به الروح القدس، روح التوحيد؛ لأنه «الناطق في الأنبياء».

هذا ما يعلنه الروح القدس لنا، وهو أن حياتنا القديمة تتلاشى في مياه الحياة الجديدة، أي مياه الروح القدس مقدِّس طبعنا الإنساني.

وعندما ندرك أن كل الموجودات إنما وُحِّدت تحت رأسٍ واحد هو يسوع المسيح، ندرك من عدم الانفصال ومن الوحدة إن الله واحدٌ.

هذه هي رؤية الآباء والأنبياء والرسل وشهداء الرب يسوع المسيح.

ثالثاً: توحيدُ تمايز لا تختلط فيه الطبائع، ولا يذوب فيه الأشخاص؛ لأنه توحيد محبةٍ تجمع لكي تحفظ، وتوحِّد لكي تقدِّس، وتقدِّس لكي ترد التمايز إلى قوة الحياة التي وُهِبَت للخليقة قبل السقوط، وهي حياة بلا موت، لا تخلد بقوة وجودها، بل بقوة الله وشركتها في الحياة الأبدية.

رابعاً: توحيد توللوجي[1]؛ لأن الأول هو الآخر، والبداية هي النهاية؛ لأن الحياة الجديدة تبدأ بالمسيح وتنتهي في المسيح، ولذلك توحيدنا هو في الغاية، هو في اجتماع الألف A والياء Ω معاً، أي أننا نسلك طريق الحياة الجديدة لكي ننال في المسيح البداية التي لأجلها خُلقنا، والتي لمَّا سقطنا منها وفشلنا، صارت هي الغاية (أو النهاية أو الهدف) الذي يقودنا إليه الرب يسوع، ويعطي لنا أن نناله فيه.

فالتوحيد عندنا هو توحيد غاية وطريق الحياة الجديدة في الرب يسوع المسيح؛ لأننا رغم تنوع النِّعم الإلهية، ورغم تنوع أعضاء الجسد الواحد أي الكنيسة جسد المسيح، إلاَّ أننا – بالتنوع – ندرك أنه (أي التنوع) وفرة وصلاح الله وفيض رحمته الذي يعطي لنا ما يكفي صلاح الحياة فينا عندما نتَّحد معاً لغايةٍ واحدة وهي ''رباط السلام والمحبة'' (راجع أف ٤: ٣). عند ذلك تصبح الحياة المشتركة لأعضاء الجسد الواحد – جسد المسيح – هي اختبار وتذُّوق للشركة.

خامساً: لاحظوا أيها الإخوة الأحباء أننا لسنا فقط جسدٌ واحدٌ، أي وحدة منظورة، بل نحن جسدٌ واحدٌ هو جسد المسيح.

هذه وحدة مصدرها النعمة، ليس فقط كعطية من فوق، بل كعطية تُعطى للممارسة. نحن واحد لأننا نعمل كواحدٍ بواسطة الواحد يسوع المسيح، ومن هذه الحقيقة نتعلم التوحيد ونمارسه. لأننا عندما نولد من جديد لكي نصبح أعضاء جسد الرب، فإننا ننال من الابن الاتحاد به، وهو الاتحاد الذي يؤهلنا للوحدة. وعندما يسكب الروح القدس محبة الثالوث فينا (راجع رو ٥: ٥) فإننا بالمحبة – وليس بالاعتراف بالكلمات – نعرف أن الله واهب الكل – أي كل هبات الحياة والصلاح — للوحدة.

سادساً: توحيد الرب والوسيط الواحد يسوع المسيح الذي جمع الله والإنسانية في أُقنومه الإلهي المتجسِّد، فصار بذلك وسيط خلاص ووسيط إعلان المحبة

(١) وجدنا صعوبة في ترجمة الكلمة اليونانية القبطية χολε] وهي إحدى الكلمات الهامة في العهد الجديد، وردت بوفرة عند الآباء لا سيما في موضوع خلق وخلاص الإنسان. وأقرب كلمة عربية هي ''غاية''، ولكن الكلمة اليونانية تتضمن ليس فقط ''الغاية''، بل ''النهاية''، وهي ليست الكلمة الإنجليزية End بل النهاية أي الكمال حسب شرح الآباء وحسب شرح الأب صفرونيوس نفسه.

الإلهية. ولأن الوسيط واحد، صار التوحيد مُعلناً في الوسيط؛ لأن اتحاد اللاهوت بالناسوت في أُقنوم واحد ينفي كل إعلانات أخرى لا توحِّد الله والإنسان، أو يجعلها خاضعة للإعلان الإلهي الكامل عن الوحدة التي تمت في ربنا يسوع المسيح.

سابعاً: توحيد المعزِّي الباراكليت المدافع والمعلِّم، والمعلن أسرار الله وخفايا قلب الإنسان، وهو المعلن للوسيط ومعطي حياة الوسيط الواحد، ولذلك نقول: "واحدٌ هو الله الآب، أبو كل أحد، واحدٌ هو ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح، واحدٌ هو الباراكليت". فالواحد هنا هو مصدر الإعلانات وواهبها، ومعطي كلمة التعليم والشهادة ومدبِّر كل احتياجات التقديس ومطهِّر كل الخليقة، ومقدِّس كل النجسين، ومنير كل الذين يحتاجون إلى النور الإلهي.

وكما قلنا من قبل، إن المواهب لا تنفصل، كذلك نقول إن أقانيم الثالوث لا تنفصل؛ لأن الوسيط هو من الآب أي ربنا يسوع المسيح يقودنا للروح القدس، والروح القدس يقودنا للابن، والابن للآب. ومن الينبوع، أي الآب نأخذ التبنِّي في الوسيط يسوع المسيح. وفي الوسيط نأخذ مسحة التقديس لكي نكون أخصَّاء أي أعضاء الجسد الواحد. ومن المسحة نأخذ مكاننا في وحدة جسد المسيح الكنيسة، ومن الكنيسة نتعلم الشركة ومحبة الآخر عند كسر خبز الرب واستدعاء روحه القدوس. ومن كسر الخبز نتعلم كيف نصير الجسد الواحد بقوة الالتصاق بالرب يسوع الذي نأخذه سرياً في الجسد والدم. ومن الالتصاق بالرب نمتلئ من الروح القدس، وبالامتلاء بالروح القدس نقول: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤). ومن الآب وفيه بالروح القدس ننال ليس فقط إعلان التبني، بل إعلان الأُبوة، أي أُبوة الله الآب التي تظهر مستترة في حياة القديسين من رعاة الكنيسة.

حقاً واحدٌ هو الروح المعزِّي الباراكليت المدافع عن التوحيد الصحيح، الغارس فينا نطق الحق بأن الثالوث واحدٌ، ليس حسب قوة رقم واحد، بل حسب قوة الوحدة؛ لأن الأرقام جميعاً - مهما كانت — خاصة بالزمان الحاضر، وإذا لصقت بالرب تجلب عبودية ووثنية جديدة.

القواعد السبعة للتدبير [١]

٥٦– هذه القواعد هي:

أولاً: توحيدٌ يعطى بواسطة نعمة الله الآب في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس. وتوحيد الينبوع هو توحيد الممارسة، أي قبول نعمة واحدة تعمل في الكل، وتعطي الكل خيرات وصلاح ومواهب متنوعة؛ لأننا بالنعمة نرى الاختلافات، ليس للفصل والانشقاق، بل للوحدة وكمال جسد المسيح الواحد الكنيسة الجامعة.

وإذا ظهرت نعمةٌ وموهبةٌ في إنسان، فهي من أجل الكل، ولا يمكن – كما سبق وأشرنا – أن تكون من أجل الانقسام، بل الموهبة هي مثل أصابع اليد متصلة لا تنفصل، وتعمل معاً مع باقي المواهب لكي تثبِّت الوحدة وتنقل الإنسانية الجديدة إلى الحياة الإلهية التي لا انقسام فيها، ولا خلل الفساد الذي يجعل عنصراً يعلو ويسود؛ لأن الفساد هو الذي جلب هذا الخلل في الإنسان، أمَّا الله فهو مصدر كل صلاح وحياة وغنى، ولذلك يقول الرسول: «الروح واحد» و «المواهب متنوعة»، لكن تنوع المواهب لا يعنى بالمرة تنوع في طبيعة الروح الواحد، بل العكس هو الصحيح، وهو أن التنوع وبقاء الوحدة هو طبيعة في الله لا تُفرض عليه ولا يصارع ويجاهد لكي يحفظها.

ثانياً: والحياة الواحدة في صورتها الحالية هي حياة جسد الرب الواحد الكنيسة جسد المسيح. وعلينا أن نلاحظ أن الاسم «جسد المسيح» هو جسد الرب الذي مُسِحَ بالروح القدس، ولذلك أينما وحيثما تذكر الأسفار «جسد المسيح»، فإن اللقب يشير إلى مسحة يسوع، كما يؤكِّد لنا هذا اللقب

(١) الكلمة القبطية ⲉⲩⲥⲉⲛϯ أي أساس أو قاعدة. والعنوان من وضع الأب صفرونيوس.

أيضاً بشكل مباشر وحدة عمل الرب يسوع والروح القدس الذي مسحه.

يسوع – بالروح القدس – هو المسيح، أي الوسيط الذي يمسح كل من يأتي إليه بالروح القدس الأُقنوم الثالث في الثالوث. ولذلك، الكنيسة هي هيكل الله الحي في العالم، ينبوع مواهب وعطايا الروح القدس؛ لأنها جسد المسيح، **وبدون الإيمان والشهادة بأنها جسد يسوع المسيح الذي يُمسَح بمسحة أبدية، تفقد الكنيسة قوتها وحياتها وتصبح جماعة بشرية خاضعة لعبودية الطبيعة الإنسانية المستعبدة للفساد والموت،** وبشكلٍ ظاهرٍ الانقسام والتحزُّب الذي وصفه الرسول بولس بأنه «أعمال الجسد» (غلا ٥: ١٩ – ٢٠).

ثالثاً: حياة حسب الروح القدس، ولذلك فإن ما جاء الرب لأجله وأسَّسه في العالم هو اتحاده بالإنسانية مؤهِّلاً إياها فيه وواهباً لها الشركة في الطبيعة الإلهية فيه وبالروح القدس.

هذا أساس التدبير؛ **لأن علاقتنا بالثالوث لا تأتي منَّا، وليست نابعة من كياننا، وهو ما ينفي تماماً مقايضة الرب بالأعمال الصالحة؛ لأننا لا ننال شيئاً حسب صلاحنا – إذا وُجِدَ – بل حسب نعمة الله.**

رابعاً: حياة حسب الروح القدس، أي تنال قوتها من الروح القدس الذي يعمل كل الأشياء ويعطي الأسرار والمواهب ويغرس كل عضو في جسد المسيح الكنيسة واهباً إياه أن يكون صورة مجد الرب يسوع المسيح المعلن في تجسُّده، والغالب الموت والخطية بالصليب، والحي إلى الأبد بسبب الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، والقاهر (الغالب) للموت والفساد بسبب قوة القيامة.

هنا – أيها الإخوة – كما سبق وذكرنا، ننال قوة الاتحاد بالرب في المعمودية المقدسة، وقوة مسحته في الميرون الإلهي، ونحيا به وفيه في الإفخارستيا. وهنا يعلَن الثالوث في التدبير؛ لأننا ننال الميلاد الجديد باسم الآب أي منه، وباسم الابن أي فيه، وباسم الروح القدس أي به. وهذا ما تؤكِّده الغطسات الثلاث؛ لأننا نعتمد بغطساتٍ ثلاث على اسم الثالوث القدوس الواحد بالجوهر. نولد من الآب، وفي الابن، وبالروح القدس؛

لأننا ندخل شركة أقانيم الثالوث ليس بقوتنا ولا بقدرتنا، بل بنعمة الرب يسوع المسيح. ونُمسح بذات مسحة الابن وننال نفس القوة التي حدَّها الأول الصليب، وحدَّها الثاني القيامة. بالحد الأول نحيا حسب شريعة الصليب، وبالحد الثاني نتحرك ونحيا حسب قوة القيامة. والصليب شريعة؛ لأنه ناموس البذل والعطاء وصلب الحياة القديمة، والقيامة قوة حياة لا يمكن أن تنفصل عن الصليب.

خامساً: يعلَن الثالوث في التدبير حسب تجسُّد الابن الوحيد؛ لأننا بسبب التجسُّد وُهبنا النعمة التي لا تزول، وبالمتجسِّد نرى الآب، ومن المتجسِّد نقبل الروح القدس، ومتى قبلنا الروح القدس نُغرس بقوة الروح القدس في الحياة الجديدة التي تقتل الخطية والموت، ولا يقتلها الموت ولا تقوى عليها الخطية.

وكما سبق وقلنا من قبل، نعيد هذا الشرح لأجل مجد المسيح إلهنا: إننا ننال كل شيء من الآب وفي الابن وبالروح القدس. وحتى الصلوات، وُهبنا أن نصلِّي لله كآب لنا في يسوع المسيح ناطقين بكل ثقة الأبناء — رغم خطايانا — بقوة وثقة الروح القدس.

وحسب تجسُّد الابن الوحيد نرى أساسات الشركة؛ لأننا نأخذ التبني عطيةً من الآب أُعلنت بمسرة الآب في ابنه الوحيد يسوع المسيح (راجع أف ١: ٥) ونحيا بقوة وسلطان الابن، ونتحرك حسب الحياة التي يعطيها الروح القدس لمن يشاء أن يحيا به وفيه.

سادساً: تدبير عطية الأسرار المقدسة، وهو تدبير الشركة حسب عطية الآب لنا في ابنه يسوع المسيح وحسب إعلانات الروح القدس مُعلن سر المسيح وواهب حياته لنا حسب غنى تجسُّده؛ لأنه لمَّا تجسَّد من الروح القدس ووالدة الإله أعلن في تجسُّده موعد إعلان اتحاد الله بالبشر، وأعلن كمال الوعد لإبراهيم بأنه فيه تتبارك كل شعوب الأرض (أع ٣: ٢٥) بالاتحاد بالابن المتجسِّد، وارتفاع الطبيعة الإنسانية من العبودية إلى رتبة التبني.

وبتجسُّد الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح جاء إلينا كمال البركة؛ لأننا

فيه ننال أكبر اقتراب من الآب، حيث أنه صار رأس البشرية الجديدة، آدم الثاني المولود من فوق، أي من الطبيعة الإلهية ومن الأرض، أي من والدة الإله، مُوَحِّداً السماء والأرض في أُقنومه الإلهي المتجسِّد؛ لأنه جعل ذاته الشفيع والوسيط، وأقامه الآب «البكر» و «الوريث» و «بداءة الخليقة الجديدة» و «رئيس الكهنة».

وهو يتحرك حسب التدبير لأنه «البكر»، ولذلك هو «الوارث» لكل مواعيد الآب، ويعطي هذه المواعيد لمن لا يستحق؛ لأنه الشفيع ووسيط كل الخطاة. ويعطي من ذاته ومن حياته وليس عطية خارجية؛ لأنه البدء. وعندما يعطي، فالعطية نفسها جديدة لم توهَب من قبل؛ لأن الخليقة القديمة ليس فيها حياة إذ خضعت للموت، ولذلك صار بحسب قدرته الإلهية «آدم الثاني» و «بداءة خليقة الله»، ليست تلك التي استُعبدت للموت، بل التي به وفيه غلبت الموت.

وهو «خادم الأسرار»؛ لأنه يعطي خدمة موته وقيامته في المعمودية، وخدمة مسحته في الميرون، وخدمة كهنوته في ذبيحة الإفخارستيا التي تعلنه في الليتورجية رئيس كهنة في المسكن الحقيقي الذي أقامه الرب وليس البشر (عب ٩: ١١).

وشركتنا في موته وقيامته في المعمودية المقدسة تنال قوتها منه كوسيط، ويخدمها كآدم الثاني ويعطيها بالروح القدس للتبني ولشفاء الطبيعة الإنسانية. أمَّا في سر الشركة الإفخارستيا، فإن شركتنا في جسده ودمه تهب لنا المسيح كله. ونحن هنا لا نقارن بين الأسرار؛ لأنه في المسيح يسوع لا يوجد أعظم وأقل، بل المسيح الواحد الكامل في كل عطاياه، والواحد الكامل في محبته التي لا تنقسم عندما يوزِّع عطاياه، أي عطية حياته الغالبة لكل أشكال الانقسام والانفصال.

سابعاً: تدبير الكنيسة جسد المسيح الواحد الحي بالروح القدس. هذا التدبير يحكمه الرب يسوع بمحبته للبشر، وهو ثابت **أولاً** في اتحاد اللاهوت بالناسوت. ومعلن **ثانياً** بقوة الروح القدس.

ويقوم تدبير الكنيسة على أساسات التعليم الرسولي:

- زرع الرجاء في الساقطين، وانتشال الساقطين بالتعليم والصلاة والصوم.
- قبول كل التائبين العائدين إلى الله في يسوع المسيح؛ لأن الراعي الصالح علّمنا أن نترك الـــ ٩٩ ونسعى في طلب الخروف الضال.
- سيادة المحبة على القانون الكنسي؛ لأن المحبة سبقت القانون، والقانون وُضِعَ للهداية.
- سيادة الحكمة على كل الأحكام؛ لأن الرب يسوع قيل عنه إنه لم يطفئ الفتيلة المدخِّنة، والقصبة المشروخة لم يكسرها، بل جاء لكي يطلق سراح الأسرى، ويبشِّر بسنة اليوبيل التي يُطلق فيها العبيد وتلغى الديون، ولذلك دخل اللص اليمين الفردوس، وعاد الجاحد (بطرس) إلى رتبة رسوليته.
- لا تعالج الخطية بالقسوة، ولا تشفى بالتأديب، بل تعالج بالمعرفة وتشفى بقوة ورحمة الروح القدس.
- هذه تعلن لنا اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأن الرب لم ينفصل عن ناسوته، ولذلك لا يجب أن نسمح لأيٍ من الأمور أن يفصل إنساناً عن الرب.
- وأعطانا الروح القدس الباركليت المُدافع الحي في الضعفاء والخطاة وطالبي الرب، ولذلك لا يجب أن نحزن الروح القدس الذي به خُتمنا للفداء (٢كور ١: ٢٢).

لنفرح بالرب الذي يفرح بعودة الضال.

٥٧- التدبير كله هو يسوع المسيح، وحسب يسوع المسيح، وكما هو مدوَّن في الإنجيل المقدس الذي يعلنه الروح القدس، الذي يعلن عمله في القلب وفي الكلمة والأسرار ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ

ــ ــ

ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ ــ

(ثلاثة أسطر ضائعة من الأصل)

لا توجد خاتمة لهذا الكتاب، ويلي ذلك رسالتين إلى الأب سلوانس عن اشتياقات الروح القدس. والثانية في الثالوث والخلاص.

من رسائل القديس صفرونيوس

الثالوث
واشتياقات الروح القدس

الثالوث
واشتياقات الروح القدس[1]

صفرونيوس عبد يسوع المسيح الذي علَّمنا أسرار الله، وأعلن لنا الآب، وأعطانا روحه القدوس.

سلامٌ ونعمةٌ ومحبةٌ لكم أنتم شركاء الميراث الأبدي، وللأب سلوانس مدبِّر الإخوة.

١- نعم وحقاً يشتاق إلينا روح الله القدوس رغم خطايانا؛ لأنه «يئن» لكي يرفع الخطاة من مزبلة الفساد والخطية، ويقدِّسهم مطهراً إياهم بدم الحمل الحقيقي من لعنة الموت والفساد. ولذلك، كما يقول الرسول الحكيم: إننا لا نعلم ما نصلِّي من أجله، ولكن الروح القدس يئن مشتاقاً لأنْ يعلن لنا عظمة ومجد السماويات.

٢- أولاً: يجب أن نعلم أن الاشتياق للخطية يحدُّه الروح القدس بإعلاناتٍ وتوددٍ للنفس كاشفاً لها مجد الأمور الأبدية. لأن الذي تنجَّس بالزنا يعلن له الروح سلام وحلاوة الشركة حتى لا يسقط في وهم الخطية بأن الشركة في الجسد هي أعظم وأقوى ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان.

هكذا نشتاق نحن الزناة بالقلب، لا إلى النساء، بل إلى الله؛ لأن الروح القدس يغرس فينا هذا الشوق معطياً إيانا سلاماً وراحةً وتعزيةً في أجسادنا وأرواحنا.

٣- ثانياً: إن الاشتياق للثروة والمال وجمع المقتنيات يهدد سلام القلب، ويوزِّع الفكر ويعطي لنا رؤيةً غير واضحة؛ لأن الاهتمام بالماديات من أجل اقتناء الماديات، يلزم الإنسان بالبحث عنها وطلبها فيسقط في التشتت. لذلك يجئ الروح القدس إلى قلب الإنسان، ويعلن له الميراث الأبدي، أي ملكوت

(١) العنوان الأصلي هو رسالة إلى الأب سلوانس.

ربنا يسوع المسيح، وهو يعلنه في تواضع الرب يسوع «الذي افتقر وهو الغني لكي نصير أغنياء بفقره» (راجع ٢كور ٨: ٩). ويعلنه بقوة البذل لا بقوة الامتلاك عنوةً وقهراً؛ لأن الرب لا يملك بالقهر بل بالمحبة وبالعطاء.

ويزرع الروحُ القدسُ الخجلَ في قلب المؤمن بالمسيح؛ لأن الروح القدس لم يُعطَ حسب قول الرب «بمكيال» (يو ٣: ٣٤) أي كتوزيع الأنصبة، و لم يعطِ الملكوت بمقابل، ولا حتى بالأعمال الصالحة.

هكذا يشتاق الروح القدس – بأنين – لأنْ يعطي الحرية التامة والتجرُّد من القنية ويزرع فينا هذا الشوق الذي يدفعنا بحرارةٍ في طريق الحياة النسكية.

نعم أيها الأحبَّاء، لنبدأ نحن بالتجرُّد دون أن يكون لدينا نية الحصول على مقابل، بل من أجل أن نتحرر وننال حريتنا في المسيح، ولا نربط مصائرنا بما نملك، بل بما يعطيه الروح القدس. لذلك أقول لكم – أيها الإخوة – إن الروح القدس هو القوة التي تجعلنا نلتصق بالمصلوب، وتجعل الصليب علامة هذا الالتصاق (أو الاتحاد)[1] لأننا لا نرفض أو نجحد ذواتنا بقوتنا وحدها، بل بالالتصاق بالمصلوب بقوة واشتياق الروح القدس، نسير مع الرب يومياً حتى نصل إلى عمق التخلِّي عن الحياة القديمة، فننال الحياة الظافرة بتقديس الروح القدس، وليس بقوة وإرادة التخلِّي.

٤– نحن لا نتجرَّد من فراغ إلى فراغ، بل من الموت إلى الحياة، من سلطان الشيطان إلى خدمة الرب، من الحياة المتحجرة في الذات المائتة – بسبب انحصارها في الذات – إلى الحياة الحرة من الذات حيث تنمو بالرب، متجهةً نحوه؛ لأننا منه وبه وإليه بقوة الروح القدس؛ لأن الرب يسوع هو الغاية وهو الوسيلة، هو البداية والنهاية.

ولذلك السبب يشتاق الروح القدس إلينا، ويدفعنا بحنانٍ ورقَّةٍ وتواضع لنترك الحياة القديمة؛ لأن الرب يسوع – كغايةٍ – لا يدفعنا وحده، ولكن بسبب الشركة في الجوهر الواحد غير المنقسم يشترك معه الروح القدس بنفس اشتياق

---

(١) حسب الأصل القبطي كما ورد في الاعتراف بالإيمان في سر المعمودية: «ألتصق بك أيها المسيح إلهي، وبشريعتك كلها المعطية الحياة ....».

الرب يسوع إلى الحياة التي ترتفع فوق ما هو طبيعي، أي ما هو مائت[1] إلى ما هو حي بالروح القدس، أي روح يسوع المسيح ابن الآب حسب الجوهر، وابن العذراء بالروح القدس، **الذي وُلِدَ ولادةً إنسانيةً مثل ولادتنا، لكن معطياً لها البدء الجديد أي بداية الشركة في الطبيعة الإلهية بالميلاد من الروح القدس ومن العذراء والدة الإله، وعاش حياتنا مؤكِّداً لنا أن الشركة الواحدة لا تنقسم، شركة الثالوث الواحد هي ذات الشركة التي ينالها الناسوت حسب حدود الناسوت، وحسب إرادة الثالوث الذي أشرك الناسوت في حياته عندما تجسَّد الابن الوحيد لكي يفتح أحضان الآب السماوي لنا.**

هكذا - أيها الأحبّاء - أسس الرب يسوع ينبوع الحياة الجديدة كآدم الجديد، معطياً لنا فيه بدايةً جديدةً.

شوقٌ وأنينٌ واحدٌ للثالوث: للآب الواهب الكل، من الابن معلن الكل، بالروح معطي الكل. الآب يعطي الروح لنا لكي نقبل الابن، والابن يعطي ذاته لنا لكي نقبل الآب، لكي نتحرك معاً في داخل الحياة الإلهية التي فُتِحت لنا بالتجسُّد، وأُبيدت عوائق الموت والخطية والدينونة بالصليب وبالقيامة، وظهرت الحياة الأبدية بعطية الروح القدس.

٥- بسبب اشتياقات الروح القدس النابعة من الآب والمعلَنة في الابن يسوع مخلِّص الكل، الذي قال خذوا كلوا هذا هو جسدي، وهو شوق الحي إلى إحياء الموتى، وشدة المحبة التي تخلع المائتين من حفرة الموت إلى الحياة الأبدية.

هذا قيل في عُلِّية صهيون ويقال في كل ليتورجية؛ لأن يسوع الذي مُسِحَ بالروح القدس فصار المسيح الذي ينطق بقوة الروح وبشدة المسحة، ليس لأنه احتاج لها، بل لأنه جاء لكي يؤسِّس الشركة، فوحَّد كلمته بقوة روح الحياة، ووحَّد عمله بالحياة الواحدة للثالوث؛ لأن ما عمله هو آتٍ من داخل الحياة الواحدة، مُعلَنٌ للمائتين أي البشر الأحياء تحت سلطان الزمان، وحسب حدود الطبيعة الأولى التي لم يرذلها الرب، بل جاء لكي يخلِّصها ويرفعها من وهدة الموت

---

(١) ربما «ما هو طبيعي أي مائت» تعني نفس ما يعنيه الأب والمعلم القديس أثناسيوس «الإنسان خُلِقَ من العدم ولذلك هو بالطبيعة مائت».

والفساد إلى حياة عدم الموت. لأننا حسب الطبيعة وبسبب الخطية والدينونة خارج حياة الثالوث، والداخل والخارج هنا ليس محسوباً بالمسافات أو الزمن، بل هو حسب اختلاف الطبيعة، وحسب اختلاف الخالق عن المخلوق، وهو اختلافٌ استدعى «النعمة».

٦- أيها الأحباء، النعمة ليست من الطبيعة الإنسانية، ولا هي مثل الطبيعة الإنسانية، بل هي من الطبيعة الغالبة الموت وكل صور الانقسام، هي من اللاهوت، من الحياة، من الخالق لكي يحفظ ما خَلق ويجدد ما سقط.

ومقياس النعمة هو تألُّه ناسوت الرب يسوع؛ لأن ما حدث له، حدث لنا؛ لأنه «أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له»[1] والأخذ جاء أولاً والعطاء تلا ذلك.

أيها الإخوة، إن شوق الثالوث لنا هو حركة النعمة ورغبة العطاء. لقد أخذ الذي لنا بشوقٍ ومحبةٍ لا تُحَد لأنها مثل لجة البحر[2] تغطي كل شيء، وتدفع الزائل، أي الشر أمامها. محبة تعطي من كيانها؛ لأن خلق الإنسان من العدم جعل له كياناً قابلاً لقبول عطايا الله؛ لأنه بدون الله وبدون مصدر الحياة من الثالوث القدوس لا وجود له، أي لا حياة له في ذاته لأننا لا نميِّز بين الوجود والحياة كما فعل فلاسفة العصور السابقة على تجسُّد ابن الله؛ لأنه بالتجسُّد قد أعلن في كيانه أنه هو مصدر الحياة، وأن الوجود والحياة هما لفظان يعلنان عن الإنسان.

لذلك، عندما تغمر لجة محبة البشر كل شيء، فإن محبة الله لا تفصل، بل توحِّد. لا تحوِّل كيان الإنسان المخلوق من العدم إلى كيانٍ خالق؛ لأن هذا مستحيل تماماً؛ لأن ما هو خالق لم يأت بقدرةٍ، ولا هو خاضعٌ للتحوُّل من عدم الوجود إلى الوجود، ولذلك لا يعطى ما هو خالق لمخلوق لكي يصير المخلوق خالقاً، بل لكي يصير المخلوق حياً حسب الحياة الإلهية.

وعندما نقول إن النعمةَ هي شوق الله، فإن صورة المسيح هي مقياس إعلان النعمة الذي يحدد غايتها. ولما قال الرسول: «المحبة لا تسقط أبدا» (١كور ١٣: ٨)

---

(١) التسبحة السنوية، ثيؤطوكية الجمعة.

(٢) راجع القداس الغريغوري: «وليس شيء من النطق يستطيع أن يحد لجة محبتك للبشر».

فإنه كان يعلن عن عدم ندم الله على إعطاء النعمة (رو ١١: ٢٩).

٧- **ثالثاً**: يغمرنا شوق الروح القدس الذي يشتاق للابن المتجسِّد والظافر بالصليب والقوي بالقيامة والممجد بالروح القدس، الذي - هو بسبب تجسُّده - وُصِفَ بأنه في حضن الآب، فأدخل الإنسانيةَ إلى حضن الآب.

يشتاق الروح القدس الذي تحرَّك على وجه المياه (تك ١: ٢) وحلَّ على الابن في مياه الأردن، وجاء في شكل أو هيئة سحابة على جبل التجلِّي، ثم حلَّ في ألسنة نارٍ يوم العنصرة.

هذه الظهورات المُعلنة عن الروح القدس، تضع ظهورات الروح القدس في إطار محبته للخليقة. وفي إعلانات الخلق الجديد، يعطي الروح القدس التقديس لمياه المعمودية، ويبشر بالسلام بمسحة القوة؛ لأنه لم يمسح الرب ليكون مثل قضاة بني إسرائيل شمشون وجدعون ويفتاح، فهؤلاء نالوا القوة الزمانية المادية. وأعلن الروح القدس أنه يحرِّك المادة ويعطي حتى للجسد قوى غير مادية كما في حالة شمشون، ويعطي الألسنة النارية، نار شوق الروح القدس لكي ننطق بسرِ المحبة الإلهية بما هو فوق النطق؛ لأنه لا يوجد نطقٌ يعلن محبة الله، ولذلك أُعطينا موهبة الألسنة. ينطق فينا الروح القدس «أبَّا أيها الآب» (غلا ٤: ٤) لأن الروح ينطق فينا ويدفعنا للنطق بسر المحبة لأننا بالروح القدس نرى أصل كياننا الجديد مولودٌ من الآب، ثابتٌ في الابن صورة التبني الذي أعلن لنا الكيان الجديد، ملتهباً باندفاع الروح القدس نحو الآب؛ لأنه «ينبثق من الآب» (يو ١٥: ٢٦) ويسكن فينا حاملاً إيانا نحو الآب، موحِّداً إيانا بالمسيح يسوع ابن الله الوحيد لكي نعلو فوق كل حدود المعرفة، ونمتلئ من ملء اللاهوت، نامين نحو الوحدة الكاملة عندما نصير واحداً مع الثالوث.

٨- لقد ذاق الرسول هذا الشوق، وأعطاه اسماً «أحشاء يسوع المسيح» (فليبي ١: ٨) وأضاف «أحشاء رأفةٍ» (فليبي ٢: ١ - ٢)، فأكَّد بذلك سُكنى رأفة الروح القدس فينا، وصار الشوق الطبيعي الذي فينا مفتدىً مقدساً بالروح القدس، لكي «نقبِّل بعضنا بعضاً بقبلةٍ مقدسةٍ»، ولكي ننال بممارسة الرأفة معرفةً تامةً برأفة الله الآب

ومحبته للبشر، لذلك كانت مناديل وعصائب الرسل تشفي المرضى (أع ١٩: ١٢)، فقد نالوا رأفة الله ورحمته.

٩- رابعاً: نحن نحس بشوق الروح القدس فينا، عندما نشتاق لحضور الصلوات وتناول الأسرار، وافتقاد الإخوة، والعزلة، وسائر الأمور الأخرى. ونستطيع أن نميِّز شوق الروح عندما نحس بالشفقة، وعندما ننال عطية الدموع، ونبكي لمصائب الناس، ونطلب رحمة ربنا يسوع للكل.

١٠- خامساً: أمَّا قساوة القلب، وإدانة الآخرين، والفرح بعذاب وآلام الآخرين، والسعي للانتقام والتشفِّي، والتلذذ بذكر خطايا وسقطات الآخرين، فهذه كلها صفات الشيطان الذي يفرح بالإثم؛ لأنه بحسده أسقط آدم، وبالحسد يحارب القديسين، وبكل حيل ومكر يصطاد الضعفاء الذين يتركون طريق الله، لذلك تعلمنا الكتب المقدسة وسير المناضلين الأعزاء أن لا نحكم حتى لا نقع في ذات خطية الشيطان الذي أخذ عرش الله عنوةً فسقط، أراد العظمة فوقع في الوضاعة.

١١- أخيراً: أرجو أن يكون لنا ذكرٌ في صلواتكم، وأن نحفظ شركة الروح الواحد، وأن نبني بعضنا البعض مكملين شوق الروح القدس بمحبة الله الآب، وصبر وثبات ربنا يسوع المسيح، وفرح الروح القدس.

١٢- الإخوة الذين تركوا الدير والسيرة الرهبانية لا لوم عليهم، وإن حضروا إلى الدير وطلبوا سر الشركة (الإفخارستيا) فعليهم أن يشتركوا في الصلاة معنا، وأن نفرح بهم لأنهم لا زالوا يسيرون معنا في الطريق الواحد.

نعمة ربنا يسوع المسيح معكم.

صلُّوا لأجلي.

الحقير في رهبان المسيح، صفرونيوس.

من رسائل القديس صفرونيوس

الإيمان بالثالوث

هل هو ضروري للخلاص؟

الإيمان بالثالوث
هل هو ضروري للخلاص؟[1]

صفرونيوس عبد يسوع المسيح المخلِّص، ابن الآب الذي جاء لكي يخلِّص ويطلب الكل. سلام ومحبة في الرب يسوع المسيح.

أسألك أيها الأب الوقور الحكيم القس المحبوب يوسابيوس أن تذكرني في صلاتك، وأن لا تنسَ أن الشركة التي بيننا هي شركة أبدية.

١- وصلتني رسالتكم، ومعها طلب الإخوة أن أُجيب على سؤال محبتكم: هل الإيمان بالثالوث ضروري للخلاص؟

والجواب في كلمةٍ واحدة هو: «نعم». ولكن، ولأن الرسول بطرس خادم أسرار الإنجيل قد طلب أن يكون لنا جوابٌ حسن عن سبب الرجاء الذي فينا، ولأن الموحِّدين يحاولون جاهدين استمالة قلوب الضعفاء والصغار الذين لم ينالوا بركة وقوة التعليم وبركة المعرفة، نشرح الإيمان الرسولي المسلَّم لنا من الرب يسوع، ومن القديسين.

٢- **أولاً**: الخلاص ليس هو خلاصٌ من العقوبة وحدها، بل هو نوال التبني وميراث الملكوت، وعطية الروح القدس.

وهكذا لنسأل أنفسنا: هل الله واحدٌ فقط؟ أم الله واحد في ثالوث؟ لأننا إذا حاولنا أن نحصر التعليم عن الله في إلهٍ واحدٍ فقط، فقدنا عطية الروح القدس؛ لأن الواحد إذا أعطى ذاته لم يعُد هو العاطي، بل العطية.

وإذا تصوَّر أيٌّ منا أن العاطي هو العطية واختصر التمايُز بين العاطي والعطية، ضاع منه إعلان المحبة.

(١) العنوان الأصلي: رسالة إلى الأب يوسابيوس.

ولأن العاطي والعطية - كائنين - كلاهما لهما ذات المحبة وذات الجوهر، صارت المحبة أقوى؛ لأن محبة اثنين ليست كمحبة واحد.

والأهم من هذا هو أن الواهب والعاطي يعطي آخر، فالآب يعطي الروح القدس كما أعطانا الابن أيضاً؛ لأننا نأتي إلى الله كعبيدٍ خطاة ونوهَب عطية الروح القدس لكي نحيا كأبناء. ولو كانت البنوة غير كائنة في الجوهر الإلهي لتعذَّر علينا أن نقول إنها عطية أبدية، ولكن لأن الله الآب هو آب الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح، صارت عطية التبني عطيةً أبديةً؛ لأن أساسها ثابتٌ في الله، أي في جوهره.

ولأن الابن «لبس الجسد»، صار الجسد هو الأداة التي بها يوهَب التبني الأبدي للإنسان. ولذلك كان من الضروري أن نميِّز بين الأُبوة في الآب والبنوة في الابن، وهو متعذِّرٌ علينا إن استخدمنا كلمة الله واحد، واكتفينا بها؛ لأنها لا تشرح أي شيء خاص بالخلاص، بل هي جيدة جداً عندما نتكلم عن الله كخالقٍ، ولكنها بلا قوة إذا تكلمنا عن الله كمخلِّصٍ وفادٍ.

٣- **ثانياً**: إن التوحيدَ تعليمٌ عن الله كخالق، وهو ما نقبله، ولكنه ليس تعليماً عن الله كمخلِّصٍ وفادٍ، ولذلك يجب علينا أن نسأل: هل يمكن أن نعلِّم بالله الواحد كخالقٍ، ونقول إنه هو نفسه المخلِّص؟

والجواب هو كيف نتصوَّر موضوع الخلاص، إذا كان الخلاص من واحد؟ لأن مَن يعطي من كيانه ليس كمَن يعطِ شيئاً خارجاً أو بعيداً أو مختلفاً عن كيانه؛ لأن ما هو غير الله لا ينتمي إلى كيان أو جوهر الله، بل هو من الطبيعة المخلوقة التي خُلِقَت من العدم. ولكن، ولأن الخلاص هو حياة الله نفسه وقد انسكبت في الإنسان لكي يثبِّت الإنسان إلى الأبد في شركةٍ أبديةٍ، فقد جاء انسكاب حياة الله فينا ولنا بنوة وعطية من الآب؛ لأن البنوة في الآب والعطية في الآب، ومن الآب جاء الابن إلينا وتجسَّد، ومن الآب وُهبنا الروح القدس.

لذلك علينا أن نسأل أنفسنا: كيف نتصوَّر الخلاص؟

هل هو علاقة خارجية مع الله، أم هو شركة في الله نفسه؟ أي شركة تحوِّل كياننا المخلوق من العدم إلى شركة تَبَنٍّ. ولذلك، لولا وجود بنوة في جوهر الله، ولولا وجود ابن الله الأزلي لتعذَّر علينا أن نتكلم عن تبني الإنسان؛ لأن الآب يعطي ما يملك ويجود بما لديه، وهو لا يشركنا في شيء خارج كيانه ولا يجود بعطيةٍ مخلوقةٍ؛ لأن ما هو مخلوق يفتقر إلى البقاء. فإذا كانت نعمة الله الغنية أبدية، صار التبني هو شركتنا في الآب، أي أننا ننال البنوة من الآب في ابنه يسوع المسيح.

٤- **ثالثاً**: وماذا عن عطية الروح القدس الذي قال عنه المخلِّص: «أطلب من الآب أن يعطي لكم معزياً آخر روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه أمَّا أنتم فهو ماكثٌ معكم ويدوم فيكم إلى الأبد» (راجع يو ١٤: ١٧).

نحن ننال الروح القدس لأنه روح الآب، وهو عطية سُكنى الله فينا، فقد حلَّ ملء اللاهوت جسدياً عندما تجسَّد ابن الله، ونقل حلول اللاهوت فينا على هذا النحو:

[١] منحنا أن ننال ذات الطبيعة الجديدة التي كوَّنها الروح القدس نفسه في أحشاء والدة الإله القديسة مريم، ولذلك نحن نولد «ليس من مشيئة رجل، ولا من دم ولحم، بل من الله» (راجع يوحنا ١: ١٣). وعندما نولد على مثال وشبه ميلاد الرب يسوع، فإننا نأخذ من الابن ذات الطبيعة الإنسانية الجديدة التي توهَب بالروح القدس، فنصير شركاء المسيح وشركاء شكله[1].

[٢] ولأن الرب يسوع أكمل عمله وأسَّس الخلاص وثبَّت الشركة، لذلك أخذنا نحن الروح القدس بعد صعوده المجيد، أي نفس الروح الذي كوَّن إنسانيته وجعل إنسانيتنا على مثال إنسانيته لكي نشترك في الابن المتجسِّد وننال شركة في بنوته تفتح لنا أحضان الآب حيث روح الآب

(١) راجع قسمة القيامة للابن «فليضئ علينا نور معرفتك الحقيقية لنضيء بشكلك المحيي». وراجع صلاة خضوع للآب قبل التناول في القداس الكيرلسي «إذ نصير شركاء في الجسد وشركاء في الشكل وشركاء في خلافة مسيحك».

نفسه. ولذلك، الروح القدس شريك خدمة الخلاص المساوي للابن له المجد والمساوي للآب.

ونحن هنا لا نشرح سبب وجوده في الجوهر الإلهي؛ لأن هذا فوق طاقة أي إنسان، كما أنه فوق طاقة وقدرة أي إنسان أن ينكر وجوده الإلهي؛ لأنه روح الأنبياء حسب كلمات الإيمان (قانون الإيمان) «الرب المحيي الناطق في الأنبياء»، ولذلك نحن نوهَب روح النبوة نفسه لكي نتعلم أسرار الله، وندرس الكتب المقدسة، ونقتني المواهب السماوية التي تؤهِّلنا للحياة في هذا الدهر، وفي الدهر الآتي لا سيما موهبة معرفة أسرار الله.

٥– هنا يجب أن نسأل: هل التعليم بالخالق الواحد يشرح الخلاص على هذا النحو المعلن في بشارة الحياة، أي الإنجيل؟

والجواب واضحٌ لكم، وهو أنه من المتعذِّر على مَن يريد الشركة في الحياة الإلهية أن يؤمن بإلهٍ واحدٍ فقط؛ لأن توحيد الخالق يكشف فقط عن الإيمان بخلق العالم، أمَّا التوحيد المثلث، فهو رسالة الخلاص والحياة الأبدية.

٦– هنا، ومن أجل أن يكون التعليم كاملاً، أُحذِّركم من خداع الموحِّدين؛ لأن هؤلاء يحاولون اقتحام حياة الله تحت ستار حياةٍ نسكيةٍ تشبه الحياة التي أخذناها من الآباء الحسني الإيمان، وهو زهدٌ يؤهِّل الإنسان لعبادة الإله كخالق، ولكنه لا يؤهِّل الإنسان لحياة البنوة.

وعندما قال الرسول يوحنا: «نحن الآن أولاد الله»، ولذلك لا يعرفنا العالم، أي لا يفهم علاقتنا الخاصة بالله كمخلِّصٍ وكآب؛ لأن العالم يستطيع أن يعرف خالقه، وفي نفس الوقت يجهل أن الخالقَ هو المخلِّص، ولذلك يكمل الرسول «نحن الآن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون، ولكننا نعلم أنه متى أُظهِر سنكون مثله لأننا سنعاينه كما هو» (راجع رسالة يوحنا الأولى ٣: ١ – ٢).

٧– نحن ندخل الحياة النسكية متشبِّهين بالذين كان الثالوث هو نور الحياة الأبدية فيهم: أنطونيوس الكبير، ومقاريوس المصري، والسكندري، وبولس المتوحِّد،

وباخوميوس أب الشركة، والذين سبقونا في الإيمان من الآباء الذين عشنا معهم، وعنهم أخذنا الإيمان والحياة النسكية.

لذلك أيها الإخوة الأحباء احذروا كل ضلالٍ يستتر تحت ستار النسك والزهد؛ **لأننا لا نرث ملكوت الله بالأعمال الصالحة، ولا ننال التبني بمعرفةٍ، بل بعطية من الآب تغرس فينا المعرفة، ولا ننال سكنى اللاهوت فينا عنوةً، بل بالخلاص الذي مُنِح لنا في يسوع المسيح بالروح القدس.**

خاتمة: أيها الأب الوقور، ثبِّت الإخوة، وانذر الذين يظنون أنهم يعرفون الأمور السماوية بإعلانات تخالف ما هو مسلَّمٌ لنا في الأسفار المقدسة، متذكرين كلمات الرسول بولس «إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم به، فلتكن هذه البشارة ملعونة» (راجع غلاطية ١: ٨).

وسلام الله الكامل يملك على قلوبكم، ويحفظنا معكم في الإيمان المستقيم.

صلُّوا لنا لكي نكمِّل جهادنا، ونرث ملكوت الله الذي وعدنا به الرب يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد آمين.

